نساء فلاسفة

الكتاب
نساء فلاسفة في العالم القديم

الكاتب
أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب
ت: ٥٧٥٦٤٢١

الجمع والتنفيذ الفنى
المركز العربي
للنشر والترجمة والدعاية
ت: ٥٧٥١٨٨٤

مراجعة لغوية
إيهاب غريب

تصميم الغلاف
محمد لطفي

سنة الإصدار
١٩٩٦

الفيلسوف .. والمرأة
- ٤ -

نساء فلاسفة

تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت

الناشر: مكتبة مدبولي

الفهرس

مـدخـل عـام ...

«قالت: يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى، ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون».

(النمل - ٣٢)

«جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى، ومن ثمَّ فتسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً ...!»

أرسطو: السياسة ١٣٥٩ - أ

مدخل عام

هذا الكتاب – وهو العدد الرابع من سلسلة «الفيلسوف .. والمرأة» ـ دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف. إنه دعوة لنبذ الفكرة الساذجة التى تقول «أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل»، أو أن تفكيرها يغلب عليه العاطفة والانفعال، وأن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور، وتنقصها الرؤية والتدبر، فلا الدين يقول شيئاً من ذلك، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ يشهد بصحة شئ منه!

والواقع أن هذه الفكرة الساذجة قال بها أرسطو – المعُلّم الأول – ثم شاعت فى العالمين العربى والغربى على حد سواء، وأصبحت هى الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة، وأصبحت المرأة «رجلاً ناقصاً» لا دور لها فى هذه الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد. وأخطر ما فى نظرية أرسطو أنه يذهب إلى أن الطبيعة «التى لا تفعل شيئاً باطلاً» هى التى جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع – لا سيما المجتمع الذكورى – دخل فى تحديد هذه الدونية(١)!.

---

١ – عرضنا فكرة ارسطو بالتفصيل فى كتابنا «أرسطو .. والمرأة» – العدد الثانى من هذه السلسلة – مكتبة مدبولى.

والعجيب أن العالم العربى تلقف هذه النظرية الأروسطية بغبطة - لحاجة فى نفسه - وراح يضفى عليها شيئا من القداسة. وللقارئ المنصف أن يقارن بين الآية الكريمة التى صدَّرنا بها هذا المدخل، والتى تشهد برجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وحكمتها فى تدبير شؤون الحكم، ممثلة فى صورة «بلقيس» ملكة سبأ، بعد أن جاءها كتاب سليمان الحكيم، وحوارها مع أشراف قومها - وبين عبارة أرسطو التى صدَّرنا بها هذا المدخل أيضاً، ليعرف كيف يضل ضلالاً بعيداً، إنْ هو ذهب إلى أن الدين يؤيد فكرة أرسطو الساذجة عن دونية عقل الأنثى وعجزها عن إدارة دفة الحكم! وسوف نعود إلى هاتين الفكرتين بعد قليل.

إننا إذا أثبتنا عن طريق شواهد التاريخ أن هناك امرأة واحدة تفلسفت، أو برهنت على رجاحة العقل وصواب الفكر عندها، فإننا نهدم بذلك آلاف الأمثلة الإيجابية التى يقول بها أصحاب الفكرة الأروسطية المتخلفة التى تغمض العين حتى لا ترى نماذج مضيئة لنساء راجحات العقل، صائبات التفكير، سديدات الرأى على نحو ما سنرى بعد قليل.

وها نحن أولاء نعرض عليك، فى هذا الكتاب، نماذج من «نساء.. فلاسفة» فى العالم القديم، يعقبه قريباً، بإذن الله، كتاب آخر يكمله ويتممه يعرض لنماذج من «نساء ... فلاسفة» فى العالم الحديث، لكن علينا قبل كل شئ أن نتفق على فكرتين هامتين هما:

أولاً:

- هناك قاعدة أساسية فى فلسفة العلم تقول إن الظاهرة السلبية الواحدة أهم عشرات المرات من آلاف الظواهر الإيجابية: فلو أنك

جمعت آلافاً مؤلفة من قطع الحديد التى تتمدد بالحرارة، ثم عثرت على قطعة واحدة لا تتمدد مهما وُضِعَتْ فى النار، كانت القطعة السلبية الواحدة (التى لا تتمدد) أهم من آلاف القطع الإيجابية التى جمعتها؛ ذلك لأنها سوف تُبْطِلُ، فى الحال، القانون الذى يقول: «إنَّ الحديد يتمدد بالحرارة»، وقل مثل ذلك فى «غليان الماء» أو «الطفو» أو غيرها من القوانين المعروفة، إذ يتحتم عليك فى هذه الحالة أن تبحث عن قانون جديد يضم آلاف الظواهر الإيجابية مع الظاهرة السلبية التى وجدتها، وحتى ذلك الوقت سيظل «القانون» الذى يقول «إن الحديد يتمدد بالحرارة» باطلاً!

ثانيًا:

– علينا أن ننتبه جيداً إلى أننا بذلك نريد أن نستبعد العبارة التى تتردد كثيراً، والتى أُسِئ استخدامها كثيراً أيضاً والتى تقول «إن لكل قاعدة شواذ» – فهى عبارة يرفضها التفكير العلمى السليم، فلا شذوذ فى القانون، بل لابد أن تندرج تحته جميع الظواهر التى يقوم بتفسيرها. ويبدو أن عبارة «لكل قاعدة شواذ» ابتكرها النحاة عندما عجزوا عن إدراج كلمات معينة فى القاعدة اللغوية التى وضعوها فاكتفوا بهذه العبارة، لكن لا شئ من هذا القبيل يمكن أن تجده فى القانون العلمى، فلا تستطيع أن تقول إن الماء يغلى فى درجة حرارة ١٠٠ (طبقاً لظروف معينة معروفة) ما عدا هذه الكمية القليلة من الماء الموجودة فى بيتى لأنه ماء «شاذ» ولكل قاعدة شواذها! التفكير العلمى السليم يقول لك إن القانون لابد أن يكون كلياً، أعنى: ينطبق على كل جزئيات الظاهرة التى تدرسها. ومن هنا كانت أهمية الظاهرة السلبية الواحدة؛

لأنها تهدم صفة «الكلية أو العمومية»، ومن ثم تُبْطِل القانون وتُوقف العمل به إلى أن تجد قانوناً أوسع وأشمل يضم الظواهر الإيجابية والظاهرة السلبية فى آن معاً.

هذا تمهيد ضرورى لما ننوى أن نعرضه فى هذا الكتاب، فقد جرت العادة التى أصبحت أقرب إلى البدهية الواضحة بذاتها — أن نقول: إن تاريخ الفلسفة، لا سيما الفلسفات القديمة، هو تاريخ الفلاسفة من الرجال، وبالتالى: ليس من المألوف أن يكون هناك «نساء ... فلاسفة»، بل قد يعجب القارئ إن لم يسخر فى أعماقه من عنوان الكتاب! فبدايات الفلسفة الأولى المسجَّلة فى بلاد اليونان فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح، فى منطقة أيونيا، وفى مدينة ملطية Miletus على وجه التحديد — أنتجها قلة من الرجال هم ثلاثة: طاليس Thales (حوالى ٥٨٥ق.م)، وأنكسمندر Anaximander (حوالى ٥٦٥ ق.م)، وأنكسمنس (حوالى ٥٤٦ق.م) أعضاء المدرسة الأيونية الموقرة، إذ هم الطبيعيون الأوّل، ثم توالى موكب الفلاسفة من الرجال: هيراقليطس، وفيثاغورس وبارمنيدس، وزينون، وأنكساجوراس، وديمقريطس.. إلخ حتى نصل إلى العصر الذهبى للفلسفة اليونانية: عصر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو .... ثم بعده يسير الركب حتى نصل إلى الحركة التوفيقية فى القرن الثالث المسيحى.

ولو أنك استعرضت تاريخ الفلسفة الغربية، ومايرويه المؤرخون من أمثال فيندلبنت، وكونوفيشر، وكوبلستون، وإميل برييه، (بل حتى المؤرخون الفلاسفة من أمثال: هيجل وراسل ... إلخ) — لوجدت أنه استعراض لأفكار الرجال ومذاهبهم، فأنت لا تجد عندهم إشارة إلى

نساء فلاسفة باستثناء امرأة واحدة من الأفلاطونية المحدثة يذكرونها سريعاً – وعلى استحياء – هى: هيباشيا Hypathia فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة التى يصعب عليهم أن يغضوا الطرف عنها، لشهرتها العريضة فى تاريخ الفلسفة!

لو أنك سألت هؤلاء الرجال: لماذا لا نجد «نساء ... فلاسفة» طوال التاريخ؟ لأجابوا – فى الأعم الأغلب –: لأن المرأة رقيقة، عاطفية، انفعالية، ليس لديها القدرة على التفكير المجرد، أو أن الفلسفة – فى نهاية أمرها – «عقل» والنساء «ناقصات فى قدراتهن العقلية» فهن لا يبلغن من الذكاء والعبقرية مبلغ الرجال(1). وأعجب العجب أن تجد، فى بلادنا، من يرد هذه الأفكار الساذجة، والآراء الخاطئة إلى الإسلام العظيم الذى قدّم لنا نماذج رائعة لنساء لا يغلب عليهن الانفعال، ولا يخضعن

---

١ – لا يجوز الاحتجاج بالآيتين الكريمتين «للرجال عليهن درجة» (البقرة ٢٢٨) و«الرجال قوامون على النساء» (النساء – ٣٤) فهى آيات لا تتحدث عن الرجل والمرأة بإطلاق، وإنما تتحدث عن علاقة الزوج بزوجته داخل الأسرة، وترتيب واجبات الإنفاق من ناحية، وتربية الأولاد من ناحية أخرى، حيث إن الأسرة مفهوم أخلاقى وليس مؤسسة «سياسية»، ولهذا كان من الخطأ الفادح الخروج بفكرة «القوامة» من حيز الأسرة (الأخلاقى) إلى مجال الدولة (السياسى). وإذا كان من الخطأ – كما قلنا فى مكان آخر – الحديث عن «ديمقراطية فى الأسرة»؛ حيث إننا فى هذه الحالة نخلط بين الأخلاق والسياسة، فإن من الخطأ أيضاً أن يقول سائق سيارة الوزيرة أو الفراش الذى يقف على باب المديرة أن له «القوامة» عليها! راجع ذلك د. إمام عبد الفتاح إمام «مسيرة الديمقراطية... رؤية فلسفية» دراسة فى «عالم الفكر» عدد خاص عن الديمقراطية أصدره المجلس الوطنى للثقافة والفنون بدولة الكويت – العدد الحادى والعشرون عام ١٩٩٣.

للعاطفة، ولا يتصف سلوكهن بالتهور! ومن هنا تأتى أهمية الآية الكريمة التى صدَّرنا بها هذا المدخل على لسان «بلقيس» ملكة سبأ عندما تلقت كتاب سليمان الحكيم، فهى لا تسرع فى الرد، ولا تنفعل ولا تتهور، بل تدعو عِلْيَةَ القوم للتشاور قبل أن تقدم على اتخاذ قرار خطير يمس المملكة بأسرها «قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى، ما كنتُ قاطعة أمراً حتى تشهدون» (النمل – ٣٢) فى الوقت الذى يصور فيه القرآن الكريم اندفاع المستشارين من الرجال وتهورهم عندما راحوا يلوحون باستخدام القوة «قالوا نحن أولوا قوة، وأولوا بأسٍ شديد، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين..» فنبهتهم بلقيس إلى أن «الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون»(النمل ٣٣ – ٣٤).

ونحن، للأسف نترك هذه الآيات المضيئة لنأخذ بفكرة أرسطو التى تقول إن قدرات المرأة العقلية أقل من الرجل، وأنها لا تصلح للحكم، بل حتى ولا تستطيع أن تدبر شؤون الأسرة! ولهذا كان «جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى». وهكذا يصبح تسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً..! ونحن نأخذ بفكرة أرسطو الوثنى، ونغض الطرف عن آيات بينات تتحدث عن رجاحة عقل المرأة وسداد رأيها، وتتحدث بوضوح عن نساء أثبتن كفاءة فى الحكم، ورجاحة العقل، وقدرة، وسعة أفق أكثر بكثير من عشرات الرجال مثل: مارجرت تاتشر فى إنجلترا الملقبة بالمرأة الحديدية، و«بى نظير بوتو» فى

باكستان، و«أنديرا غاندى» فى الهند، و«جولدا مائير» التى ذقنا المُرّ على يديها فى إسرائيل![1].

فإذا طبقنا الفكرة التى بدأنا بها هذا المدخل، وهى القول بأن الظاهرة السلبية «الواحدة» أهم فى نظر التفكير العلمى من عشرات الظواهر الإيجابية، لكانت النتيجة العملية هى هدم الفكرة الشائعة عن ضعف المرأة، ونقص العقل عندها، وغلبة الانفعال والعاطفة عليها، وسيطرة التهور والاندفاع .. إلخ، فتلك كلها أوهام خلقها «عقل الرجل» ويبددها الواقع الحى الذى نعيشه!

الواقع أن الحملة التى تشن ضد «عقل المرأة»، والزعم بعدم قدرتها على التفلسف، والقول بأن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة من الرجال – هذه الحملة تتغافل الدور البارز الذى تلعبه الظروف الاجتماعية والدينية ... إلخ واستعباد الرجال للنساء وسيطرتهم عليهن طويلا، وما ترتب على ذلك كله من عدم إتاحة الفرصة للنساء للتعليم، وإظهار قدراتهن العقلية .. إلخ.

باختصار: هناك تغافل لدور «البيئة» فى قدح القدرات وإظهارها حتى بالنسبة للرجال. وما أشبه هذه الحملة بقول الغربيين «إن العقلية الشرقية أقل من العقلية الأوروبية» متغافلين أيضا الأثر السيئ للبيئة الشرقية، وغاضين الطرف عن نماذج مضيئة من العقل الشرقى ظهرت

---

١ – ناقشنا هذا الموضوع مناقشة مستفيضة فى الخاتمة التى ختمنا بها كتابنا «ارسطو ... والمراة» ص ١٠٩ وما بعدها – مكتبة مدبولى بالقاهرة، (العدد الثانى من سلسلة «الفيلسوف ... والمراة»).

ونبغت وأثبتت جدارة عندما واتتها الفرصة: لقد كان مجدى يعقوب - نابغة الطب فى إنجلترا الآن - لا شئ فى مجتمعه، ثم أصبح كل شئ فى جراحة القلب، دون أن يتغير شئ سوى البيئة المحيطة بهذه العقلية الجبارة! وقل نفس الشئ بالنسبة لعالم آخر هو «فاروق الباز» الذى أصبح منارة فى مجال ارتياد الفضاء، ولو أنه ظل فى مصر ما سمع عنه أحد! إننا نستعذب قتل المواهب فى الرجال، فما بالك بالنساء؟!

إن القول بأن «عقل المرأة» أقل فى كفاءته من عقل الرجل، وأن الأنثى ليست لديها القدرة على التفلسف، يشطر العقل البشرى شطرين، أو يجعله نوعين منفصلين ومتمايزين، وهو قول ظاهر البطلان، وهو يشبه تماماً القضية التى كثيرا ما أثارها المستشرقون حول إمكانية «العقل العربى» وقدرته على التفلسف، وإنكارهم أن هناك فلاسفة مسلمين: فالكندى، والفارابى، وابن سينا، وابن رشد... إلخ إلخ ليسوا سوى نسخ باهتة من أفلاطون أو أرسطو، أو أنهم خلطوا بينهما، وهم فى جميع الأحوال ليس لديهم القدرة على الخلق والإبداع، ومن ثم ليست لديهم فلسفة خاصة بهم!

ولقد تصدى الأستاذ العقاد لتفنيد هذه المزاعم فقال: «من ضروب التجنى التى لا تُحمد من العلماء أن يقال إن العقل العربى لن

---

١ - من المفارقات الغريبة أن يكون العقاد - رحمه الله - من أنصار القضية الأولى، أعنى: التى تؤكد عدم قدرة المرأة على التفلسف (راجع، مثلا، هذه الشجرة وغيرها) وبالتالى يجعل العقل البشرى نوعين لا نوعاً واحداً، ومع ذلك يدافع بحرارة عن القضية الثانية مبرهنا على أن العقل البشرى واحد، وليس ثمة أنواع أو درجات تميز صنفاً من البشر عن صنف آخر!!

يستطيع التفلسف بحال من الأحوال»(1) .. وهذا الرأى يروج بين الأوروبيين بغير تمحيص ولا مناقشة؛ لأنه يعجبهم ويرضى غرورهم، ومصلحتهم فى وقت واحد: يرضى غرورهم، لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله، وهو يرد على هذا الافتراء بقوله: «الواقع أنه لا اختلاف هناك فى أصل الطبيعة بين العقل الإغريقى والعقل البشرى فى السلالات الشرقية، وإنما الرأى السليم الذى يقبله المنطق والعلم على السواء أن موانع الفلسفة واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض، وكيفما كانت السلالة من عناصر الأجناس والأقوام، فالإغريق فى موضع العرب لا يتفلسفون، والعرب فى موضع الإغريق لا يحجمون عن الفلسفة ودراسة العلوم»(1) فلم تكن طبيعة العقل البشرى هى السبب فى عدم تفلسف الشرقيين عامة، والعرب بصفة خاصة، فما هو السبب فى رأى الأستاذ العقاد؟! يقول: «هذه البحوث (الفلسفية) كانت مباحة عند الإغريق، لأن بلادهم نشأت وتطورت، دون أن ينشأ فيها ملك قوى أو كهانة قوية، ولو قامت عندهم الدولة القوية، والكهانة القوية، كما قامت فى مصر وبابل، لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين..»(2).

وخلاصة القضايا التى يثيرها الأستاذ العقاد هى:

١ – طبيعة العقل البشرى واحدة عند جميع الأجناس والأقوام،

---

١ – عباس محمود العقاد «أثر العرب فى الحضارة الأوروبية» دار المعارف بمصر عام ١٩٤٦ ص ٩١.

٢ – المرجع نفسه ص ٨٤. – المرجع نفسه ص ٨٥.

فليس ثمة عقل بشرى عند فئة أو جماعة أو صنف من البشر يختلف عن فئة أو جماعة أخرى.

٢ – فكرة الاختلاف والفوارق بين عقول البشر، الخاطئة، روّج لها الأوربيون لمصلحتهم الخاصة.

٣ – السبب الحاسم فى عدم تفلسف الشرقيين هو الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التى مرّ بها الشرقيون، وأهمها – فى نظره – طغيان الحاكم وسيطرة رجال الدين.

٤ – هناك فكرة أخيرة يثيرها الأستاذ العقاد بعد ذلك يرد بها على قول الأوروبيين أن الشرقيين لم يبدعوا جديداً فى الفلسفة، وأن أقصى ما فعله المسلمون هو ترديد فلسفة أفلاطون أو أرسطو أوهما معا – والعقاد فى رده على هذا الافتراء يذهب إلى أن القدرة العقلية لا تعنى إبداع الجديد فحسب،بل تعنى أيضاً «فهم» الفلسفة القائمة وشرحها وهضمها، وتمثلها كذلك؛ فهذا، فى حد ذاته، دليل صارخ على قدرة عقلية كبيرة، فحتى لو سلّمنا جدلاً بأن المسلمين اقتصروا على شرح فلسفة أفلاطون أو أرسطو فإن ذلك يُعَد دليلاً على قدرتهم العقلية.

وهذه النقاط الأربع تنطبق تماما على قضية عدم تفلسف المرأة عبر التاريخ، أو أننا لا نجد «نساء ... فلاسفة»، أو أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة الرجال فحسب – فلا يجوز أن يقال إن السبب هو أن عقل الأنثى يختلف عن عقل الرجال الذى «هو بطبيعته» أعلى، وأكثر تفوقاً، وأشد ذكاء وعبقرية ... إلخ، فتلك فكرة خاطئة روّج لها الرجال لأنها تُرضى غرورهم، وتحقق مصلحة للرجل، بغير شك – مصلحة

فى إبقاء المرأة فى وضع أدنى لكى تخدمه، وتعطيه الوقت اللازم ليمارس هو حياته ومهامه التى يراها سامية ... إلخ؛ لهذا نراه يدافع بقوة عن الوضع المتدنى للمرأة، بل الأدهى من ذلك أن يقوم بتأصيله وتنظيره ويجعل منه «فلسفة» كاملة كما فعل أرسطو. وهنا تكمن الخطورة! فأنت ترى كبار الفلاسفة كانوا أبناء عصرهم تماماً، فتراهم يلخصون فى أفكار مجردة عادات مجتمعهم وتقاليده بالنسبة للمرأة، فيقدمون لنا نظريات فلسفية تنم عن كراهية متأصلة للمرأة، فى الوقت الذى تجدهم فيه «ثائرين» فى مجالات أخرى!

ومن هنا نستطيع أن نقول إن البيئة التى عاشت فيها المرأة طوال التاريخ، وما يشكلها من عوامل وظروف اجتماعية، وسياسية، ودينية واقتصادية... إلخ، هى التى منعت المرأة من التفلسف، وليس بسبب «نقص» أو «خلل» فى قدرتها العقلية! الظروف التى مرت بها المرأة هى التى مكنت الرجل من استعبادها ووضعها فى زاوية منعزلة من الدار، ليطلق عليها لفظ «الحريم». وعندما خضع الرجل لطغاة عبر التاريخ حرموا عليه التفلسف على نحو ما فعل الإمبراطور الرومانى «نيرون» وغيره – اختفت الفلسفة أيضاً حتى بالنسبة للرجال! ومعنى ذلك أن الرجل لو كان فى وضع المرأة، ولو مرَّ بهذه الظروف نفسها، لكان هو الأدنى والأقل عقلية أو العاجز عن التفلسف!

بقيت نقطة أخيرة وهامة فى حديث «العقاد»، وهى أن مجرد «فهم» الفلسفة هو وحده دليل على قدرة عقلية متقدمة. ومعنى ذلك أننا إذا وجدنا من النساء نماذج استطاعت أن تفهم الفلسفة، وأن تناقش موضوعاتها، وأن تدلى برأى فى قضاياها – فذلك دليل قوى على

قدرتها العقلية، حتى ولو لم تبدع لنفسها فلسفة مستقلة!

الواقع أنه رغم خضوع النساء الطويل للرجال، واستعبادهن، وعزلهن عن الحياة العامة، ونقص فرص التعليم أمامهن، بل عدم إتاحة الفرصة على أى نحو للمشاركة فى ثقافة العصر – رغم ذلك كله فإنك تستطيع أن تجد هنا وهناك نساء لامعات، لهن دور فى «البحث عن الحكمة» منذ فجر الفلسفة. صحيح أنه دور صغير وبسيط، لكنه يثبت – على أية حال– قدرتهن على القيام بدور أكبر إذا ما لاحت الفرصة، وتغيرت البيئة المناوئة التى تعمل على كبت قدراتهن، وتمنعها من الظهور.

سوف تجد فى هذا الكتاب عبارات منسوبة إلى النساء الفلاسفة، فى العالم القديم – لا سيما قبل ظهور المسيحية – وهى عبارات قليلة وبسيطة، أو قل: شذرات متناثرة هنا وهناك، لكنها تعبر عن فكر ورأى وموقف، ومن ثم فهى ضرب من التفلسف لا يمكن أن يحتج القارئ بأنها مجرد «عبارات» قليلة وبسيطة، فهكذا كانت الفلسفة فى بدايتها: لم يُعْرف عن طاليس – أول الفلاسفة – سوى أنه قال «الماء هو أصل الأشياء جميعاً» وأن «العالم مملوء بالآلهة»، وقال غيره إن أصل الأشياء هو الهواء، أو النار، أو العناصر الأربعة ... إلخ. مجرد عبارات قليلة وبسيطة، ومع ذلك كانوا فلاسفة وأصحاب مذاهب فلسفية «طبيعية» أحياناً، و«ميتافيزيقية» أحياناً أخرى، و«أخلاقية» أحياناً ثالثة.

وكما أنك تجد انه كان هناك كتب للفلاسفة من الرجال لكنها فقدت، ولم يبق منها سوى فقرات، فسوف تجد ذلك بالضبط مع النساء الفلاسفة، فلم يبق لنا مثلا من كتابات «إيزارا .. Aesara» سوى

شذرات قليلة من كتابها: «عن الطبيعة البشرية .. Om Human Na-ture» على نحو ما سنعرف فيما بعد.

وكما أن تاريخ الفلسفة الغربية يبدأ فى اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد – بالمدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) – فكذلك يبدأ تاريخ النساء الفلاسفة فى القرن السادس قبل الميلاد بالمدرسة الفيثاغورية (وقد ولد فيثاغورس فى جزيرة ساموس Samos فى بحر إيجة المواجهة لمدينة ملطية)، فقد حظيتْ المرأة الفيثاغورية بفرص هامة مكّنتها من القراءة والكتابة، وقبل كل شئ من التفكير والمناقشة وإعمال العقل، ووقفت على قدم المساواة مع الرجل. وكان الاعتقاد السائد عند «الجماعة الفيثاغورية» أنه على الرغم من أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل، فإنها لا تقل عنه أبداً، لا من حيث القدرة، ولا من حيث القيمة.

ومن هنا، فقد كانت النساء الفيثاغوريات مثقفات، لهن اهتمامات فكرية وأدبية بارزة، وقد عشن إبان تأسيس المدرسة الفيثاغورية الأولى، وكانت ثيانو Theano زوجة فيثاغورس Pythagoras أشهرهن جميعاً، وقد قامت مع بناتها الثلاث: أريجنوت Arignote، وميا .. Myia، ودامو Damo، برئاسة المدرسة الفيثاغورية وإدارتها بعد وفاة مؤسسها: فيثاغورس(١).

وقد توحى بعض الأسطر الأولى من الشذرات المتبقية، أن

1 - Peter Gorman: "Pythagoras: Alife" Routledge & Kegan Paul 1979, p.120.

الفيثاغوريات - أول النساء الفلاسفة فى التاريخ - كتبن فقط فى الاقتصاد المنزلى، أو أن الموضوعات التى كتبن فيها تدور حول رعاية الطفل وتربيته، ودور المرأة فى المنزل والمجتمع... إلخ، غير أن القراءة النقدية الفاحصة والمتأنية لهذه الشذرات تجعل القارئ يخرج بنتيجة مختلفة: فهؤلاء النسوة من فلاسفة الفيثاغورية يحللن مفهوم «الهارمونيا .. Harmonia»، والتناغم أو الانسجام فى محاولة لبيان الطريقة التى يمكن بها تطبيق هذا المفهوم على بنية الدولة أو إدارتها، وعلى بنية الأسرة وإدارتها، بوصفها العالم الصغير بالنسبة للدولة. فإذا كان فلاسفة الفيثاغورية من الرجال قد اتجهوا بجهودهم نحو تفسير العالم الكبير Macrocosm، تفسيراً رياضياً يجعل نسيجه «العدد والنغم»، فإن فلاسفة الفيثاغورية من النساء اقتصرت جهودهن على العالم الصغير Microcosm، أعنى: على الفلسفة بالمعنى الواسع للفظ الذى يشمل الأسرة والدولة فى أن معاً، فقد ناقشن كيف يمكن للمرأة أن تطبق «مبدأ الهرمونيا» (التناغم - الانسجام) على تنشئة الأطفال، ليصبحوا فى مرحلة النضج منصفين فضلاء، وأفرادا متناغمين. كما درسوا الطريقة التى يمكن للمرأة أن تطبق بها هذا المبدأ على ميادين أخرى، فى مجالات منوعة من حياتها اليومية. وليس فى ذلك شئ من الاقتصاد المنزلى، كما ذهب بعض الرجال الذين يريدون التهوين من شأن الدور النسائى فى الفلسفة الفيثاغورية! وإنما هو دراسة وتطبيق للنظرية الأخلاقية عند الفيثاغوريين، مع إكمالها بجوانب من علم نفس النمو الأخلاقى، فضلاً عن نظرية الالتزام الأسرى، وموضوعات أخرى كثيرة.

ولم تكن الفيثاغوريات فى المدرسة الأولى، أو فى الفيثاغورية المتأخرة، هن النساء الفلاسفة الوحيدات فى العالم القديم، بل هناك كثرة كثيرة، وقد قام جيل ميناج Gilles Menage (١٦١٢ - ١٦٩٢) - وهو محامٍ مثقف وباحث فى اللغة والكلاسيكيات فى القرن السابع عشر - بدراسة النساء الفلاسفة فى العالم القديم، وذهب إلى أنه اكتشف منهن خمس وستين امرأة! وقد سجّل هذا الاكتشاف فى كتاب جعل عنوانه «تاريخ النساء الفلاسفة»، ونشره عام ١٦٩٠م ثم عام،

---

١ - وضعه «ميناج» باللغة اللاتينية، وهى لغة المثقفين فى القرن السابع عشر، بعنوان : "Historia Mulierum Philosopharum" وكان «ميناج» «عضواً» بارزاً فى معظم الصالونات الأدبية فى باريس، حتى أنه كوّن لنفسه حلقة أدبية سميت باسم «لقاء الأربعاء» لأن أعضاءها كانوا يلتقون يوم الأربعاء من كل أسبوع، بل واصل أصدقاؤه ومحبوه وأعضاء حلقته اللقاء بعد وفاته، وجُمعت أحاديثهم وصدرت تحت عنوان «ميناجيات. Menagrana». ولقد نشر أيضاً معجماً لغوياً عن أصول اللغة الفرنسية فى باريس ١٦٥٠م. وملاحظات حول اللغة الفرنسية فى باريس ١٦٧٢م. وفى ميدان الفلسفة كتب شروحاً مفصلة لكتاب ديوجنز اللايرتى: «حياة مشاهير الفلاسفة» باريس ١٦٦٣، وقال فى مقدمة الكتاب إنه ظل طوال حياته يتمتع بتاريخ الفلسفة الذى كان يسميه «بتاريخ العبقرية»، وبعد ذلك كتب «تاريخ الفلاسفة من النساء» الذى نشره أولاً فى ليون عام ١٦٩٠م تكملة لكتاب ديوجنز اللايرتى سالف الذكر. وقامت بياتريس هـ. زدلر Beatrice H.Zedler بترجمته من اللاتينية إلى الإنجليزية مع مقدمة وتعليقات عام ١٩٨٤م.

١٦٩٢م[1]، وهو كتاب كان بالغ الأهمية فى عصره وفى عصرنا أيضاً، لأنه يشكل إسهاماً مبكراً فى جانب مُهْمَل من تاريخ الفلسفة، ومن التاريخ العقلى للمرأة بصفة عامة. ولقد أصبح نقطة انطلاق فى بحوث جديدة فى هذا الموضوع[1].

وليس فى نيتنا أن نعرض لجميع النساء الخمس والستين اللاتى درسهن «ميناج» فى كتابه؛ فليس المهم أن نقوم «بحصر» شامل لجميع «النساء ... الفلاسفة» طوال التاريخ، بل أن نقدم نماذج نهدم بها الفكرة السائدة الشائعة التى تقلل من قدرات المرأة العقلية، بهدف أن تستعيد المرأة العربية ثقتها بنفسها، وتعمل إلى جانب الرجل فى إعادة بناء مجتمعنا، إذ لا شك عندى أنه حدثت رِدّة فى عالم المرأة[2] نتيجة للانغلاق الفكرى فى عهد الثورة المصرية.

لن نتحدث مثلا عن المرأة التى يعتقد ديوجنز اللايرتى «أنها أول امرأة يمكن ذكرها فى سياق جهود الفلسفة اليونانية، واسمها كليوبولينا.. Cleobulina حوالى ٦٠٠ق. م، وهى التى وضعت بعض

---

١ – أصدرت مارى ألن ويث ثلاثة مجلدات بعنوان «تاريخ النساء الفلاسفة»، المجلد الأول يتناول حقبة تاريخية تمتد من ٦٠٠ق.م حتى ٥٠٠ق.م، والثانى من٥٠٠م حتى ١٦٠٠م، والثالث من ١٦٠٠ حتى ١٩٠٠م. كما أصدرت إيشيل كيرزى كتابها «نساء فلاسفة». وأصدرت ليندا ماكلستر مجلة فلسفية نسائية بعنوان «هيباشيا»... إلخ إلخ.

٢ – انظر النماذج التى قدمها لهذه الردة، أستاذنا المرحوم د. زكى نجيب محمود فى كتابه «فى مفترق الطرق» فى ثلاث مقالات عامة بعنوان «ردة فى عالم المرأة» ١و٢و٣ من ص١٣٩ حتى ص١٦٥ دار الشروق بمصر عام ١٩٨٥.

الألغاز الفلسفية، وربما كانت هى أم الفيلسوف طاليس الذى يشير إليه الجميع على أنه أبو الفلسفة الكسمولوچية فى القرن السادس ق. م .. ويشير ديوجنز إلى كليوبولينا على أنها «أحكم امرأة»[1]، وقد نقل عنه «ميناج» فى كتابه هذه المعلومات، وإن كان يضيف أنها كانت موجودة عند «بلوتارك» فى كتابه «مأدبة الحكماء السبعة». ولن نذكر هيبو Hippo ابنة خيرون الحكيم[2] ولا «ميرو Myro» التى يُطلق عليها قاموس سويداس Suidas اسم «فيلسوفة رودس»..إلخ إلخ[3]، ولا عشرات غيرهن، وإنما سوف نعرض لشخصيات أكثر أهمية.

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هى التى أفسحت المجال لتعليم المرأة ومشاركتها فى الحياة العقلية والمسائل الفلسفية، فسوف ينصب الفصل الأول فى هذا الكتاب على هذه المدرسة: تأسيسها، وبنيتها، وقواعدها.. إلخ، لكى ندرس فى الفصل الثانى بعض فلاسفة الفيثاغورية المبكرة من النساء. فى حين ينصب الفصل الثالث على «النساء .. الفلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة». أما الفصل الرابع، فسيكون عن امرأة خصص لها أفلاطون محاورة كاملة – وهذه المرأة هى أسبازيا، معلّمة البيان « التى سعى إليها سقراط، واعترف أنها هى التى وضعت الخطاب الجنائزى لبركليز.. والذى ألقاه فى ذكرى شهداء

1- Diogenes Laertius:" Lives of Eminent Philosophers" Translated by R.D. Hicks, Harvard University Press1979, P.27.

2 - G. Menages: The History of Women Philosophers P.5.

3 - Ibid.

أثينا فى حربها مع اسبرطة. وفى الفصل الخامس ندرس «ديوتيما.. مُعلمة سقراط» ونظرياتها عن الحب، وخلود النفس على نحو ما عرضها أفلاطون فى محاورة «المأدبة»، ونناقش الشخصية التاريخية لهذه المرأة.

فى الفصل السادس ندرس «جوليادونا .. أو جوليا الفيلسوفة» ورعايتها للفلاسفة وعلماء الرياضة، والأطباء، ومنهم الاسكندر الأفروديسى وجالينوس الطبيب، وفلوستراتوس الفيثاغورى .. إلخ. فى حين ينصب الفصل السابع على «ماكرينا.. القديسة الزاهدة». أما الفصل الثامن والأخير، فسوف نخصصه للفيلسوفة المصرية التى ذاع صيتها فى العالم القديم «هيباشيا .. فيلسوفة الإسكندرية».

وإذا شعر القارئ أن النصوص قليلة للنساء الفلاسفة فى العالم القديم، فعليه أن يكون على بينة أن تلك هى الحال نفسها بالنسبة للفلاسفة من الرجال فى الفلسفة القديمة، وأن سقراط نفسه لم يكتب حرفاً واحداً، وأننا عرفنا آراءه وأفكاره مما يقوله تلميذه أفلاطون بصفة خاصة. لكن ذلك لا يعنى أننا لن نجد طوال التاريخ مؤلفات لنساء فلاسفة، فعندما تتاح الفرصة للمرأة سوف تكتب وتترك آثاراً فلسفية خالدة: على نحو ما نجد، مثلا، عند سوزان ستبنج Susan Stebbing (١٨٨٥ – ١٩٤٣) الفيلسوفة وعالمة المنطق الإنجليزية، أو سوزان لانجر Susan Langer (١٨٩٥ – ١٩٨٥) فيلسوفة الجمال وعالمة المنطق الأمريكية، أوسيمون دى بوڤوار Simone de Beavoir (١٩٠٨ – ١٩٨٦) الفيلسوفة الوجودية الفرنسية التى كتبت عن «الجنس الآخر»، وكتبت عن «الأخلاق»، كما كتبت عن «الشيخوخة»،

فضلاً عن الروايات، تماماً كما فعل سارتر. ومن الألمان حنه آرندت Hannah Arendt (١٩٠٦ - ١٩٧٥) الفيلسوفة الألمانية الأصل التى هربت من النازى إلى الولايات المتحدة، وأصبحت منظرة سياسية، فقد كتبت عن «أصول الحكم الشمولى» كما كتبت «عن الثورة»، كما كتبت عن العنف، وعن الحرية، وعن حياة العقل .. إلخ. وعشرات غيرهن.

إننى لآمل، بهذا الكتاب، أن يعيد القارئ النظر فى الآراء الساذجة التى تنتشر فى مجتمعنا عن المرأة، كما آمل أن أكون قد قدمت ما يساعد المرأة العربية على أن تستيقظ من جديد، وأن تواصل عطاءها السابق قبل الثورة.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد

الكويت فى يناير ١٩٩٦ **إمام عبد الفتاح إمام**

١

الفصل الأول

«فيثاغورس... ومدرسته»

(من واجب المرء أن يكون صادقًا بغير قسم..!)

فيثاغورس

أولاً: نبذة عن فيثاغورس:

لما كانت المدرسة الفيثاغورية هى أول مدرسة فى التاريخ أفسحت المجال للنساء للالتحاق بها، كما كانت بالتالى أول مدرسة نبغت فيها النساء،وظهر فيها «نساء ... فلاسفة» – فإن علينا أن نخصص لها الفصل الأول فى محاولة للتعرف على فيثاغورس، والجماعة الفيثاغورية: نظامها، وفلسفتها..إلخ إلخ.

يقول ديوجينز اللايرتى ... Diogenes Laertius نقلا عن أرستبوس القورينائى فى كتابه عن «الأطباء»: «إن فيثاغورس اكتسب اسمه لأنه «نطق بالحق» كشخص معصوم من الخطأ، كما تفعل عرافة دلفى المسماة – Pythian» [1]. ويقول ول ديورانت فى هذا المعنى: «إن معنى كلمة فيثاغورس هو «الناطق الفيثى» بلسان مهبط الوحى فى دلفى. وكان كثير من أتباعه يقولون عنه إنه هو أبوللو نفسه» [2]. ويزعم البعض أنه ابن مواطن له منزلته المرموقة، وهو منسارخوس Mnesarchos .. ، فى حين زعم آخرون أنه ابن الإله أبوللو. وسأترك

1- Diogenes Laertius: Lives of Eminent Philosophers Vol. II Translated by R. D. Hicks, Harvard University Press1979. P.339.

٢ – ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السادس. ترجمة محمد بدران ص ٢٩٣.

٣ – ب. راسل «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول. ترجمة د. زكى نجيب محمود، ص ٦١، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

للقارئ حرية الاختيار بين هذين البديلين، على حد تعبير راسل (٣).

وتقول الروايات المتواترة أنه ولد فى جزيرة ساموس.. Sa-mos فى بحر إيجة المواجهة لمدينة ملطية وازدهر شأنه نحو عام ٥٣٢ قبل الميلاد، وتعزو إليه هذه الروايات أنه صرف ثلاثين عاماً فى الأسفار. ويقول عنه هيراقليطس: «إن فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة..»(١). ويبدو أن هيراقليطس يشير هنا إلى كثرة أسفاره. ذلك أنه ولد أثناء حكم بوليقراطس Polycrates طاغية ساموس، وأنه لهذا السبب هجر موطنه فراراً من الطاغية؛ فذهب أولاً إلى ملطية حيث لقى «طاليس» و «أنكسمندر»، وأخذ عنهما العلم. كما ذهب إلى سيروس Syros– إحدى جزر بحر إيجة أيضاً – ليتعلم من فيلسوفها فيريكيدس.. Pherekydes. وعن هؤلاء المعلمين الثلاثة تلقى فيثاغورس أول يقظة علمية وعقلية. وكان شاباً صغير السن عندما شرب من حكمتهم! (٢)، ويروى «ديوجينز اللايرتى أن الفيلسوف فيريكيدس كان يعيش فى جزيرة ديلوس (وليس فى سيروس) عندما

---

١ – شذرة رقم ١٧.

2 - Peter Gorman: Pythagoras: A Lif P.24.

3- Diogenes Laertius: Op. Cit. Vol. 2 P.32.

ذهب إليه فيثاغورس، حيث يقول: «كان فيثاغورس تلميذاً للحكيم فيريكيدس حكيم ديلوس Delos» [٣] ويبدو أنه ذهب إلى جزيرة ديلوس باعتبارها المكان المقدس لمولد الإله أبوللو [١]، ولعل هذا هو السبب فى أن هذا الإله أصبح الرمز الأعلى للفكر الدينى الفيثاغورس، كما أن هذه الجزيرة كانت المركز الثقافى الدينى لأيونيا [٢].

ثم زار فينيقيا، ومنها توجه إلى مصر حيث أقام اثنتى عشرة سنة فيما يروى يامبليخوس.. Iamblichus [٣] وفى مصر رفض كهنة هليو بوليس قبوله ليكون تلميذا يتلقى العلم على أيديهم. كذلك رفضه كهنة «ممفيس» بل رفضوا استقبال أحد «البرابرة» [٤] ليكون ضمن طلبتهم أو ليتعلم أسرارهم، ونصحوه أن يتجه شمالا. وهكذا ظل

---

١ – ابوللو Apollo احد آلهة الأولمب الاثنى عشر فى أساطير اليونان، وهو ابن كبير الآلهة زيوس Zeus والربة ليتو Leto. وقد أخرج «زيوس» جزيرة ديلوس Delos من أعماق البحر خصيصاً لتكون محلاً لميلاد أبوللو. وتقول الأسطورة أنه تحدث فور ولادته.. إلخ». طالع قصته بالتفصيل فى «معجم ديانات وأساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ١٠١ وما بعدها. الناشر مكتبة مدبولى بالقاهرة.

2 - Peter Gorman: Pythagoras: A Life. Routledge & Kegan Paul, 1979, P.15.

٣ – يقول بطرس جورمان «إننى أعتقد أن فيثاغورس مكث فى مصر عشر سنوات فحسب. وليس اثنتى عشر سنة كما يروى يامبليخوس فقد وصل إليها عام ٥٣٥ق. م. عندما كان فى الثلاثين من عمره. وظل بها حتى عام ٥٢٥ ق. م. عندما غزا قمبيز ملك الفرس مصر فغادرها فيثاغورس مع الفرس سجيناً، وقد قضى هذه السنوات العشر فى المعابد المصرية تعلم فيها الهندسة والفلك والطقوس الدينية» راجع كتابه السالف ص ٤٣.

٤ – لفظ «البرابرة» هنا كان يعنى – على الأرجح – الأمم الأخرى غير المصرية، وكان مستخدماً أيضاً عند اليونانيين ليصفوا به كل من ليس يونانياً.

فيثاغورس يتنقل بين المدن المصرية حتى وافق الكهنة عام ٥٣٥ق. م. أن يكون تلميذاً على شرط أن يخضع لبعض الاختبارات – طبقا لما يرويه فرفريوس – وإن كنا لا نعلم عن طبيعة هذه الاختبارات سوى أنها «طرق غريبة على الطرق الهلينية» وسوف يقوم بتطبيق اختبارات مماثلة فى مدرسته بعد ذلك، ولقد كان على فيثاغورس أن يحلق شعر رأسه حتى يُسمح له بدخول المعابد المصرية، كما كان عليه أن يراعى المحرمات المصرية: فمثلا، هناك عدد من الحيوانات والطيور مقدس عند المصريين، ومن ثم يحرم ذبحه أو أكله، كذلك كان الكهنة المصريون يمتنعون عن أكل الفول لا نيئا ولا مطبوخا (لأنه عسير

---

١ – يذكر برتراند راسل فى كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» بعض القواعد التى جاءت فى مذهب فيثاغورس الدينى على النحو التالى : –

١ – أن تمتنع عن أكل الفول.
٢ – الا تلتقط ما قد سقط.
٣ – الا تمس ديكا ابيض.
٤ – الا تكسر الخبز.
٥ – الا تخطو من فوق حاجز.
٦ – الا تحرك النار بالحديد.
٧ – الا تأكل من رغيف كامل.
٨ – الا تنزع الزهر من إكليل.
٩ – الا تجلس على مكيال.
١٠ – الا تأكل قلبا.
١١ – الا تمشى فى الطرق العامة.
١٢ – الا تسمح للعاصفير أن تبنى أعشاشا فى دارك.

2 - P. GOıman: Pythagoras.P.60.

الهضم!) وربما نلمح هنا أصل المحرمات الشهيرة عند فيثاغورس (١)، كما كان الصمت والسرية من خصال الكهنة المصريين أيضاً (٢).

ويروى فرفريوس أن فيثاغورس تعلم اللغة المصرية القديمة حتى تمكن من قراءة كتبهم المقدسة، وأنه كان يشارك فى الأسرار والطقوس التى تقام فى المعابد المصرية.

ويبدو أن فيثاغورس تعلم أيضاً أشياء كثيرة على يد كهنة المجوس فى فارس، ولا سيما التطهر من أدران الحياة السابقة، والطريقة التى يظل بها الحكيم طاهراً غير ملوث، كما أنه استمع إلى محاضرات عن الطبيعة تفحص المبادرة الميتافيزيقية للكون.

كما أنه عرف أشياء كثيرة عن الشر، وأنه لا يوجد شر مطلق، بل هو خير على نحو ما؛ لأنه يشكل انسجاماً جمالياً، وإن كان الشر فى الكون مزعجاً، فإن السبب أنه يلوث النفس، ويصيبهابالمرض. كما زار «أبراج الصمت» الزرادشتية، ووقف على مغزاها (١).

---

١ – طريقة فى الديانة الزرادشتية للتخلص من جثث الموتى التى كانت تحرق فى الديانة الهندوسية وتحنط عند المصريين القدماء. أما فى الديانة الزرادشتية فى فارس فقد كانت جثث الموتى تعرض فوق «أبراج الصمت» لتلتهمها الطيور الجارحة حتى تتجنب تلوث الأرض بالدفن أو تلوث الهواء بالإحراق، راجع «معجم ديانات وأساطير العالم» د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلد الأول، ص ٢٧٣ – مكتبة

ثانيًا: إنشاء المدرسة:

لا يروى لنا كُتَّاب السير القدماء كيف استرد فيثاغورس حريته من الأسر الفارسى. «فيامبليخوس» يقول إنه كان «رهينة» ولم يكن بالضرورة عبداً، أو أنه كان سجين حرب (أى عبد مؤقت) يستطيع أن يفك أسره، وأن يشترى حريته فى أى وقت. وقد يكون فيثاغورس قد فعل ذلك، أو ربما مارس تأثيره الكارزمى Charisma. ويبدو أنهم يفضلون التفسير الأخير[1].

عاد فيثاغورس إلى جزيرة ساموس - على اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ العودة، وإن اتفقوا أن عودته كانت فيما بين ٥٢١ق. م. و٥٢٩ق. م وأنه كان فى ذلك الوقت فى الأربعين من عمره (ويرى البعض أنه عاد فى الخمسين أو فى السادسة والخمسين من عمره!)[2] - ولم يلبث أن ترك ساموس وذهب إلى ديلوس وكريت، وأخيراً استقر فى كروتون.. Croton فى جنوب إيطاليا حيث افتتح مدرسته[3].

وعلى الرغم من أن أفلاطون كان يرغب فى إنشاء مدينة فاضلة تجمع حكاما من الرجال والنساء على حد سواء، فإنها لم تتحقق، ولم

---

1 - P. Gorman: Pythagoras., P.69.

٢ - د. أحمد فؤاد الأهوانى «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط» عيسى البابى الحلبى عام ١٩٥٣ - ص ٧٢.

٣ - المرجع السابق فى نفس الصفحة.

تخرج قط إلى حيز الوجود رغم محاولاته المتكررة. ومغامراته الثلاث التى قام بها فى سبيل تنفيذ هذا الحلم عند ديونسيوس طاغية سيراقوصه الابن ثم الأب[1] وظلت الأكاديمية الأفلاطونية مقصورة على الخاصة من التلاميذ فحسب. ثم حاول أفلوطين (٢٠٤ – ٢٧٠م) بعد ذلك أن ينشئ فى عهد الإمبراطور الرومانى جالينوس Gallienus (إمبراطور روما من ٢٥٣ – ٢٦٨م) مدينة فيثاغورية للفلاسفة، لكن الحكومة الرومانية عارضت تحقيق هذاالحلم، كما أن مجلس الشيوخ المحافظ رفض هذه الفكرة، فاكتفى أفلوطين بإنشاء مدرسة كانت تستقبل النساء أيضاً.

ومن هنا كانت المدرسة التى أنشأها فيثاغورس فى كروتون بجنوب إيطاليا هى أول مدرسة تسمح باستقبال المرأة وتعليمها، مع اعترافه بوجود فروق خاصة بين الجنسين، نظرا للاختلاف الطبيعى بينهما، ومن هنا فقد كان يُعلِّم المرأة الفلسفة والآداب، كما كان يُعلِّمها تدبير المنزل، والأمومة، حتى اشتهرت المرأة الفيثاغورية فى الزمن القديم بأنها أفضل نساء الإغريق. ولما كانت المدرسة تستقبل الرجال والنساء، على السواء، من جميع الطبقات – فقد كانت لهذا السبب أشبه ما تكون بالمجتمع المثالى[2].

لقد كان للمدرسة الفيثاغورية نظام من الأخوة، كأنها دير أو

---

١ – راجع القصة بالتفصيل فى كتابنا: «الطاغية» ص ٨٩ وما بعدها. وكذلك «افلاطون والمرأة» العدد الأول من سلسلة: «الفيلسوف .. والمرأة» مكتبة مدبولى بالقاهرة.

2 - Peter Gorman : Pythagoras P.70.

معبد، فجميع الطلبة يرتدون زياً واحداً هو الملابس البيضاء، ويعيشون معيشة واحدة هي حياة الزهد والتقشف والبساطة، ولا ينتعلون - في الأعم الأغلب - بل يمشون حفاة الأقدام على نحو ما كان يُؤثر عن سقراط الذي كان متأثراً - فيما يبدو - بتعاليم الفيثاغورية تأثراً شديداً على نحو ما يتضح في محاورة «فيدون»، ولا يحلفون بالآلهة «لأن من واجب المرء أن يكون صادقاً بغير قسم»، كما كانوا يحاسبون أنفسهم في نهاية اليوم على ما فعلوه طوال النهار، فيسأل كل واحد منهم نفسه عن الشر الذي ارتكبه، والخير الذي قدمه، والواجب الذي أهمل في أدائه.

ولم يكن التعليم كتابة، بل: سماعاً، وتلقيناً، ومشافهة من الأستاذ إلى التلاميذ، ولم يؤثر عن فيثاغورس أنه ألّف كتاباً. وكانت تعاليم المدرسة سرية يعاقب من يفشيها بالطرد؛ ولهذا التزم الأعضاء بالسرية التزاما دقيقا، إلى حد أن أسرارهم لم تعرف إلا في عصر سقراط وأفلاطون، عندما كتب فيلولاوس .. Philolaus الفيلسوف الفيثاغوري في القرن الخامس قبل الميلاد كتابا من ثلاثة أجزاء - تحت إلحاح الحاجة إلى المال فيما يقال - واشتراه منه «ديون»، حاكم سراقوصة استجابة لنصيحة أفلاطون. كما كان «الصمت» من آداب المدرسة، حتى لقد ذهبوا إلى أن التلميذ الجديد مطالب بالصمت خمس سنوات، ويريدون بذلك قبول التعاليم بغير أسئلة أو جدال.

غير أن ذلك كله ليس سوى فكرة عامة عن مدرسة فيثاغورس التي جمعت - لأول مرة - بين الرجال والنساء في معهد واحد، وأعطت المرأة قدراً قليلا من الفرص لكي تُظْهِرَ قدرتها العقلية وسط ما يسمى بالجماعة الفيثاغورية، فما هي هذه الجماعة؟ وما بنيتها وقواعدها؟ وما

ثالثًا: الجماعة الفيثاغورية:

استقر فيثاغورس فى كروتون Croton – بعد الأسر الفارسى – وهى مستعمرة يونانية فى جنوب إيطاليا، ومركز تجارى هام، وميناء للتجارة الخارجية. وربما انتشرت فيها الديانة الأورفية لهذا السبب(١). وإن كانت الحياة الدينية فيها أكثر جمودًا من المدن اليونانية، إذ لم يسمعوا قط عن المذهب العقلى عند فلاسفة أيونيا، ولكن سرعان ما أصلح لهم فيثاغورس هذا النقص(٢).

ولقد ثار جدال طويل بين الباحثين حول الجماعة التى أسسها فيثاغورس فى جنوب إيطاليا عندما وصل إلى كروتون. واختلفوا فى صفة هذه الجماعة: أكانت جماعة سياسية؟ وهل اشتغل فيثاغورس بالسياسة؟ لكن الواقع هو أنه يصعب القول بأن الجماعة الفيثاغورية كانت منظمة سياسية، وإنما هى بالأحرى جماعة صوفية فلسفية على غرار النحلة الأورفية التى انتشرت فى اليونان وإيطاليا. وربما كانت

---

١ – الديانة الأورفية Orphism ديانة يونانية قديمة تنسب إلى Orpheus، وهو شاعر وموسيقار – ابن الإله أبوللو وكاليوبى – فى الأساطير اليونانية، كان عازفًا ملهمًا تَطْرب الآلهة والناس، والحيوانات – حتى الوحوش الضارية – والأشجار والصخور – من انغام قيثارته. ثم أصبحت الأورفية ديانة تذهب إلى أن الروح جوهر إلهى، وأنها لا تبلغ درجات حياتها الحقيقية إلا بعد وفاة الجسد. كما ذهب إلى أن الأرواح تتناسخ، متخذة أشكالا أدنى أو أعلى تبعًا لأعمال صاحبها فى الدنيا. والأورفية تزدرى الجسد، وتمجد الحياة الآخرة، وتحث على النقاء الأخلاقى، مُرَكِّزَةً على مسئولية الفرد عن الإثم. وقد تأثر بها فيثاغورس فى كثير من أفكاره، ونقل عنه أفلاطون.

2- P. Pythagoras, P.89.

هناك بعض النتائج السياسية لتعاليم الفيثاغورية على أعضاء الجماعة، لكنها نتائج غير مقصودة، فهى لم تسع قط إلى حكم كروتون أو أية مدينة إيطالية أخرى، ومع ذلك كله فقد ظل فيثاغورس بعيداً تماماً عن الانخراط فى مجال السياسة(١).

يقول «يامبليخوس»: «إن فيثاغورس اسس جماعته بعد وصوله إلى كروتون مباشرة».. فقد كانت مدينة كروتون أول مكان ظفر فيه فيثاغورس بعدد من التلاميذ، وتخبرنا وقائع التاريخ أنهم كانوا أكثر من ستمائة تلميذ شاركوا حياة واحدة طبقاً لتعاليمه. وكان هؤلاء التلاميذ فلاسفة، كما كان هناك مستمعون آخرون يطلق عليهم اسم Acous-matics(٢).

ولاشك أن هذا الوصف ينطوى على كثير من المبالغة، فليس من المعقول أن يؤسس فيثاغورس جماعته فيتوافد عليه التلاميذ فى الحال، لدرجة أن يظفر بعدة مئات منهم، فضلاً عن عدة آلاف من المستمعين(٣).

---

1 - Ibid, P.113.

2- Ibid, P.114.

٣ – يروى يامبليخوس فى كتابه «حياة فيثاغورس De Vita Pythagorica» أن أكثر مئألفين من أهالى كروتون استمعوا إلى حديثه فسحرهم حتى أنهم رفضوا العودة رلى منازلهم، بل بقوا مع زوجاتهم وأولادهم فى مدرسة فيثاغورس!

وإن كان مما لاشك فيه أن خطبه وأحاديثه كانت ذات تأثير قوى، لما يتمتع به فيثاغورس من شخصية كارزمية Charismatic[1].

والجماعة الفيثاغورية – على نحو ما وصفها يامبليخوس – هى جماعة دينية وفلسفية وليست منظمة سياسية. ومن هنا كانت لها قوانينها وقواعدها الخاصة كما لو كانت «دولة داخل الدولة»! إذ ينفصل أعضاؤها عن بقية سكان كروتون. والمصطلح الذى استخدم فى وصف هذه الجماعة هو «هوماكيون.. Homukoeion»، أى: المكان الذى يجتمع فيه الناس جنبا إلى جنب ليستمعوا إلى آراء فيثاغورس الذى كان منذ البداية قائداً لهذه الجماعة.

وليس ثمة شك فى أن فيثاغورس كان منذ البداية رأس هذه الجماعة، وأن أعضاءها كانوا أتباعاً له وتلاميذ لفلسفته، وأنهم كانوا يضفون عليه صفة القداسة التى يعودون بها أحياناً إلى الإله أبوللو نفسه.

ويبدو أن فيثاغورس كان يقوم بتدريس ديانة فلسفية، تعتمد فى بعض جوانبها على عبادة الإله أبوللو. وربما كان ذلك هو السبب فى أن «كروتون» سكّت عُملةً نُقش عليها اسم الإله أبوللو. ولابد أن نتذكر أن

---

١ – بطرس جورمان: فيثاغورس ص ١١٥. والكارزمية مصطلح استعاره ماكس ڤيبر (١٨٦٤ – ١٩٢٠) من الكتاب المقدس، حيث كان يعنى «عطية» أو «موهبة» ليعنى به القدرة التى يتمتع بها شخص ما تمكّنه من التأثير فى الاخرين إلى الحد الذى يجعله فى مركز سلطة، بحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقاً تسلطية عليهم.

الإله الراعى لهذه المدينة هو «هرقل»، كما أشار فيثاغورس فى خطبته إلى الشباب(١).

ولقد ازدهرت هذه الجماعة فى حياة فيثاغورس، لكنها تطورت أيضاً بعد وفاته. والواقع أنك لن تجد مدرسة فلسفية فى العالم القديم انتشرت بالسرعة والقوة التى انتشرت بها الفيثاغورية، والتغيرات والتعديلات فى النظريات الزصلية اندمجت فى جسد المعتقدات الفيثاغورية نتيجة لأنها تتكيف مع روح فيثاغورس الحاضرة دوما. وفى النهاية: تشعبت التطورات واختلفت، أو قل ضاعت «الهرمونيا Hor-monia» القديمة فى سلسلة من المنازعات والإنشقاق داخل الجماعة، وأدت فلسفة العدد إلى نتائج مختلفة، حتى أفشى بعض الأعضاء أسرار الأستاذ وكونوا حركات خاصة بهم: فظهر ما نسميه بالفيثاغورية المتأخرة التى كان على رأسها الفيلسوف الفيثاغورى فيلولاوس، ثم ظهرت بعد ذلك مرة أخرى فى مدينة الإسكندرية... إلخ.

---

١ - خطبة طويلة ذكرها أوڤيد فى مسخ الكائنات - وانظر ترجمة د. ثروت عكاشة ص ٣٢٢ وما بعدها - الهيئة المصرية العامة للكتاب - عام ١٩٨٤.

رابعًا: بناء الجماعة وقواعدها:

علينا الآن أن نفحص بنية الجماعة والقواعد التى كانت تحكمها. لقد كان النظام فى الجماعة الفيثاغورية نظاماً هيراركيا تصاعدياً يقف على قمته فيثاغورس نفسه، ثم يسير سفلا إلى القاعدة، وهو ينقسم إلى قسمين متمايزين: الفلاسفة فى جانب، والمستمعين فى جانب آخر. ولاشك أن الفلاسفة كانوا قلة – قليلة فى عددهم إذا ما قورنوا بالمستمعين. وأغلب الظن أنهم كانوا يمثلون الشباب القادر على دراسة رياضيات فيثاغورس. أما المستمعون فقد كان من بينهم الشيوخ وعائلاتهم. ولم يكن القبول فى المدرسة مقتصراً على الرجال، بل كان يشمل أيضاً عدداً كبيراً من النساء، ومن هنا كان من التسميات الخاطئة أن يقال عن الجماعة الفيثاغورية إنها كانت جماعة من «الإخوان» – أى الرجال الإخوان – فقد كان الفيثاغوريون – وتطويراتها من الفيثاغورية المحدثة حتى الأفلاطونية المحدثة – هى الفرقة الفلسفية الوحيدة التى أخرجت للعالم نساء فلاسفة ذائعات، ابتداءً من ثيانو .. Theano زوجة فيثاغورس وبناتها الثلاث: أريجنوت .. Arignote، وميا .. Myia، ودامو .. Damo، اللاتى قمن برئاسة المدرسة الفيثاغورية بعد وفاة مؤسسها، حتى هيباشيا Hypathia فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة على نحو ما سنعرف فيما بعد. والفيثاغورية كانت المدرسة الفلسفية الوحيدة التى سمحت للنساء، على هذا النحو، بالالتحاق بها، والمشاركة فى حياتها، وإعطائهن فرص التعليم.. إلخ، مما جعل باحثا مثل إ.ليفى .. I. Levy يسعى فى كتابه «بحوث حول مصادر أسطورة

فيثاغورس» إلى المقارنة بين أتباع فيثاغورس من النساء وأتباع المسيح ولاسيما النساء الثلاث المسميات باسم مريم[1].

يقول يامبليخوس حول تقسيم الجماعة الفيثاغورية:

«... دعني الآن أخبرك كيف كان فيثاغورس يقسم أعضاء الجماعة بعد أن تم اختيارهم لجدارتهم (وبعد اجتيازهم الاختبارات المطلوبة): لم يكن من المناسب في رأيه أن يشترك أعضاء الجماعة بالتساوي في نفس الأمور، ولا حتى أن يشاركوا في جميع الأفكار ذات المكانة السامية، بينما يُتْرك آخرون تماماً؛ لأن ذلك لن يكون عدلاً ولا إنصافاً، ولا حياة جماعية. أما توزيع حصة مناسبة من النظريات الأساسية على كل عضو، فإن ذلك يفيد الجميع بقدر المستطاع. كما أنه يمكّنه من أن يستخدم الوسيلة العادلة، ويمنح كل عضو التعاليم التي هو أهل لها. «ومسايرة لهذا الخط من التفكير، نراه يطلق على بعض الأعضاء اسم «الفيثاغوريين على الأصالة»، ويعتقد أن هؤلاء ينبغي أن يشاركوا في كل شئ على المشاع، وأن يعيشوا حياة فيها قدر من الشيوعة طوال الوقت. أما الآخرون فقد سمح لهم بملكية خاصة، وأن يأتوا «في نفس المكان للاجتماع بعضهم مع بعض»[2].

---

١ – راجع كتاب بطرس جورمان السالف ص ١٢٠ – وأيضاً كتابنا «الفيلسوف المسيحي.. والمرأة» وهو العدد الثالث من هذه السلسلة (مكتبة مدبولي بالقاهرة) ولاسيما الصفحات من٤٣ حتى٤٨.

٢ – يامبليخوس «حياة فيثاغورس» ص ٤٦ (نقلا عن بطرس جورمان في كتابه سالف الذكر ص ١٢٠ – ١٢١).

وفضلا عن ذلك، فقد كان فيثاغورس يطلق على «الفيثاغوريين الحقيقيين» من الرجال والنساء اسم: «المنتظمين»، أما الأعضاء الآخرون فيطلق عليهم اسم «المستمعين». الفريق الأول يعيش حياة جماعية، ولا يملكون أشياء خاصة بل الملكية مشاع فيما بينهم، فى حين أن الفريق الثانى من حقه أن يملك ملكية خاصة (وتلك هى جذور الفكرة التى سيعرضها أفلاطون فى الجمهورية فيما بعد)[١] – الفريق الأول يعيش داخل المدرسة، والفريق الثانى يملك بيوتا خاصة يذهبون إليها بعد انتهاء المحضرات (وكان المستمعون يشكلون الغالبية العظمى من الأتباع). وهكذا كان هناك فريقان أو قسمان واضحان منذ البداية فى المدرسة الفيثاغورية، ثم ظهرت بعد ذلك فئات أخرى. فقد كان بعض أتباع فيثاغورس يكرسون وقتهم للفكر النظرى، وكان كل عضو يلقب بلقب «المهيب» أو «الجليل» فى حين كان البعض الآخر يشغل وقته بدراسة شؤون البشر.

«أما الفريق الأول (الذى يهتم بالفكر النظرى) فقد كان يشغل نفسه بالرياضيات والهندسة، والفلك، ولهذا السبب أطلق عليه اسم «المنتظمين»، ولقد كان من هذا الفريق أعضاء هم تلامذة مباشرين لفيثاغورس كان يطلق عليهم لقب الفيثاغوريين... إلخ»[٢].

وربما كانت هذه التقسيمات مقتبسة من مراحل تالية فى تطور

---

١ – راجع كتابنا «أفلاطون ... والمرأة» العدد الأول من هذه السلسلة – مكتبة مدبولى بالقاهرة – ص ٥٩ وما بعدها.

2 - P. Gorman : Pythagoras..., P.120.

الجماعة؛ إذ لا شك أن تسمية تلاميذ فيثاغورس باسم الفيثاغوريين مسألة تنتمي إلى مرحلة متأخرة من تطورالجماعة بعد وفاة فيثاغورس، وتولى تلاميذه شؤون المدرسة. وقل نفس الشئ بالنسبة للفيثاغوريين السياسيين الذى اهتموا بشؤون البشر، فقد ظهرت هذه التسمية عندما بدأ الفيثاغوريون يهتمون بالسياسة. فى حين أن «الوقورين» أو «المبجلين» كانوا هم قادة الجماعة فى الحلقة الداخلية. فقد كانت هناك حلقة داخلية من المقربين الذين يسمح لهم أن يكونوا خلف الستار، بحيث يمكن أن يروا فيثاغورس وأن يستمعوا إليه. إذا يبدو أن فيثاغورس كان يختفى وراء ستار عندما كان يلقى دروسه على المستمعين، والمبتدأين، والأعضاء الجدد، ولم يكن مسموحاً لهم برؤيته رؤية مباشرة. أما أعضاء الحلقة الداخلية، فهم وحدهم الذين يسمح لهم برؤيته وسماعه. وعندما يجتاز المبتدئ جميع الاختبارات التى تفرض عليه يسمح له أن يجلس خلف الستار، ويصف يامبليخوس هذه الاختبارات، وعملية الترسيم[1]، على النحو التالى:-

«... لما كان فيثاغورس ينشغل، على هذا النحو، بتعليم تلاميذه، فإنه لم يكن يسمح للشباب بالالتحاق المباشر بالجماعة الفيثاغورية إلا بعد اجتياز عدد من الاختبارات»[2]. ثم يصدر حكمه على مستواهم بعد

---

١ - الترسيم Initiation: الاحتفال بدخول عضو فى سلك جماعة دينية عن طريق تادية طقوس معينة.

٢ - ربما اقتبس هذه الطريقة مما كان يفعله الكهنة المصريون، ولقد سبق أن ذكرنا أنهم اشترطوا أن يمر ببعض الاختبارات حتى يقبل تلميذاً لديهم.

ذلك. وكان السؤال الأول الذى يُوجَّه إليهم هو: ما هى الطريقة التى سوف ترتبطون بها بوالديكم، وبأقاربكم؟؟! ثم يراقبهم أثناء الإجابة عن أسئلته: هل يضحكون فى وقت لا يناسب الضحك، أم أنهم كانوا طوال الوقت هادئين ساكنين؟ هل يكثرون من الكلام؟ ثم ماذا عن الثرثرة والهذر؟ (١).

ثم يسألهم فيثاغورس عن أصدقائهم، وماذا يفعلون معهم فى أوقات فراغهم؟ وماذا يفعلون: ما مسعاهم طوال النهار؟ ما هى الأمور التى تُدخل على قلبهم السرور أو الحزن؟!

وهو – أثناء ذلك كله – يراقب مظهرهم، وحركاتهم وسكناتهم، وهيئة الجسم، وطريقة المشى، وجميع الإيماءات... وهو يحكم على خلق الشاب من ملامح وجهه، ويفسر خصائصه النفسية غير المرئية من صفاته الخارجية التى يلاحظها.

وكل من يجتاز هذا الاختبار يظل تحت المراقبة ثلاث سنوات، لاختبار اتزانه واستقراره، ورصانته، وحبه للعلم، ثم ليعرف: هل هذا المبتدئ لديه استعداد للانصراف عن الدنيا والزهد فى الأمور الحسية، ومنها المجد الدنيوى؟! ثم هو يفرض على المبتدئ الصمت خمس سنوات؛ ليرى مدى قدرته على التحكم فى نفسه، وضبط سلوكه، والسيطرة على تصرفاته. فقد كان فيثاغورس يعتقد أن ضبط اللسان أشد صعوبة من جميع الأنواع الأخرى لضبط النفس. وخلال هذه الفترة يقوم أتباع فيثاغورس بتحديد واجبات

1- P. Gorman : Pythagoras, P.122.

المبتدئ. وبعد هذه السنوات الخمس من الصمت، فإن المبتدئ يدخل ضمن الحلقة الداخلية.

والطريف أن فيثاغورس كان يحكم على المبتدئين من خلال الاختبارات التى يجريها عليهم، بغض النظر عن نبالة المولد أو وضع الأسرة فى المجتمع. ومن ثم يخطئ من الكتاب والباحثين من يذهب إلى أن الجماعة الفيثاغورية كانت أرستقراطية، كما يخطئ من يظن أنها كانت جماعة من «الإخوة» أو «الإخوان» دون أن يضيف إليها الأخوات أيضاً.

لقد كانت مهمة الاختبارات أن تجعل السالك، أو المبتدئ، يتكيف مع أخلاق فيثاغورس. فالمشهور أن للجماعة قواعد صارمة منها: «السرية»، و«الكتمان»، و«الخفاء»، و«الصمت»، و«الامتناع عن الضحك»، و«الكف عن الصخب والضجيج»، و«ممارسة ضبط النفس». كما أنه ينبغى ألا يراه أحد وهو يمارس الجنس، أو وهو يقوم بوظائفه الطبيعية، أو حين يلبى نداء الطبيعة. ومن الواضح أن فيثاغورس كان يريد أن يخلق فى تلاميذه «الإنسان الأعلى» أو أن يجعلهم فى مستوى أعلى من الطبيعة البشرية المألوفة. فالصمت لمدة خمس سنوات (ونحن لا نعرف هل كان صمتاً تاماً وشاملا، أم أنه كان استرخاء من القواعد) كانت له أهمية خاصة، لأنه مران للسالكين على ممارسة الاحتفاظ بنظريات المعلم سرية وفى كتمان، وعدم البوح بها لأحد مهما علا شأنه.

لقد كانت فلسفة فيثاغورس ذات مسحة دينية سرية كما لاحظ مؤرخ الفيثاغورية «يامبليخوس»، ويتجلى ذلك فى التنبيه على أعضاء

الجماعة بعدم إفشاء أسرار تعاليم فيثاغورس. ولقد كانت الجماعة، من هذه الزاوية، على النقيض من المنظمات السياسية التى كان مبرر وجودها يكمن فى الدعاية والإعلان عن أفكارها وانتشار الآراء التى تدعو إليها. غير أن الفيثاغورية فى هذا «الصمت» تخالف حتى الديانات العلنية التى تعظ الناس وترشدهم بأفكارها وآرائها علانية. اللهم إلا إذا قلنا إنَّ «الصمت» يرجع إلى أن كثير من النظريات الفيثاغورية كانت ذات طابع ثورى، وأن الغالبية العظمى من الناس لن يستطيعوا فهمها. ومن ثم فإن إذاعتهاوإعلانها للجميع سوف يجلب متاعب سياسية، واجتماعية، وهو ما حرصت الجماعة على تجنبه(١).

وما أن يدخل العضو الجديد سلك الجماعة، حتى يكون عليه مراعاة قواعدها وقوانينها. وربما كانت القاعدة التى تثير مشكلات للعضو الجديد هى «المشايعة»، ولاسيما بالنسبة لأعضاء الحلقة الداخلية؛ إذ لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً: فقد كان فيثاغورس يعتقد أن الملكية أو المقتنيات الخاصة تعوق الفكر النظرى والتأمل العقلى للحقائق الإلهية، ولا تجعل ذهن الفيلسوف «صافياً» نقياً، بل قد تزرع الشقاق بين الأعضاء(٢).

سوف نعرض بعد قليل ليوم فى حياة عضو الجماعة

---

1 - P. Gorman : Pythagoras, P.124.

٢ – قارن ذلك بما يقوله افلاطون المتأثر بالفيثاغورية «شهوة التملك الجامحة هى اصل كل بلايا الدول والأفراد» الجمهورية ٢٧٣. وانظر ايضا كتابنا «أفلاطون.. والمرأة» ص ٦٥ مكتبة مدبولى.

الفيثاغورية، وإنْ كانت معظم أوقاتهم مُكَرَّسة، بصفة عام، للدراسة النظرية. فأساس فلسفة فيثاغورس هو «الرياضيات»، ومعظمها ليست رياضيات تطبيقية، بل نظريات رياضية، ومن هنا اهتموا بدراسة خصائص العدد. فقد أصبح العدد واحد Monas رمزاً للثبات والدوام فى الكون. ومن الواحد يأتى كل شئ طيب فى هذا العالم؛ لأن الواحد هو أصل الأعداد الفردية. أما العدد اثنان Dyad فهو رمز للنقص فى الكون؛ فالعالم لابد له من تناغم الأضداد، فلا يمكن أن نفسره بوجود الخير وحده، أعنى «الواحد»، بل لابد من وجود عنصر الشر الذى يقاوم نشاط الخير. ويقال إن فيثاغورس استمد هذه الثنائية الكونية من ثنائية المجوس. ويقول أرسطو أن الفيثاغوريين – لهذا السبب – وضعوا قائمة من الأضداد عددها عشرة أضداد على النحو التالى:

١ – المحدود – واللامحدود.

٢ – الفرد – الزوج.

٣ – الواحد – الكثير.

٤ – اليمين – الشمال.

٥ – الذكر – الأنثى.

٦ – السكون – الحركة.

٧ – المستقيم – المتعرج.

٨ – النور – الظلمة.

٩ – الخير – والشر.

١٠ – المربع – المستطيل.

والملاحظ أنها عشرة أضداد، وأن العدد عشرة هو أكمل الأعداد[١].

ونتيجة لدراسة الفيثاغورية لخصائص العدد أن أصبح العدد ٤ رمزاً للعدالة ، والعدد ٦ رمزاً للزواج ..إلخ [٢].

وعلينا أن نلاحظ، فى النهاية، أن الحلقة الداخلية عند الفيثاغوريين تشبه طبقة الحراس عند أفلاطون، مع فارق واحد هو أن الفيثاغوريين لم يكن لهم دور فى السياسة، وحراس أفلاطون يهبطون من برجهم العاجى، لكى يطبقوا نظرياتهم فى الحياة السياسية والاجتماعية. وهذا ما لم تفعله الفيثاغورية الأولى – أى المبكرة.

ومع ذلك، فلم يكن الفيثاغوريون مثل رهبان العصور الوسطى، فقد تزوجوا، وكانت هناك عناصر نسائية كثيرة فى الجماعة، ولم يكرسوا حياتهم للصلاة، بل للبحث الفلسفى. وأفضل نموذج للفيثاغورية هو ما قام به أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى، عندما جمع فى روما حلقة من أتباعه على غرار «الجماعة الفيثاغورية الشيوعية» ، وهكذا عاش أفلوطين وسط المدينة العاصمة فى ظروف غريبة؛ فهو يعيش فى بيوت الآخرين، ويتناول طعامهم. ومن حسن الحظ أنه كان نباتياً، فلم يأكل إلا أقل القليل، لكنه كان يرى أطفالهم!.

---

1 - Peter Gorman : Pythagoras, P.141.

2 - Ibid: P.127.

خامسًا: يوم فى حياة الفيثاغورى:

كان فيثاغورس هو قائد الجماعة، فهو الذى يوجه سلوكها، ويضع لها الخطط، كما كان على جميع الأعضاء أن يمتثلوا لأوامره وتعليماته. فكيف أعد لهم فيثاغورس يومهم؟!

* تستيقظ الجماعة عند الفجر. ويقوم كل عضو، بمفرده، بجولة فى أماكن تكون هادئة أو ساكنة بطبيعتها، أعنى يلفها الصمت التام، وذلك بأن يسير مثلا حول المعابد، أو يتجول فى الأيكات المقدسة؛ والسبب أنه لا ينبغى عليه أن يقابل أحداً فى الصباح الباكر، أو الالتقاء بالناس، إلا عندما يتهيأ ذهنه لذلك. فسكون الفجر وهدوء الأماكن المتطرفة تنسجم مع الحالة الذهنية الجيدة، فى حين أن الانخراط فى دنيا الناس، والانغماس وسط الجماهير بعد اليقظة مباشرة، إنما يكون مزعجا للنفس. ولهذا فمن الأفضل للفيثاغورى باستمرار أن يختار فى هذا الوقت المبكر من الصباح الأماكن المقدسة التى يمنع فيها الضجيج والصخب، ويستحب الهدوء والصمت، وينتهزون هذه الفرصة لتثبيت دعائم الفضائل الأخلاقية.

* يعود العضو الفيثاغورى من هذه الجولة الصباحية التى اعتنى فيها بالنفس ليقوم بالعناية بالجسد، فبعضهم يقوم بمسح جسمه بالزيت ويجرى قليلا، فى حين يقوم البعض الآخر بألعاب المصارعة فى حديقة المدرسة، بينما يقوم البعض الثالث بالقفز ... إلخ. وهم بصفة عامة يمارسون التمرينات الرياضية التى تقوى البدن.

* بعد ذلك يتناول العضو طعام الإفطار المكون من الخبز والعسل، ويحرم عليه تناول النبيذ أثناء النهار. وبعد الإفطار يكرس وقته لدراسة المسائل الاقتصادية والسياسية.

* ثم يقوم الأعضاء بجولات المشى، لكن فى جماعات هذه المرة، وليس فرادى على نحو ما كانت نزهات الفجر! فالجماعة الصغيرة قد تتألف من عضوين أو ثلاثة، وهم يستعيدون دروسهم ويستذكرونها أثناء المشى.

* بعد عودتهم من جولة المشى الجماعية يستحمون، ويلتقون بعد الاستحمام فى غرف ضيقة - لا تتسع الغرفة الواحدة لأكثر من عشرة أشخاص- بهدف الدراسة، حتى يتم دعوتهم للمشاركة فى الوجبة العامة، وجبة الغداء، فيقومون أولا بحرق البخور وتقديم القرابين إلى الآلهة من الحيوانات، ثم يذهبون لتناول طعام الغداء- وعليهم أن ينتهوا منه قبل غروب الشمس- ولهم أن يتناولوا النبيذ، وفطيرة من الشعير والنباتات الطازجة والمطبوخة، وهم قليلا جداً ما يأكلون السمك، ثم يسكبون الخمر تكريماً للآلهة. ويأتى بعد ذلك موعد القراءة، وقد جرت العادة أن يقوم أصغر عضو بالقراءة، أما أكبر الأعضاء فهو الذى يختار الموضوع الذى ينبغى قراءته والطريقة التى تتم بها هذه القراءة.

وعندما يأتى موعد رحيل الأعضاء إلى بيوتهم، فإن أكبر أعضاء الجماعة يتلو العبارة الآتية، وهى أشبه بالتعليمات والتحذيرات :

«عليك ألا تؤذى أحداً، ولا تقتلع نباتاً مزروعاً، ولا تخرب شجرة من أشجار الفاكهة، ولا تؤذى حيواناً لا يكون هو نفسه مؤذياً للبشر،

وفضــلا عن ذلك فإن عـليك احتـرام الآلهة، وأن تتـخذ منهم مـوقفاً نبـيلاً، وكــذلك لابـد أن يكون هذا هــو مـــوقـــفك تجــاه الأبـطال، ومن الوالـدين والمـحسـنين، كـما أنه ينبغى عليك مسـاعدة القانون، ومحـاربة الخارجين عليه» (١).

وبعد أن تُتلى هذه العبارة، يذهـب كل عـضـو إلى بيته وهـو يرتدى المـلابـس البـيضـاء النظيـفـة الطاهـرة (ويـبـدو أن هذا الزى هـو مـا كـان يرتديه الكـهنة المـصـريون). أمـا فى منازلهم فـلابـد أن تكون لهم أسِرَّة بيـضـاء نظيفـة، ويكون فـراشـهـا من التـيل؛ إذ لا يسمـح لهم باسـتـخـدام الصـوف(٢).

هـذا هـو وصف المـؤرخ الفـيـثاغـورى يامـبليـخـوس ليوم فى حـيـاة العـضـــو الفـيـثـاغـــورى. لكن يبـــدو أن هـذا الوصـف ينـطبق علـى فـئـة المـسـتمـعـين دن طبـقـة الفلاسـفـة فى الجـماعـة الفـيـثـاغـورية؛ لأن طبـقـة الفـلاسفـة لا يأكلون اللـحم ولا يشـربون الخـمـر، وليس عليهم اسـتـذكـار دروســهـم، كـمـا أنهم يعـيـشـون مـعاً داخل المـدرسـة الفـيـثـاغـورية، على خلاف المسـتمعين الذين يجـتمعون أثناء النهار، ثم يعودون إلى بيوتهم أثناء الليل(٣).

ولهذا كان من الـصـواب أن نقول إنَّ الوصـف السـابق لـيـوم فى حياة العضــو الفيـثاغورى إنما يقتـصـر على المـسـتمـعين فـقط دون الفلاسـفة

1 - P. Gornan : Pythagoras. P.129.

2- Ibid.

3- Ibid.

الذين كانوا يعيشون حياة فكرية وروحية أفضل من ذلك، ويقومون بالنزهات الفردية ليتأملوا ما أنجزوه من أعمال في اليوم السابق، وليتدبروا نظريات المُعلّم. وربما التقوا بعد ذلك لمناقشة تعاليم فيثاغورس، ولتناول طعام الإفطار من العسل والخبز (لأن فيثاغورس كان مغرما بالعسل) كما كانت التمرينات الرياضية جانباً هاماً من برنامجهم اليومي، كما كانوا يتناولون الطعام فى صالات فسيحة، وهى فكرة اقتبسها فيثاغورس من الاسبرطيين والكريتيين. وبدلاً من تقديم القرابين من الحيوانات يبدو أن الفلاسفة كانوا يقتصرون على البخور الذى كان فيثاغورس مغرماً به أيضاً، فيستخدمه كوسيلة - كما يقول فرفريوس - للوحى والتنبؤ. وكانت الوجبة الرئيسية لهؤلاء الفلاسفة نباتية، فلا يسمح حتى بلحوم الضحايا والقرابيين. وبعد انتهاء اليوم يظل الأعضاء فى المدرسة، حيث يكون كل شئ بينهم مشتركاً.ومن ثم فإن الوصف السابق هو وصف لطبقة المستمعين، وربما انطبق أيضاً ، مع تصحيح بعض التفصيلات الدقيقة، على المنتظمين[١].

1- P. Gorman : Pythagoras. P.130

خـــاتمــــة:

بعد هذه الجولة العامة فى المدرسة الفيثاغورية، لابد لنا أن ننتبه جيداً إلى ما يأتى:

١ – كل ما سبق أن ذكرناه عن «العضو» الفيثاغورى ينطبق على الرجال والنساء معاً.

٢ – تشير المصادر القديمة إلى أن النساء كن نشطات للغاية فى المدرسة الفيثاغورية، وقد لعبن دوراً أساسياً فى تطور الفيثاغورية الأولى.

٣ – يشير ديوجينز اللايرتى فى كتابه عن «حياة مشاهير الفلاسفة» إلى تأثر فيثاغورس ببعض الشخصيات النسائية، فضلاً عن تأثره بالمدرسة الأيونية، ثم بالمصريين والفرس على نحو ما سبق أن ذكرنا بالتفصيل – يقول فى ذلك:–

« يؤكد أرستونكسوس Aristonexus أن فيثاغورس قد استمد الجزء الأكبر من نظرياته فى الأخلاق من ثمستوكليا The-mistoclea[١] التى كانت تعمل كاهنة للإله أبوللو فى دلفى...»[٢].

وسوف نتبين فى الفصل القادم دور النساء الفيثاغوريات فى المرحلة الأولى أو المبكرة، ثم ندرس فى الفصل الثالث نساء الفيثاغورية المتأخرة.

---

١ – يعتقد ديوجينز اللايرتي في كتابه، وسويداس في قاموسه، أنها شقيقة فيثاغورس.

2-Diogenes Laertius: Lives of Eminent Philosophers, Trans.by R.D. Hicks Vol. II P. 327 - Loeb Classical Library1925.

٢

الفصل الثانى

«نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المبكرة»

- ثيانو .. Theano
- أريچنوت .. Arignote
- مييا .. Myia

(لأن تكوني فوق ظهر حصان جامح، خيرٌ لكِ من أن تكونى امرأة لا تفكر.. !)

ثيانو .. Theano

تمهيـــــد :

سوف نعرض فى هذا الفصل لثلاثة من النساء الفلاسفة من الفيثاغورية المبكرة أو الأولى أو الأصلية التى ظهرت فى القرن السادس قبل الميلاد وهى:-

- ثيانو .. Theano
- أريجنوت .. Arignote
- مييا .. Myia

حاولت الأولى أن تفسر عبارة فيثاغورس «العالم عدد ونغم» التى أساء

العالم اليونانى فهمها، حتى ذهبوا إلى القول بأنها تعنى خلق الأشياء المادية من الأعداد! وهو قول ظاهر البطلان فى رأيها؛ لأن فيثاغورس كان يعنى أن الأشياء خلقت على غرار الأعداد، ومن ثم اهتمت بتصور «المحاكاة» الذى سيهتم به أفلاطون أيضاً فيما بعد.

أما الثانية «أريجنوت» فقد حاولت دراسة طبيعة العدد، أو الماهية الأزلية للعدد التى هى العلة الأولى لما يوجد فى الأرض والسماء وما بينهما. لكن العدد هنا لا يعنى سوى الهرمونيا أو الانسجام بين الأشياء، أو قل العلاقات أو النسب الرياضية بين الأشياء، فهى التى تمكننا من التمييز بين الأشياء والتفرقة بينها، ومن ثم كان «العد» أو «الإحصاء» !.

أما الثالثة «ميبا» فقد حاولت تطبيق الهرمونيا نفسها فى عالم الأسرة ولاسيما فى تربية الطفل، وهى الفكرة التى لخصتها فى تصور «الاعتدال» أو «الوسط»، فرأت أننا فى تربيتنا للطفل ينبغى أن نراعى الوسط فى كل شئ فى مأكله، وملبسه، وفى درجات الحرارة... إلخ، وهذا واضح من رسالتها إلى «فيتس» التى تسودها نغمة قوية من الاعتدال العملى، وكأنها تستبق فكرة أرسطو الشهيرة فى ميدان الأخلاق، والتى سميت بالوسط الذهبى أو القاعدة الذهبية التى تقول: خير الأمور الوسط .. Nothing too Much فلا إفراط ولا تفريط، أو أن الفضيلة هى وسط بين رذيلتين». وكانت «مييا» تشرح فكرتها فى بساطة، وتطبقها على مثال عملى حى هو كيفية العناية بالوليد الجديد.

أولاً: ثيانو Theano (حوالى ٥٠٠ ق.م)

أول فيلسوفة فيثاغورية نعرض لها هى «ثيانو» التى التحقت بمدرسة فيثاغورس طالبة تدرس الفلسفة مع زميلاتها وزملائهائم، أصبحت زوجة للمعلم، كما أصبحت هى نفسها مُعلمة فى المدرسة ومديرة لها بعد وفاة زوجها المفاجئ أثر حريق شب فى بيت ابنتها ميبا Myia.

كانت ثيانو ابنة «برونتيوس Brontinus» وهو أرستقراطى أورفى من مدينة «كروتون» وهبت نفسها لدراسة الفلسفة الفيثاغورية وشرحها والتعليق عليها. ويبدو أنها كتبت شيئاً عن «التقوى» لم يبق منه سوى شذرات قليلة. ولقد عالجت فى هذا الكتاب التطورات الميتافيزيقية عن «المحاكاة» و«المشاركة»، وهى الأفكار التى أصبحت بالغة الأهمية بعد ذلك عند افلاطون - ولقد ترجمت فيكى هاربر Vicki Harper النص المتبقى على النحو التالى:

«بلغنى أن كثيراً من اليونانيين يعتقدون أن فيثاغورس ذهب إلى أن كل شئ (فى العالم) نشأ من العدد. غير أن مثل هذا القول يثير مشكلة هى على النحو التالى: كيف يمكن للأعداد التى لا توجد (على نحو حسى) أن ينشأ عنها شئ ما..؟ غير أن فيثاغورس لم يقل أبداً إن الأشياء (الحسية) نشأت عن الأعداد، أو إنها مصنوعة من العدد، وإنما ذهب إلى أن الأشياء صُنعت وفقاً للعدد، على اعتبار أن النظام بمعناه الأولى إنما يوجد فى العدد، وأنه عن طريق المشاركة فى الأعدادفإن الأشياء التى ظهرت أولاً ثم ظهرت ثانياً وما تلاها - قد تعينت بأنها

يمكن أن تُعد..»(١).

ومن الواضح أن «ثيانو» فى هذا النص تحاول أن تشرح فكرة فيثاغورس التى تقول: «إن العالم عدد»، فهى لا تعنى أن الأشياء خرجت من الأعداد، على نحو ما خرج العالم من الماء عند طاليس - فذلك يثير صعوبة بل مشكلة حادة هى صلة الأعداد بالأشياء الحسية، فهل تقوم هذه الصلة على أساس المحاكاة itationIm ، أم أن الأشياء متحدة مع الأعداد، أم أنها مباطنة لها؟!

وإذا كان أغلب المفسرين قد رجحوا أن تكون الصلة بين الأشياء الحسية والأعداد هى صلة المحاكاة فهى أسبق من صلة الاتحاد أو المباطنة، «فإنهم قد استندوا فى ذلك إلى ما تقوله ثيانو Theano زوجة فيثاغورس التى ينسب لها رسالة ذكرت فيها أن الإغريق قد رووا عن فيثاغورس أنه قال إن الأشياء مصنوعة من الأعداد، فى حين أن ما قاله هو أن الأشياء مصنوعة وفقاً للأعداد»(٢) أو على غرار الأعداد فحسب.

وتواصل «ثيانو» شرح الفكرة نفسها بقولها: «عندما تسأل عن طبيعة الشئ ففى استطاعتنا أن نجيب إما بتخطيط رسم يشبه الشئ، أو بتعريف هذا الشئ». ولقد أراد فيثاغورس، بعبارته السابقة، أن يعبر - فى رأى ثيانو - عن التشابه بين الأشياء والأعداد. وهذا هو التصور الميتافيزيقى للمحاكاة أو «التشابه»، فالأشياء «تشبه» أو «تحاكى»

1- Quoted by: Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosophers, Vol. I

١ - د. أميرة حلمى مطر «الفلسفة عند اليونان» دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٨٦م. ص ٧٢.

الأعداد. والشئ يشارك فيما يوجد فى العالم من نظام وتناغم أو «هارمونيا»، فإنه سواء أكان مادياً أم غير مادى، يمكن أن يتعاقب فى ترتيب ونظام مع غيره من الأشياء الأخرى، ويمكن أن نعده. وإذا كان من الممكن عد الأشياء أو إحصاؤها طبقاً للعدد «فإن المعنى الأول لذلك هو أنها منظمة، وأنها تشارك فى النظام العام الموجود فى الكون».

ويبدو أن أرسطو لم يكن يعلم شيئاً عن النصوص التى اكتشفت عن «ثيانو» زوجة فيثاغورس؛ لأنه يقول عن الفيثاغوريين إنهم:

«ركبوا الأجسام الطبيعية من الأعداد، فالأشياء الثقيلة والخفيفة قد خرجت من أشياء لا هى خفيفة ولا ثقيلة..»(١).

ولو أننا قرأنا بدقة شروح «ثيانو» وتفسيراتها للأفكار الأساسية فى الفلسفة الفيثاغورية، لتبين لنا بوضوح أن ما تقصده هذه المدرسة لم يكن القول بأن الأشياء المادية أو الفيزيقية قد نشأت أو خرجت إلى الوجود من الأعداد ذاتها، لأن الأعداد – فى نهاية الأمر – ليست مادية، بل إن العدد هو بالأحرى الذى يمكننا من التمييز بين شئ وآخر، وعن طريق إحصاء الأشياء أولاً، وثانياً، وثالثاً... إلخ، فإننا نستطيع أن نزعم أننا قادرون على تحديد الجوانب الثابتة فى الشئ، فهو يبدأ هنا وينتهى هناك، وبين البداية والنهاية يوجد موضوع واحد. وهكذا نجد أننا عندما نحصى الأشياء فإننا نصفها ونحدد معالمها كذلك. وفى استطاعتنا أن نقول عن شئ ما إنه موضوع؛ لأن من الممكن عده (٢).

1- Mary E. Waithe : op. cit. P.13.

2 - IBID.

غير أن «ثيانو» لم تقتصر على شرح وتفسير الفلسفة الفيثاغورية وموقفها من الرياضيات والعالم، بل هناك أيضاً عبارات تنسب إليها تتعلق بنظريتين معروفتين عن الفيثاغورية:

* الأولى : خلود الروح.

* الثانية : تناسخ الأرواح.

تذهب «ثيانو» إلى أن الفيثاغوريين يؤمنون بوجود «عدالة إلهية» فى الحياة الأخرى، كما يؤمنون «بتناسخ الروح» بعد الموت فى جسد جديد قد لا يكون بالضرورة جسداً بشرياً.

وهذه الأقوال تعطيناصورة مبسطة لعملية التناسخ التى يستعيد الكون بواسطتها «الهرمونيا»، أو التناغم الذى فقده. عندما يقوم الفرد بإفساد هذا التناغم بعصيانه للقانون الخلقى طوال حياته.

وهكذا تقوم «ثيانو» بالربط بين الأخلاق على نحو ما تظهر فى عالم الإنسان، والكسمولوچيا وما فيها من نظام – والأساس فى هذا الربط هو التأكيد على خلود الروح. وتقول ثيانو:–

«مالم تكن الروح خالدة فسوف تكون الحياة مجرد وليمة لمرتكبى الشر، أولئك الذين يموتون بعد أن يكونوا قد عاشوا حياة جائرة غير شريفة...»[١].

وترى ثيانو أن كل شئ فى الكون مُنظَّم ومرتب، فلكل شئ

---

1 - Quoted by: Mary E. Waithe. op. cit. P.14.

مكانه المحدد، ودوره المرسوم، ووظيفته التى يقوم بها طبقاً لقانونٍ ما، فى كون «متناغم» تسوده «الهرمونيا» وتحكمه قوانين الطبيعة، والمنطق، وقوانين الأخلاق والدين. أما الشر أو الأفعال اللاأخلاقية فهى تعارض هذه القوانين، وهى تسبب اضطراباً وشقاقاً فى العالم.

وعند ثيانو «أننا لو قلنا إنّ الروح ليست خالدة، ولو أنها كانت تفنى بفناء الجسد، لكان معنى ذلك أن أولئك الذين يتسببون فى الاضطرابات، ويفسدون النظام بسوء سلوكهم أثناء حياتهم، لا يعاقبون على ما ارتكبوه، بل يجنون ثمار رحلة مجانية فى حياتهم، لكنهم أيضاً يمزقون نظام الكون. ولو أننا أردنا استعادة «الهرومونيا» أو التناغم بين الأشياء، والتوازن بين ظواهر الكون، فلابد من البرهنة على خلود الروح، فليست المسألة أخلاقية فحسب، بل كسمولوچية أيضاً. إننا نستطيع أن نستعيد النظام و«الهرمونيا» لو تم آنذاك توقيع العقاب على العاصى للقانون الخلقى، أو الآثم فى حق غيره، أو الشخص اللاأخلاقى عموماً. والعقاب هنا يعنى أن يولد من جديد لكن لا تتقمص روحه أو تتجسد هذه المرة فى جسد بشرى، بل تتناسخ فى موجود أدنى من الموجودات البشرية كالحيوان مثلا، وهكذا يكون عليه أن يعيش فى الحياة الأخرى عيشة دنيا كما يقضى قانون الأخلاق(١).

وفضلاً عن ذلك فهناك عبارات أخرى بقيت لنا من أقوال ثيانو تكشف عن موقف الفيثاغوريين من

1 - M. E. Waithe : Op. Cit. P.13.

المـرأة يـمكـن أن نـوجـزهـا فـى النـقـاط الآتـية[1]:

١ – إن النشـاط الجنسى للمـرأة ينبـغى أن يقـتصـر على إمـتاع الزوج، ومن ثم فلا ينبغى أن يكون لها عشاق آخرون.

٢ – ينبغى ألا تـتحد العـفة والفـضيلة – أثناء الزواج – مع التـقشف أو الإمسـاك عن ممارسة الجنس، فهذا تأويل خاطئ للعفة.

٣ – ذات يوم سـألت امرأة فيـثاغـورية المعلـمة «ثيانو»: كم يوماً لابد أن يعـقب المـعـاشـرة الجنسـية للـمـرأة حـتى تعـود «طاهرة» مرة أخرى؟! أجابت ثيانو: إذا ما كانت المعاشرة الجنسية مع زوجها فهى تظل «طاهرة» على الدوام، لكن إذا مارست الجنس مع شخص آخر فإنها لا تعود طاهرة أبداً.

٤ – وذات يوم سألتها امرأة أخرى: ما هى الواجبات المفروضة على المرأة المتزوجة؟!

أجابت ثيانو: «إمتاع زوجها، وإسعاده».

٥ – تذهب «ثيانو» إلى أن الحب الرومانسى ليس شيئاً آخر سوى «الميل الطبيعى لنفس خالية جوفاء».

والواقع أن عبارات «ثيانو» الأخلاقية، وأقوالها عن فضائل الزوجة وعلاقتها بزوجها – ربما فهمت على نحو أفضل على ضوء أقوال: «نساء ... فلاسفة» من الفيثاغورية المتأخرة، أمثال: فينتس Phintys،

1- Ibid, P.14.

وثيانو الثانية، وبركتيونى Perictione، وإيزارا اللوكانية... إلخ، فمن كتاباتهن يتبين لنا أن النظريات الفيثاغورية قد طبقت على الحياة العائلية والشخصية. فإذا كانت الفضيلة المناسبة للمرأة هى العفة، فإن عليها تقع مسئولية دعم القانون، وتأكيد العدالة، وتحقيق الهرمونيا (أو التناغم) داخل المنزل وبين أعضاء الأسرة. وطبقاً لما تقوله إيزارا اللوكانية، فإن المنزل هو العالم الصغير ... Microcosm بالنسبة للدولة، ومن ثم فإن المرأة تتحمل مسئولية هائلة لخلق الظروف المواتية التى تحقق الهرمونيا، والنظام والتآلف والقانون، والعدالة فى الدولة. ولا شك أن المرأة التى لا تعى جيداً هذه الحقيقة، فإنها تشارك فى الفوضى والاضطرابات، والشقاق وإحداث العماء Chaos فى الكون.

يكفى أن نختتم هذا القسم بعبارة توجهها «ثيانو» إلى المرأة، وهى دعوة لكل أنثى أينما كانت:-

« لأن تكونى فوق ظهر جوادٍ جامع، خَيّرٌ لكِ من أن تكونى امرأةً لا تفكر!!».

ثانيًا : أريجنوت ... Arignote

فيلسوفة فيثاغورية (حوالى ٥٠٠ق.م) يروى «ميناچ Menag-es» فى كتابه «تاريخ النساء الفلاسفة» أنها ابنة فيثاغورس من ثيانو. تعلمت فى مدرستها فى كروتون Croton بجنوب إيطاليا. وهو يروى أنها ألّفت العديد من الكتب من بينها:« أقوال مأثورة عن الإلهة سيرس Ceres»(١)، وكذلك «أسرار الإله باخوس»(٢)، وأيضا عن «ديونسيوس». وطبقاً للاعتقاد الفيثاغورى الذى يرى أن طبيعة الكون فى جوهره رياضية، وأنه منظم ومرتب ومتناغم – فقد راحت «أريجنوت» تبحث جوهر هذا العالم تقول:

«الماهية الأزلية للعدد هى العلة الأساسية للسماء والأرض وما بينهما، كما أنها هى الجذور الأولى للوجود المتصل للآلهة والأرواح، ولجميع الرجال المقدسين أيضاً..»(٣).

وشرح أريجنوت لماهية العدد يتسق مع الشروح التى سبق أن ذكرتها أمها «ثيانو»، من حيث إن كل ما هو موجود، وكل ما هو واقعى يمكن أن نفرق بينه وبين غيره من الأشياء عن طريق العد؛ ذلك لأن الماهية الأزلية للعدد ترتبط كذلك – على نحو مباشر – بوجود الأشياء المختلفة ولكنها متناغمة. وفى استطاعتنا أن نعبر عن هذا

١ - إلهة القمح عند الرومان، وهي نفسها الإلهة ديمتر عند اليونان.

٢ - إله الخمر عند اليونان، وهو نفسه ديونسيوس.

3 - Quoted by Mary E. Waithe op. cit. P15.

التناغم بالعلاقات الرياضية. وبهاتين الطريقتين يتبين لنا أن الأعداد هي علة كل شئ؛ فبدونها لا نستطيع «العد» ولا «الإحصاء»، ولا نتمكن من العدد ولا من الوصف، أو التخطيط، أو تحديد ملامح الشئ، أو التمييز بين الأشياء، فهي تعبر على نحوٍ منتظم عن العلاقات بين الأشياء[1].

4 - Ibid.

ثالثًا: ميـيـا ... Myia

فيلسـوفة فيثـاغـورية (حـوالى ٥٠٠ق.م) يـذكـر «مـيـناچ» فـى كتابه تاريخ الـنساء الفـلاسـفـة أنهـا كـانـت إحـدى بنـات فيثاغورث وثيـانو .. تـزوجـت أحـد الأبطال الرياضيين «ميلو Milo» الذى يشار إليه أحـيـانـًا باسم «ميلون Mylon»، وهـو بطل كرتون الرياضى.

كـتبت «مـييا» كـغيرهـا من النسـاء الفلاسـفة فى الـفيثاغـورية عن الهرمونيا Harmonia، أو التناغم والتـآلف فى حيـاة المرأة. ولقـد كتـبت رسالة طويلة إلى فيليس Phyllis تناقش فيها أهمية التناغم، وكيف أنه ينطبق على رعاية الطفل وتربيتـه، وأهـمية تلبية حاجـات المولود الجديد طبقًا لهذا المبدأ. ويبدو أن النقطة الهـامة التى أشارت إليها هى أن المـولـود الجديد يرغب – بطبيعته – فيمـا يتلاءم مع حاجاته، وما يحـتاج إليه هـو الاعـتـدال أو الوسط: لا الكثـيـر ولا الـقليل من الطعـام، ولا الخـفـيف ولا الثقيل من الثياب، ولا من الحرارة أو البرودة أو الهواء... إلخ.

والواقع أن ما نجده مـمتعـًا حقًا فى رسالتهـا هـو تصورهـا للمولـود المـعـتدل الذى لا يرغب فى شئ فـيه زيادة أو نقـصـان، وكـأن المـولـود الجـديد يطلب الاعـتدال فى كل شئ، ويرغب فى الحد الأوسط من كل شئ، ولهـذا السـبب فـإن الأم–حـديثة العـهـد بالأمومـة– عليـهـا أن تعـهـد برضيـعهـا إلى مرضعـة أو مربية مـعتدلة أيضـًا فى سلوكهـا، فعلى هذه المربـية ألا تكون مسـرفة لا فى النوم، ولا فى الأكل، ولا فـى الشـراب... إلخ، كمـا أنها لابد أن تقلل مـن الممارسـة الجنسيـة مع زوجهـا (ربمـا لأن الحمل سوف يمنع الرضاعة وسوف يقلل من إدرار اللبن)، وباخـتصـار:

إنّ عليها أن تقوم بكل شئ على نحوٍ جيد، وفى وقته المناسب، كما أنها لابد أن تعمل ما فيه صلاح الطفل، ولابد أن تخفف من حاجاتها حتى تُسهم تغذيتها للمولود الجديد فى تنشئته وتربيته تربية جيدة.

نصوص من رسالة ميا Myia إلى فيليس Phyllis.

« من ميا إلى فيليس ...

تحياتى

اسمحى لى أن أقدم لك النصيحة الآتية بمناسبة أنك أصبحت أماً:

«عليك أن تختارى للمولود الجديد مرضعة أو مربية تتسم بالنظافة، وحسن النية، ولا تريد له سوى الخير. اختارى امرأة تكون متواضعة، بل أكثر النساء تواضعاً، فلا تُسرف فى نومٍ أو شراب. وامرأة من هذا النوع سوف تكون أفضل مَنْ تأتمنين على تنشئة أطفالك بطريقة مناسبة لمراحل العمر، بشرط أن تكون، بالطبع، لديها اللبن الكافى لتغذية الطفل الرضيع، كما ينبغى أن تكون امرأة غير مغلوبة على أمرها مع زوجها بحيث تشاركه الفراش كلما أراد؛ إذ لا شك أن المربية تلعب دوراً هاماً فى هذه المرحلة الأولى من حياة الطفل مما يؤثر فى حياة الطفل بأسرها، فالمفروض أن تقوم بتغذيته، وفى ذهنها أن ينشأ على أفضل صورة ممكنة، فلا تقوم بتغذيته وفقاً لمقتضى الحال، بل طبقاً للروية والتدبر وإعمال الفكر، وبذلك تقود الطفل إلى الصحة والعافية، ولا ينبغى عليها أن تستسلم عندما يداعب النوم جفونها، وإنما عندما يرغب المولود فى الراحة. ولا ينبغى أن تكون حادة الطبع، سريعة الغضب، ثرثارة كثيرة الكلام. ولا ينبغى عليها أن

تكون شرهة فى تناولها للطعام فتأكل أى شئ وكل شئ، وإنما عليها أن تكون منظمة فى أوقات التناول معتدلة فى كمية الطعام، وحبذا أن تكون يونانية لا أجنبية لو أمكن ذلك. ومن الأفضل أن تجعل الرضيع يخلد إلى النوم، بعدما تناول الرضاعة، وشبع من لبنها؛ لأن الراحة، عندئذٍ ستكون متعة له. وسيكون من السهل هضم الغذاء، وإذا كانت هناك أنواع أخرى من الغذاء، فعليها أن تقدم له الطعام البسيط بقدر الإمكان، أو أن تخلطه بلبن المساء. وعليها ألا تقوم باستمرار بجعل الطفل يستحم، فالاعتدال فى الاستحمام هو الأفضل. وإلى جانب ذلك كله فإن الهواء لابد أن يكون معتدلاً، لا هو حار ولا هو بارد، كما أن المنزل ينبغى ألا يكون مفتوحاً على مصراعيه، ولا مغلق تماماً، كما أن الماء ينبغى ألا يكون ساخناً ولا بارداً، وملابس النوم ينبغى ألا تكون خشنة، بل أن يتقبلها الجلد بقبول حسن. وفى جميع هذه الأمور تميل الطبيعة إلى ما هو مناسب وملائم ومعتدل، لا إلى ما فيه إسراف أومبالغة.

تلك هى الأشياء التى يبدو لى أنه من النافع، ومن المفيد أن أكتب لك اليوم عنها، وأن تقومى أنت بالبحث عن مربية أو مرضعة حسب هذه المواصفات. وبعون من الله فإننا سوف نقدم لك مذكرات مناسبة، وإرشادات سهلة تتعلق بتنشئة الطفل فى مراحل أخرى مقبلة من عمره..»[١].

---

1 - Mary E. Waithe : Op. Cit. P.16.

وربما اندهش القارئ من قدرة «ميا Myia» على تطبيق فكرة الاعتدال على هذا النحو فى مجال التربية، فهى تختم رسالتها بهذه العبارة:

«تلك هى الأمور التى يبدو من المفيد أن أكتب لك عنها فى الوقت الحاضر، ويكفى ما قلت، فهناك اعتدال حتى فى تقديم النصيحة...!» لكنها وعدت بالكتابة إليها مرة أخرى، عندما تجد أنه من المناسب أن تذكر فيليس Phyllis بتفصلات أخرى عن الهرمونيا والانسجام فى تربية الطفل!

وهذه العبارة الأخيرة تلخص ما كانت النساء الفيثاغوريات تقمن به، بالفعل، من خلال الرسائل والنصوص. وهناك فكرة معينة توجه رسائل «ميا» التوجيه الصحيح – وتلك هى الحال نفسها فى رسائل ثيانو الثانية، وكذلك شذرات بركتيونى الأولى، وفينتسى Phintys – هى أن من واجبهن كنساء فلاسفة، أن يُعلِّمن بقية النساء الأخريات ما يحتجن إليه، وأن يرشدنهن فى أمور التربية، وأن يعرفنهن كيف يمكن «أن يعيشن حياتهن فى هرمونيا وتناغم». أو كما ستقول «إيزارا» فيما بعد: «كيف يخلقن العدالة والانسجام والتناغم فى أرواحهن، وفى بيوتهن».

وكذلك فإن مهمة الفلاسفة من الرجال أن يعلموا الرجال الآخرين ما يحتاجون إلى معرفته؛ لكى يعيشوا حياة متناغمة ويخلقوا العدالة، والانسجام، والتناغم فى أرواحهم وفى دولتهم. وتلك هى المهمة التى تفسر فى جانب منها – كما تصف فى جانب أخر – مبرارات المنظور «الواقعى» للفلسفة الخلقية عند نساء الفلاسفة الفيثاغوريات، والمنظور

«المثالى» الذى أخذبه الرجال. فقد اتخذ كل فريق منظوراً مختلفاً؛ لأن طبيعة النساء تختلف عن طبيعة الرجال. وهو ما تعترف به الفيثاغورية دون أى تقليل من أهمية المرأة، أو إلغاء لدورها، أو حط من قيمتها.

خـاتمـــــة :

لابد أن ينتبه القارئ جيداً فى ختام هذا الفصل إلى عدة أمور هامة، ربما أجابت عما يعتمل فى داخله من أسئلة:

١ - إننا الآن فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح حيث لا نجد كُتباًولا مؤلفات للفلاسفة، بل نجد فقط شذرات هى كل ما تبقى لنا من فلسفاتهم.

٢ - إذا تساءل القارئ: لكن هل تُعد هذه العبارات البسيطة فلسفة؟ كان جوابنا ذا شطرين:

أ - إن فيثاغورس نفسه عبرً عن فلسفته فى عبارات بسيطة مثل: «العالم عدد ونغم» ... إلخ.

ب - إن المدرسة الأيونية (طاليس ومدرسته) لم يتبقً لهم سوى عبارات غاية فى البساطة مثل: «الماء هو أصل الأشياء»، أو «الهواء هو المبدأ الأول لكل شئ» ... إلخ.

٣ - عندما تقوم «ثيانو» بتوضيح وشرح وتفسير عبارة زوجها «الأشياء نشأت من العدد»، وتزيل ما فى هذه العبارة من لبس، لتنفى أنها تعنى «خلق» الأشياء المادية من الأعداد، التى هى موجودات عقلية غير حسية، وتذهب إلى أن ما يريده «فيثاغورس» هو أن الأشياء صنعت على غرار الأشياء، أو وفقا لها، أو أنها تحاكيها... إلخ فليس ذلك مجرد عبارات عامة وعابرة، وإنما هى فلسفة بمعنى الكلمة.

٤ – عندما تمد «ثيانو» فكرة «الهارمونيا» أو الانسجام من الكون إلى عالم الإنسان، وتذهب إلى أن الإنسان الشرير إنما يهدم نظام العالم ويدخل فيه الفوضى، فهى تعبر بذلك عن ميتافيزيقا شاملة تجمع الطبيعة والإنسان فى فكرة أساسية واحدة.

٥ – حاولت «ثيانو» أيضاً أن تقيم «خلود الروح» على أساس الفكرة نفسها، فمن الضرورى أن تكون النفس خالدة أو الروح خالدة لا تفنى بفناء الجسد؛ حتى يعاقب الآثم ونستعيد بذلك النظام أو «الهارمونيا» إلى العالم، وهى التى أفسدها بعصيانه للقانون الخلقى.

٦ – إذا كانت النفس خالدة، وإذا كان الهدف هو معاقبة الآثم العاصى، فلابد أن نسلم بتناسخ الأرواح، أى انتقالها بعد الموت من جسد إلى جسد آخر، فالمجرم يمكن أن تتعذب روحه بأن تنتقل بعد موته إلى بدن كلب مثلاً!

إذا لم تكن هذه فلسفة كاملة تجمع بين الطبيعة، والإنسان والدين، وإذا لم تكن صاحبتها «فيلسوفة»، فبماذا نسميها إذن؟!

٣

الفصل الثالث

«نساء.. فلاسفة من الفيثاغورية المتأخرة»

- إيزارا اللوكانية .. Aesara of Lucania
- فينتس الإسبرطية .. Phintys of Sparta
- بركتيونى الأولى .. Perictione

(إذا قمنا بتحليل النفس، فسوف نفهم القانون، والعدالة على المستوى الفردى، والأسرى، والاجتماعى)

إيزارا .. Aesara

تمهيـــــــد:

سـوف نعـرض فى هذا الـفـصـل لثلاثة من النســاء الفلاسـفـة من الفـيـثـاغـورية المـتأخـرة التى ظهرت بعد نحو قـرنين من الفـيـثـاغـورية المبكرة. وهى:

١ – «إيزارا اللوكـانيـة» التى مدت فكرة القـانون الطبـيـعى ليشـمل ثلاثة مـجالات هـى: مجـال الفـرد، ومـجـال الأسـرة، ثم مـجـال المـؤسسـات الاجـتمـاعيـة. كمـا أننا سوف نسـتعـرض بعض النصـوص من كتـابها «عن الطبيعـة البشـرية» لنرى محـاولتها لتطبـيق الـقـانون الأخـلاقى فى المـجـالات الثـلاثة السـابقـة معتمدة على التقسيم الثلاثى للنفس البشرية.

٢ – كـمـا أننا سنعـرض أيضاً لفـيـثـاغـورية أخـرى هى «فـيـنتس الاسبرطية» التى ألفت كتاباً عن «الاعتدال عند النساء» لم يبق لنا منه سـوى شـذرتين – كـمـا يحـدث فى كـثيـرٍ من الحـالات بالنسبـة للفلاسـفة الرجال الذين فقدت كـتبهم ولم يـبق منها سـوى شـذرات قليلة – وهى تهتم فـى الشـذرات المتبقـية من كـتـابهـا بتـوجـيـه المـرأة إلـى الاعـتـدال فى كل شئ سـواء فى الطعـام، أو الشـراب، أو اللياقة البدنيـة، أو حـتى فى الطقـوس والشـعائر الدينية.

٣ – والفـيـثاغورية الثـالثة هى «بركتيـونى الأولى» التى كتبت كـتاباً بعنوان «هارمـونيا النســاء»، وهى غيـر «بركـتـيونى الثـانية»

التى كتبت كتاباً بعنوان «سوفياس Sophias» أى عن الحكم، وربما كان الموضوع الرئيسى فى هذا الكتاب هو واجبات المرأة فى الأسرة ولاسيما تجاه والديها أو زوجها وأولادهما ... إلخ.

وقد يندهش القارئ من إقرار النساء الفيثاغوريات الفلاسفة لوضع المرأة المتدنى الذى كان قائماً فى المجتمع اليونانى، من خضوعها للرجل، وتغاضيها عن «هفواته» حتى أصبحت المرأة الفيثاغورية «نموذجاً للزوجة المثالية، والمرأة الفاضلة عموماً، لكن ربما تزداد الدهشة لو قلنا إن أرسطو وافق أيضا على الوضع المتدنى للرجل عندما وضع نظرية «عن الرق» ، ولم يمنعه ذلك من أن يكون أعظم فيلسوف فى العالم القديم.

إنّ الهدف من استعراض هذه النماذج هو بيان قدرة المرأة على التفلسف، بغض النظر عن الموضوع الذى تجعله موضوعاً لتفكيرها. وفى اعتقادى أن القارئ سوف يلمح ما لدى المرأة - حتى فى هذه الأوضاع المتردية - من قدرة عقلية. ويكفى أن نقول إن «بركتيونى الثانية» كانت تدعو فى كتابها عن «الحكمة» إلى التأمل النظرى فى الكون. كما أن ثيانو الثانية كانت تقرأ محاورات أفلاطون وتناقشها مع زميلاتها، ولاسيما محاورة «بارميندس» البالغة الصعوبة.

أولاً: إيزارا Aesara

١ - حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالى ٤٠٠ - ٣٠٠ق.م) ولدت فى لوكانيا Lucania وهو إقليم قديم فى الجزء الجنوبى من إيطاليا، خضع لسيطرة اليونان قبل أن يغزوه اللوكانيون فى القرن الخامس قبل الميلاد. وتقول الحفريات الحديثة إن هذا الإقليم بلغ شأواً فى الحضارة غير يسير.

لا نعرف شيئاً عن حياتها، وكل ما نعرفه أنها ألّفت كتاباً بعنوان «عن الطبيعة البشرية On Human Nature» لم يبق لنا منه سوى شذرات قليلة، وإن كانت هذه الشذرات تزودنا بمفاتيح هامة لفهم فلسفات: فينتس الاسبرطية، وبركتيونى، وثيانو الثانية.

تأخذ «إيزارا» بنظرية حدسية فى القانون الطبيعى، تذهب فيها إلى أننا عندما نستبطن أنفسنا، أو عندما نتأمل، داخلياً، طبيعتنا البشرية، ولاسيما طبيعة «النفس» البشرية، ففى استطاعتنا أن نكتشف لا فقط، الأساس الفلسفى لكل القانون البشرى، بل فى استطاعتنا كذلك أن نتعرف على البنية الأخلاقية، وعلى القانون الوضعى، والطب.

ونظرية القانون الطبيعى عند «إيزارا» تدور حول القوانين التى تحكم مجالات ثلاث هى: مجال القانون الأخلاقى، بالنسبة للفرد أو ما يسمى بالأخلاق الخاصة، ومجال القانون الأخلاقى فى نطاق الأسرة،

ومجال القانون الأخلاقى الذى يحكم المؤسسات، فسوف نفهم طبيعة القانون، وطبيعة العدالة، على المستوى الفردى، والأسرى، والاجتماعى.

وسوف نعرض فيما يلى النص الذى تبقى من كتابها.

٢ - نص من كتاب «عن الطبيعة البشرية» بقلم الفيلسوفة الفيثاغورية «إيزارا اللوكانية»

«يبدو لى أن الطبيعة البشرية تزودنا بمعايير عن القانون والعدالة فى آن واحد فى مجال المنزل والدولة. فمن يبحث داخل ذاته فإنه سوف يكتشف القانون بداخله، وسيعرف أن العدالة بداخله أيضاً، فهذا القانون هو الترتيب المنظم للنفس. ولما كانت النفس البشرية ثلاثية الجوانب، فإنها ترتب طبقاً لوظائف ثلاث هى : وظيفة العقل أوالذهن Mind، وهى التى تختص بالحكم والتفكير، ووظيفة الروح العليا التى تختص بالقدرة والمقدرة، وأخيراً وظيفة الرغبة، وهى التى تختص بالحب والعطف. وقد رتبت هذه الوظائف بحيث تكون الوظيفة الأفضل هى التى تأمر أو تكون حاكمة، فى حين تكون الوظيفة الأدنى مأمورة أو محكومة. أما الوظيفة التى توضع فى مكان وسط فتكون حاكمة ومحكومة فى ذات الوقت.

وهكذا نجد أن الله خلق هذه الوظائف ورتبها طبقاً لمبدأ يكمل المقام البشرى؛ لأنه أراد للإنسان وحده أن يكون هو الذى يتسلم القانون والعدالة دون غيره من الموجودات والحيوانات الأخرى. إن وحدة الترابط المركبة لا يمكن أن تظهر من شئ مفرد، ولا من أشياء متعددة على نمط واحد. (إذ طالما أن الأشياء مختلفة، فلابد أن تكون أجزاء النفس مختلفة أيضاً، كما هى الحال فى البدن، حيث نجد أن

أعضاء اللمس، والبصر، والسمع، والذوق والشم مختلفة؛ لأن هذه الأعضاء ليست لها علاقة واحدة بكل شئ آخر).

كلا، ولا يمكن لهذه الوحدة أن تظهر من أشياء غير متشابهة – كيفما اتفق – بل بالأحرى من أجزاء تشكلت طبقاً لملائمة كل منها للكل بأسره، وانتظامها معه، وإكمالها له. وليست النفس وحدها هى التى تتركب من أجزاء متعددة غير متشابهة، بل إن ذلك يحدث متطابقاً مع الكل. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الأجزاء لا تترتب عشوائيا، أو كيفما اتفق، بل طبقاً لوعى عقلى.

ذلك لأنه لو كان لهذه الأجزاء نصيب متساوٍ من القوة والشرف، رغم أنها هى نفسها غير متساوية – فجزء منها أدنى، وجزء أعلى، وجزء ثالث يقف فى الوسط – أقول على الرغم من أن أجزاء النفس غير متساوية على هذا النحو، فإن الترابط بينها لا يمكن أن يكون متكافئاً أبداً. لكن حتى لو كان لكل منها نصيب غير متساو،بحيث يكون للأسوأ وليس للأفضل النصيب الأكبر – فسوف يؤدى إلى إحداث اضطراب فى النفس، وحتى إذا ما كان للجزء الأفضل النصيب الأكبر، والجزء الأدنى النصيب الأقل، لكن إذا لم يحدث ذلك بنسب سليمة فلن يكون ثمة إجماع ولا صداقة ولا عدالة داخل النفس. وطالما أنه حين يرتب كل عضو بالنسب المناسبة، عندئذٍ أستطيع أن أؤكد أن مثل هذا النوع من الترتيب سوف يحقق العدالة.

والواقع أن هناك إجماعاً معيناً واتفاقاً فى المشاعر يصاحب هذا الترتيب. وقد يطلق على هذا النوع من الترتيب اسم «النظام الخير» وهذا حق، بسبب أن الجزء الأفضل من النفس يكون حاكماً، والجزء

الأدنى يكون محكوماً، وسوف تنبت الصداقة، والحب، والعطف، من هذه الأجزاء؛ لأن الفحص الدقيق يظهر على أن العقل يقنع، والرغبةتحب، والروح الأعلى مليئة بالقدرة والقوة، وهى ما أن تحتدم بالبغض حتى تصبح عدوة للرغبة».

يتضح لنا من هذا النص أن بنية النفس ثلاثية عند «إيزارا»، والأجزاء الثلاثةالتى تتألف منها هى: العقل، والحيوية أو الهمة، والرغبة، والعقل مهمته التفكير والحكم، ولابد أن تفهم كلمة التفكير هنا بمعنى تحليلى خالص، لا أثر فيه للعاطفة أو الانفعال، أما الحيوية أوالهمة ففيها القوة والقدرة والمقدرة، فى حين أن الرغبة ترتبط بالحب والعاطفة والرقة. وهذه الأجزاء الثلاثة تشكل «وحدة ترابطية مركبة»، ولقد أراد الله لهذه الأجزاء الثلاثة من النفس أن تعمل معاً طبقاً لمبدأ عقلى، وهو مبدأ التناسب الملائم، ويعتمد هذا التناسب فى جزء من أجزاء النفس فى ملائمته لجزء آخر – على نوع المهمة التى بين أيدينا، أعنى أنه يعتمد على ما تسميه «إيزارا» الأعمال المختلفة المتنوعة التى يكون عليناالقيام بها. وهذا المبدأ – بما هو كذلك – ليس مبدأ رياضياً ولا عقلياً أو إلهياً فحسب، وإنما هو أيضاً مبدأ وظيفى.

٣ – طبيعة القانون والعدالة ...

ما الذى يمكن أن نستنتجه عن طبيعة القانون وبنيته، وكذلك عن طبيعة العدالة، من تحليل إيزارا «لطبيعة النفس وبنيتها..» ؟!

١ – فى استطاعتنا أن نصل إلى أن القانون والعدالة هما نتاجان لمبدأ عقلى رياضى إلهى وظيفى هو «مبدأ النسبة والتناسب».

٢ – القانون والعدالة هما معاً ثلاثيان فى بنيتهما، وهى بنية تناظر بنية النفس البشرية.

لقد ذهبت «إيزارا» فى البداية إلى القول بأن المبدأ الذى يسم بسماته بنية النفس، وطبيعة القانون والعدالة هو مبدأ بالغ البساطة؛ فليس ثمة جزء من أجزاء النفس(ولا من أجزاء القانون والعدالة) يمكن أن يسود وحده.

وترى «إيزارا» أن مبدأ «النسبة والتناسب» يلغى أى مبدأ جزئى آخر. خذ مثلا قانون «ضريبة المساكن» وما إلى ذلك من قوانين متعلقة بالضرائب، تجد أنه يقوم على أساس أن على جميع السكان أن يتحملوا بالتساوى نفقات الحكم. ومعنى ذلك أنه يقوم على أساس مبدأ يقول: إن على القانون أن يراعى أيضاً الحاجات الخاصة للأفراد، ويضعها فى اعتباره عندما يوافق على القول بأن على الأفراد أن يتحملوا نفقات أوتكاليف الحكم. والمبدأ الكامن وراء ذلك كله هو «النسبة والتناسب» الذى يقضى بأن يقوم نظام الضريبة على مبدأ لا يؤدى – على المدى

البعيد– إلى شقاق أو نزاع بين المواطنين. تلك هى القضية الأولى التى تنادى بها «إيزارا»[1].

أما القضية الثانية فهى تقول بأن القانون والعدالة هما ثلاثيان البنية، وأن هذه البنية تناظر بنية النفس البشرية. والقانون والعدالة تستغرقهما فكرة القانون الخيِّر، والعدالة الحقة تنظر بعين الاعتبار إلى جميع الأفكار والحجج والمبادئ المناسبة، وفضلاً عن ذلك فالقانون الجيد أو الخير، وخصوصاً العدالة الحقيقية، صائبان فى حكمهما: فهما يصدران القرارات حول أمور الواقع، وموضوعات الإلزام، ومسائل الواجب. وهذه السمات الخاصة بالاستغراق فى التفكير والحكم الصائب بالنسبة للقانون والعدالة، تناظر عند «إيزارا» القدرة العقلية.

إن قوة القانون وتأثير النظام القضائى، مثل قواعد ونظام الأسرة،والمبادئ الشخصية، والضمير – تناظرالجزء الخاص بالهمة والحمية من النفس عند «إيزارا». إذ يمكن للقانون أن يكون محركاً قوياً، أو عائقاً قوياً أيضاً. فهو يمكن أن يكون محركاً قوياً عندما يعبر عن الهرمونيا أو التناغم والاستقرار، فيعمل على دعم القيم، والفضائل عند الفرد، وفى الأسرة، وفى الدولة. ومن ثم كان القانون والعدالة، كالجزء الخاص بالحمية والهمة من النفس البشرية – مؤثرين ومحركين، وقد يكونا عائقين، وقد يكونا مرشدين للسلوك. ولهذا كله فإننا نستطيع أن نقول إن القانون والعدالة يفسران ويدعمان قيم

1- Mary Ellen Waithe: Ahistory of Women philosophers. Vol.P.22.

2- Ibid. P.23.

الشخص وفضائله، وكذلك القيم والفضائل فى الأسرة والمجتمع[٢].

وفضلاً عن ذلك فإن القانون الاجتماعى، والقانون الأسرى، والقانون الأخلاقى تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء فى صورة الشفقة على الآخرين أوالرحمة بهم، والعطف عليهم، أو فى صورة احترام الإنسان لنفسه. وهذا الحب يشبه – فى نظر إيزارا – ما ينتجه الجزء الثالث من النفس وهو الرغبة. هذا العامل المؤثر فى القانون والعدالة منصف، وهو يراعى مشاعر الآخرين، كما يراعى الحاجات والاهتمامات، فالعدالة رحيمة ومتسامحة، وهى تؤمن بأن الفرد مُقَّدم على الجماعة، بمعنى أنها تضع فى اعتبارها الظروف والملابسات والأعذارالمختلفة التى تجعل الفرد يخرج عن طاعة القانون أو يرفض الامتثال له. وقل مثل ذلك فى حالة الأسرة التى تسودها الهرمونيا أو الانسجام، فهى تتسم بسمة «الإجماع والاتفاق فى المشاعر» وهى أسرة منصفة وتراعى مشاعر الأعضاء وحاجاته الخاصة، وهى أيضا رحيمة ومتسامحة. أما على المستوى الشخصى فإن الفرد الذى لا يعانى من انفصام فى الشخصية، فإنه يتسم كذلك بسمة «الاجماع والاتفاق فى المشاعر» ومثل هذا الشخص يضع لنفسه معايير أخلاقية تتناسب وقدراته العقلية. ومثل هذه الشخصية تسامح نفسها، ولا تكتنفها الوساوس حول نقائصها الأخلاقية. ومرة أخرى تقول: إن القانون الاجتماعى، وقانون الأسرة، وقانون الأخلاق الشخصية تتسم جميعاً بسمة الحب، سواء فى صورة الرحمة بالآخرين والشفقة عليهم

1- Ibid

أو احترام الذات. وهذا الحب يشبه ذلك الذى ينتجه الجزء الثالث من النفس، وأعنى به: الرغبة[1].

٤ - إيزارا ... وسيكولوچيا الأخلاق:

توصى الشذرة المتبقية من كتابها «عن الطبيعة البشرية» باستبطان النفس، وتمتدح التأمل الذاتى لطبيعة النفس البشرية. على اعتبار أن ذلك هو الطريق للكشف عن المجالات الثلاثة التى يطبق فيها القانون البشرى وهى: مجال الأخلاق الفردية وقوانين الأخلاق الشخصية، ومجال القوانين التى تعبر عن الأساس الأخلاقى للأسرة، والقوانين التى تعبر عن الأساس الأخلاقى للمؤسسات الاجتماعية. وفى استطاعتنا أيضاً أن ننظر كيف حللت «إيزارا» بنية النفس، وكيف رأت أن ذلك يسهم فى فهم قوانين «سيكولوچية الأخلاق البشرية»، وقوانين الطب الفيزيقى. فمثلا قد يكون من المناسب أن ننظر إلى العقل أو جانب الذهن فى النفس البشرية عند «إيزارا» على أنه يناظر - فى شئ من الغموض - فكرة الأنا Ego فى علم النفس الحديث. فالعقل عند «إيزارا» يفكر، ويقيّم، ويكشف عن المبادئ، ويدعم الحجج ويساندها، كما أنه يقوم بعمليات الاستقراء والاستنباط معاً. والجزء الخاص بالحمية والهمة فى النفس البشرية عند «إيزارا» يشبه الإرادة فى التحليل النفسى، فهو ينتج ما تسميه هى «بالشجاعة»، والباعث على الفعل. والرغبة نفسها، يمكن أن تكون مرادفة لغريزة اللذة التى تتجسد فى الحب بأشكاله المختلفة، بما فى ذلك ما تسميه إيزارا «بالعطف» و«الصداقة» و«الرقة» ... إلخ، غير أننا ينبغى ألا نبالغ فى بيان

أوجه التشابه بينها وبين «فرويد»، وربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقارن بين تقسيمها الثلاثي للنفس، وتقسيم أفلاطون لقوى النفس الثلاث: النفس الشهوانية ومقرها البطن تحت الحجاب الحاجز، وهي غارقة في صفات الحس من شره وجشع، وميل إلى الشهوة وممارسة الغريزة.. إلخ، ثم «النفس الغضبية» ومقرها الصدر، وتغلب عليها الحمية والانفعال، وتميل إلى الاندفاع نحو حماية المقدسات والقيم ... إلخ، ولهذا كانت فضيلتها «الشجاعة، أما الثالثة – وهي أعلى الأنفس جميعاً – فهي النفس العاقلة ومقرها الرأس، وهي مصدر الاتزان والتعقل والفهم والحكمة.

والغريب أن أفلاطون أيضاً يمد هذا التقسيم الثلاثي إلى المجتمع فيقسمه ثلاث طبقات: الطبقة المنتجة أو الطبقة العاملة أو «مجتمع الشهوة»، ثم طبقة الجند الذين يدافعون عن الدولة ويتميزون بالشجاعة والإقدام، وأخيراً طبقة الحكام الذين يتميزون بصفات الفلاسفة ويعرفون مثال العدالة ويطبقونه في المجتمع[1] .وإن كان الاختلاف بين نظرية «إيزارا» في التقسيم الثلاثي للنفس وانعكاسه على الحياة الاجتماعية، وبين نظرية أفلاطون– كبيراً في حقيقة الأمر.

غير أننا لابد أن نقول في النهاية إن لنظرية القانون الطبيعي عند «إيزارا» مضامين نسائية. فلو أننا افترضنا – كما يقول الفيثاغوريون عادة – أن النساء يتحملن مسئولية خلق الهرمونيا، والعدالة في البيت، في حين يتحمل الرجال مسئولية إحداث الهرومونيا في المدينة أو

---

١ – د. إمام عبد الفتاح إمام «أفكار ... ومواقف» ص ٦٨٢ – ٦٨٣ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

الدولة – لكان عمل البناء هو المرادف الأخلاقى لعمل الرجال؛ وذلك لأن العدالة فى المجالين تحمل نفس الأساس الطبيعى الذى يضرب بجذوره فى طبيعة النفس البشرية. إن المدن (أو الدول) التى تسودها العدالة والانسجام (الهرمونيا) تحتاج إلى رب المنزل العادل الذى يسود الانسجام جوانب شخصيته أيضاً. ومن ثم فإن العدالة الاجتماعية تعتمد على النساء اللاتى يقمن بتربية الفرد العادل المنصف الذى يسود الانسجام شخصيته. وتذهب الفلسفة الفيثاغورية إلى أن المرأة ليست هامشية بالنسبة للعدالة الاجتماعية، بل إنها هى التى تجعلها ممكنة(١).

1- Mary Ellen Waithe: Ahistory of Women philosophers., Vol. 1, P.26.

ثانيًا : فينتس الاسبرطية ..

Phintys of Sparta

١ - حياتها ومؤلفاتها:

فيلسوفة فيثاغورية يونانية (حوالى ٤٠٠ق.م) لا نعرف عن حياتها سوى أنها ابنة أحد قادة الأسطول اليوناني الذى مات فى المعركة عام ٤٠٦ق.م على نحو ما يروى ثيوكيديدز، وبلوتارك، وهذه المعلومات هى التى تجعلنا نقول إنها من اسبرطة. ويروى المؤرخون أنها ألفت كتاباً عنوانه «عن الاعتدال عند النساء» لم يبقَ لنا منه سوى شذرتين. وهاتان الشذرتان تجسدان تصورات المدرسة الفيثاغورية عن النساء والرجال. وعلى الرغم من أن هناك عناصر مشتركة بين هاتين الشذرتين، فإنه يوجد بينهما بعض الاختلافات الجوهرية.

٢ – الشذرة الأولى من كتاب «الاعتدال عند النساء»:

«لابد أن تكون المرأة على الدوام منظمة وخيرة، وهى لن تصبح كذلك قط بدون امتياز أو فضيلة. والفضيلة المناسبة لكل شئ هى التى تجعل من يتلقاها فى وضع أعلى: الفضيلة المناسبة للعينين تجعلهما عينين على الأصالة، والمناسبة للسمع تجعل ملكة السمع حادة، والمناسبة للحصان هى التى تجعله حصاناً أصيلاً، والمناسبة للرجل هى التى تجعله رجلاً تام الرجولة. وقل مثل ذلك فى الفضيلة المناسبة للمرأة هى التى تجعلها امرأة ممتازة، والفضيلة المناسبة للمرأة هى: الاعتدال؛ لأنها عن طريق هذه الفضيلة سوف يكون فى استطاعتها أن تحترم زوجها، وأن تحبه.

وربما ظن كثير من الناس أنه ليس من المناسب للمرأة أن تتفلسف، كما أنه ليس من المناسب لها أن تمتطى ظهور الخيل، أو أن تتحدث فى جمع من الناس، أو تخطب فى الجمهور علانية. لكنى أعتقد أن هناك أشياء خاصة بالرجل، وهناك أشياء خاصة بالمرأة، وأشياء تنتمى للمرأة أكثر من الرجل. أما ما هو مناسب للرجل أكثر، أو يخص الرجل على الأصح فهو الاشتراك فى المعارك، والانخراط فى العمل السياسى، والخطب العامة للجمهور. أما ما هو خاص بالمرأة أكثر فهو البقاء فى المنزل، والترحيب بزوجها ورعايته. لكنى أعتقد أن الشجاعة، والعدالة، والحكمة هى أمور مشتركة بينهما، كما أن فضائل البدن تناسب الرجل كما تناسب المرأة، وقل مثل ذلك فى فضائل النفس. وكما أنه من المفيد للبدن عند كل منهما أن يكون سليماً من

الناحية الصحية، فكذلك من المفيد لكليهما أن تكون النفس سليمة. وفضائل البدن هى: الصحة، والقوة، وحدة الإدراك، والجمال. وبعض هذه الفضائل من المناسب للرجل أن تكون لديه أكثر من المرأة مثل: تكوين بدنه، قوة روحه، فى حين أن ما يناسب المرأة أكثر – من هذه الفضائل – هو: الاعتدال.

ولذلك يستطيع المرء أن يكتشف طبيعة المرأة التى تمرست على الاعتدال، ويعرف عدد الأشياء ونوعها التى أضفت هذا الخير على المرأة. وأنا أقول إن ذلك يأتى من خمسة أشياء هى على النحو التالى:–

أولاً : احترام فراش الزواج.

ثانياً : مراعاة اللياقة فى جسدها.

ثالثاً : السير فى ركاب أولئك الذين هم من أهل بيتها.

رابعاً : ألا تنغمس فى الطقوس السرية، والاحتفاء بعيد الإلهة سبيل Cybele[1].

خامساً : أن تكون عابدة قانتة ورعة، وأن تقوم بتقديم القرابين الصحيحة للآلهة.

تلك هى أسباب الاعتدال والمحافظة عليها، والمرأة التى تحققها لا

---

١ – إلهة الأرض، أو الإلهة الأم. وقد عرفت بهذا الاسم عند اليونان والرومان وفي آسيا الصغري حتي القرن الخامس قبل الميلاد، ثم عرفت بأسماء أخري كثيرة منها: عناة، وعشتار، وإيزيس.. إلخ. د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٢٧٦ مكتبة مدبولي بالقاهرة.

يمكن لزواجها أن يفسد، أو أن تخالط رجل غريب. والمرأة التى تبغى أو تتجاوز حدودها فإنها تقوم بالتجديف على آلهة جنسها، وتجلب لأسرتها ولبيتها حلفاء مزيفين، كما أنها تقوم أيضاً بالتجديف على آلهة الطبيعة الذين تقسم بهم، كما أنها تؤذى أسلافها وعشيرتها، ومشاركتها فى الحياة العامة، وإنجاب أطفال شرعيين. كما أنها تؤذى وطنها... كما أنها سيكون من رأيها ارتكاب الخطيئة، والإقدام على الأعمال الشائنة من أجل اللذة وحدها، ولن تستحق أدنى رحمة. غير أن انتهاك القانون لابد فى النهاية من تدميره.

٣ – النساء والفضيلة ...

تذهب فينتس إلى أن هناك فضائل مشتركة بين الرجال والنساء، بينما هناك فضائل أخرى ينفرد بها هذا الجنس أو ذاك. فالشجاعة، والعدالة، والحكمة هى فضائل مشتركة بين الجنسين، رغم أنها ترى أن الشجاعة والحكمة تناسب الرجال أكثر من النساء. وليس واضحاً تماماً ما تعنيه فينتس بذلك. ربما كانت تعنى بعبارة «تناسب الرجال أكثر» أنها «تناسب ذلك النوع من النشاط الذى ينخرط فيه الرجال. وتبين لنا «فينتس» لماذا تحتاج النساء إلى حقائق وضعهن الاجتماعى عندما يمارسن الفلسفة الأخلاقية كما يمارسها الرجال، ويضعن النظريات عن الدولة المثالية أو الدولة الكاملة. وتسلم فينتس بأن النظام الاجتماعى قائم على ما هو عليه. وتطرح سؤالا هو: أى النظريات الأخلاقية تتبع؟ أتكون من مسئوليتنا الأخلاقية أن نعيش حياتنا تبعاً للنظرية الأخلاقية التى تراعى ظروفنا الخاصة أفضل من غيرها..؟ وتقول «فينتس»: «إننا إذا أخذنا بنوع الحياة التى يسير عليها الرجال فى الأسواق، وفى الأماكن الحكومية، فإن الشجاعة والحكمة ستكونان هما الفضائل الأخلاقية الأساسية فى هذه الحالة؛ لأن هذه الفضائل إذا لم تمارس فسوف يعانى المجتمع من موجات العنف ومن الصلف، والخداع سواء من جانب المدن الأخرى أو من جانب أعضائه أنفسهم. ومن ناحية أخرى إذا ما أخذنا بنوع الحياة الضيقة التى تعيشها النساء فى المنازل، حيث تكون عليهن مسئولية شخصية فى تنشئة الذكور الذين سيدعمون الانسجام (الهرمونيا) فى المدينة (الدولة)، ومع جيرانهم – كانت الفضائل

الأساسية هنا هى: الاعتدال وضبط النفس، إذ بدونها لن تكون النساء صبورات مع الأطفال، ولن يبذلن الكثير من الجهد والطاقة فى رعاية الآخرين[1]».

لكن هناك رأياً آخر تعرضه «مارى ويث» إذ تقول إن فينتس عندما ذهبت إلى أن العدالة والحكمة تناسب الرجال أكثر «فربما كانت تقصد أن غرس فضائل العدالة والحكمة فى نفوس النساء محدود؛ بسبب الدور الاجتماعى المسموح لهن القيام به فى المجتمع. وتعكس تلك الأدوار الاجتماعية فهماً كلياً عاماً (فى تلك الثقافة) يذهب إلى أن نفوس النساء لها هذه الطبيعة، أما نفوس الرجال فلها تلك الطبيعة. فالمجتمع يبنى أطواره بتلك الطريقة التى لا تتيح للرجال الفرصة لمعرفة الكثير عن تطوير الفضائل فى النساء، والعكس صحيح أيضاً[2].

1 - Mary Ellen Waithe: op. it. P.28.

2 - Ibid. P.19.

٤ – النساء والعدالة فى المنزل:

تصف «فينتس» كثيراً من ألوان الأذى التى تحدثه المرأة غير المخلصة، إذ المفروض أنها تقسم يميناً عند زواجها مع والديها وأقاربها. والقسم موجه إلى آلهة جنسها، وإلى آلهة الطبيعة؛ وذلك بغرض حماية الأسرة. ثم تأتى الخيانة – أو عدم الإخلاص عموماً – لتعرض هذه الحماية للخطر، وبالتالى، تعرض الأسرة للهلاك أو الضياع، وفضلا عن الأذى الذى تلحقه هذه المرأة بالأسرة عندما تعرض حمايتها الإلهية للخطر، فإنها ترتكب جريمة مدنية ضد الدولة. فالزواج ينقل وصاية المرأة من والديها إلى زوجها، ثم تأتى المرأة بخيانتها لتنتهك هذه الوصاية، وتلك جريمة أسوأ من الجرائم التى تكون عقوبتها الإعدام. فلا يمكن للمرأة الخائنة أن تأمل فى الرحمة، لأن الباعث الذى دفعها إلى الخيانة هو أسوأ الدوافع، ألا وهو : اللذة.

٥ – الشذرة الثانية من كتاب «الاعتدال عند النساء»...

تقول فينتس Phinty فى كتابها سالف الذكر:

«لابد للمرء أن يتدبر هذه النقطة أيضاً، وهى أن المرأة لن تجد علاجاً مطهراً لتلك الغلطة، بحيث تُعد عفيفة ومحبوبة من الآلهة بعد أن دنست المعابد والمذابح. ففى حالة هذه الخطيئة – ربما أكثر من غيرها – فإن الروح القدس لا يكون رحيماً قط، بل فى غاية القسوة. إن أعلى مجد للمرأة المتزوجة، وأنبل شرف، أن تأتى بشهود على فضيلتها

واحترامها لزوجها من خلال أطفالها كلما كانوا يحملون خاتم الشبه مع أبيهم. وذلك هو معنى الاعتدال بخصوص الزواج.

أما موضوع الاعتدال بخصوص اللياقة البدنية فرأيي فيه هو على النحو التالي:

على المرأة المعتدلة أن ترتدي ملابس بيضاء بسيطة ونظيفة، فلا ينبغي عليها أن ترتدي الملابس الشفافة أو المزركشة أو المطرزة بالحرير، بل الثياب البسيطة المحتشمة، والنقطة الأساسية أن تكون محتشمة، وأن تتجنب مظاهر الترف والبهرجة. وعلى هذاالنحو فإنها لن تثير الغيرة أو الحقد أو الحسد عند النساء الأخريات. وهي بالطبع لن تزين نفسها بالذهب والزمرد؛ لأن ذلك يعني أن يبدو عليها مظاهر الثراء والعجرفة تجاه النساء العاديات.

أما المدينة المنظمة تنظيماً حسناً، فسوف تنظم نفسها من منظور الكل، بحيث يقوم التنظيم على التعاطف والإجماع. بل إن عليها أن تحرم وجود الحرفيين في المدينة، الذين يقومون بصناعة الزينة والزخارف، فالمرأة المعتدلة ينبغي عليها أن تزين نفسها لا بزينة أجنبية مستوردة بل بالجمال الطبيعي للجسد، وبالنظافة والاستحمام بالماء. لابد أن تتحلى بالتواضع لا بهذه الزخارف. وها هنا تجلب للرجل الذي تعيش معه وتشاركه حياته، الشرف والاحترام، وكذلك لنفسها أيضاً.

كما أن على المرأة أن تشارك في الاحتفالات التي تبدأ من البيت لتقديم القرابين للإله المؤسس لمدينتها؛ وذلك لصالحها وصالح زوجها وأهل بيتها. فضلاً عن ذلك فعندما يظهر نجم المساء – وليس في

الظلام الحاد - فإن على المرأة أن تعد نفسها للذهاب إلى المسرح، وكذلك يمكنهاالقيام بشراء السلع وأدوات منزلها، وعليها أن تقوم بذلك بطريقة محتشمة، ومن الأفضل أن تصحبها إحدى وصيفاتها.

«كما أن عليها أن تقوم بتقديم الصلوات للآلهة، وإن كان عليها الامتناع عن الطقوس السرية في المنزل والاحتفال بالإلهة «سبيل ... Cybele». إن القانون الشائع يمنع النساء من الاحتفال بهذه الشعائر؛ لأن مثل هذه الممارسات الدينية تؤدى إلى السكر والخبل، في حين أن ربة الدار لابد أن تكون معتدلة، ومقتصدة في كل شيء...»(١).

«وهكذا يكون في استطاعة المرأة أن تحقق مبدأ الانسجام (الهرمونيا ... Harmonia) بممارسة فضيلة الاقتصاد والاعتدال في كل شيء: ملابسها، ومظهرها وسلوكها العام، وممارساتها الدينية؛ فالترف، والبهرجة، والتكبر، والعجرفة، والظهور بمظهر الثراء كلهاأمور ينبغي تجنبها؛ لأنها تهدد الانسجام في المدينة وتخلق الغيرة والحسد في النساء الآخريات، والتباهي باختلاف الطبقات. ولابد للمرأة المعتدلة أن تعي مدى تأثر المدينة ككل بثيابها ومظهرها غير المعتدل. وحتى الحرفيين الذين يقومون بصناعة الزركشة والزخارف التافهة على ملابس النساء، ينبغي منعهم من القيام بهذه الأمور في المدينة، بل ينبغي أن تمنع مظاهر التباهي بالفروق بين الطبقات، بأن تستعرض المرأة مجموعة من الخدم في صحبتها، وهي تسير في شوارع

---

1 - Mary E. Waithe : Op. Cit. P.30.

ثالثًا : بركتيونى .. Perictione

فيلسوفة يونانية فيثاغورية حوالى عام ٣٠٠ق.م). لابد لنا من التفرقة بين سيدتين تحملان نفس الاسم، ولهذا يُطلق عليهما المؤرخون عادة بركتيونى الأولى، وبركتيونى الثانية. الأولى كتبت كتاباً بعنوان «هارمونيا النساء .. Harmony of Women». بينما ألفت الثانية كتاباً جعلت عنوانه «سوفياس .. Sophias» أى «عن الحكمة». ولقد بقيت لنا شذرات من الكتابين. وهناك روايات تذهب إلى أن بركتيونى الأولى هى أم أفلاطون، وإن كانت الأدلة ليست قاطعة، مع الاعتراف بأن بركتيونى الأولى عاشت فى أثينا زمن أفلاطون.

لكن المتفق عليه أن الشذرات المتبقية من الكتابين تنسبان إلى سيدتين مختلفتين. لقد كانت بركتيونى الأولى تشجع النساء على التفلسف، فإذا مارست النساء الحكمة وضبط النفس، كان فى استطاعتهن استلهام الفضائل الأخرى بما فى ذلك العدالة والشجاعة. ويبدو أن هذه الفيلسوفة كانت تأخذ بمنظور نفعى تجاه الفضيلة: فالمرأة يمكن أن تمارس فضائل معينة لتكون قادرة على تطوير فضائل أخرى، وفضائل أعلى، عندئذٍ سوف تجلب هذه الفضائل بدورها السعادة والانسجام لهذه المرأة ولأسرتها.

١ – ترجمة نص من كتاب «هارمونيا النساء»[١].

«لا ينبغي للمرأة أن توجه إلى والديها كلاماً نابياً،ولا أن تسبب لهما أذى، بل أن تطيعهما في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة، في كل خلجات النفس وحركات البدن، في الحياة الداخلية، والحياة الخارجية، في الحرب والسلم، في الصحة والمرض، في السراء والضراء، في المواقف العامة والخاصة، ينبغي أن تكون المرأة معهما ولا تهجرهما أبداً. ذلك هو طريق الحكمة، والاستقامة والشرف. لكن إذا ما احتقرت المرأة والديها، وركبها شر من أي نوع، فسوف تلعنها الآلهة، وترميها بارتكاب الخطيئة حية وميتة، وسيكرهها الجنس البشري إلى الأبد، مع الأشرار الراقدين في باطن الأرض، وستهاجمها الشياطين المكلفة بهذه الأمور.

فمنظر الوالدين مقدس ومحبوب، وكذلك توقيرهما ورعايتهما. ولا يمكن أن تقارن طلعتهما لا بالشمس، ولا بنجوم السماء، ولا بما يمكن أن يتخيل المرء أنه أعظم من ذلك. ولهذا كان من الضروري احترامهما أحياءً أو أمواتاً. ولا يمكن أن تكون هناك خطيئة أفظع من إهانة المرء لوالديه..»[٢].

هذا واحد من النصوص التي بقيت لنا من كتاب «بركتيوني» «هارمونيا النساء» تعرض فيه لمبدأ أخلاقي هو واجبات المرأة تجاه

---

١ – قامت بترجمة هذا النص إلى الإنجليزية: نيكي لين هاربر Vicki Lynn Harper.
2- Mary E. Waithe : Op. Cit. P.38.

والديها. وتنبههـا إلى أن هذا المبدأ يُخرق ويُنتهك لو أنها عصـتهما، أو لم تبد نحـوهما الاحـترام والتوقـير الواجـبين. أما إبداء شـئ من البغض أو التذمـر أو التلفظ بكلمات نابية، فتلك أمـور لن تغفـر أبداً. غيـر أن الطاعة العـمـيـاء ليـست مطلـوبة، فـإذا مـا ضل الوالـدان فـإنه يـمكن لهـا أن تحـثهـمـا نحـو الـطريق الصـحـيح والـفـعل الـحق. وفي جـمـيع الحـالات فعصيانهـما، وعدم الوفاء نحوهما يقلب موازين الهـرمونيا (الانسـجام) رأساً على عقـب، ويجـعل الانسـجـام الأزلي بين الأجـيـال مـنعـدماً، وذلك شئ لا يمكن أن تغفره الآلهة ولا الناس[1].

والواقع أن هناك وشـائج قربى بين كتـاب «فينتس» «الاعـتدال عند المـرأة» الذي سـبق أن تحـدثنا عـنه، وبين كـتـاب بركـتـيـوني «هـارمـونيـا النسـاء» فـهما معاً يركـزان على الأوضـاع الاجتمـاعية، والأمـور الأخـلاقية للنسـاء في المـجـتمع. وهـمـا معـا يعـترفـان بالوضـع القائم في المـجـتمـع، ويجـعـلانه المـصـدر الأسـاسـي للإلـزام الأخـلاقي عند المـرأة، فـالإنسـان يولـد في أسـرة لهـا دين، وفي مدينة لهـا دسـتور. وتلك هـي العلاقات التي لا سـيطرة للمـرء عليـها، ومـع ذلك فهي تـصـلح كـمـصـدر لـلواجب تجـاه الوالدين، والآلـهـة، ثم يتـزوج الإنسـان ويشـكل أسـرة، ويخـلق عـلاقـات جـديدة يكون له عليـها بعض السـيطرة، وهـا هنا تضـاف إليـه مسـئوليـة أخـلاقيـة جـديدة. وهـناك الإلـتـزامات الأخـلاقـية والاجـتماعـيـة التي تلحق بجمـيع هـذه العلاقـات، وهي واجبـات على المرء أن يراعـيهـا إذا أراد لهـذه العـلاقـات أن تكون مـنسـجـمـة، أو إذا شـاء أن يحـدث الانسـجـام، وتعم الهرمـونيا جميع جوانب المجتمع.

1- Ibid P.39.

٢ - الشذرة الثانية من «هارمونيا النساء» :

«لابد للمرء أن يتخيل أن المرأة التى يسودها الانسجام، وتتحقق عندها الهرمونيا، لابد أن تكون مليئة بالحكمة وضبط النفس، ولابد أن يزداد وعى النفس بالخير حتى تكون امرأة حكيمة شجاعة منصفة تتحلى بامتلاء النفس، وتنفر من الآراء التافهة الفارغة. إنّ الأشياء القيمة تأتى إلى المرأة من هذا المصدر: من نفسها، ومن زوجها، ومن أولادها، ومن بيتها، وربما أيضا من مدينتها، لو أن مثل هذه المرأة حكمت المدينة أو القبيلة على نحو ما نرى فى المدن الملكية.

وعندما تسيطر المرأة على شهوتها، ومشاعرها العنيفة، سوف تكون امرأة مستقيمة تسودها الهرمونيا، ولن تشدها أية رغبات غير مشروعة، بل سوف تحتفظ بحبها لزوجها ولأولادها ولبيتها بأسره. وعندما تصبح المرأة عشيقة لرجل غريب فإنهاتصبح، فى الحال، عدوة لآل بيتها جميعاً، وللطبقات العليا والدنيا فى المجتمع على حدٍ سواء. ومثل هذه المرأة تختلق الأكاذيب، وضروب من الغش والخداع لزوجها حول كل شئ، فى محاولة لتبدومتفوقة وذات إرادة خيرة، ورغم أنها تحب الكسل، فإنها تريد أن تظهر وكأنها تحكم بيتها.

ولابد للمرأة أن تدرب نفسها على المعايير الطبيعية للغذاء، والملابس، والاستحمام، ومسح الجلد بالزيت، وتصفيف شعرها، ووضع زينتها من الذهب والأحجار الكريمة. إن المرأة التى تبالغ فى الطعام، والشراب، وتسرف فى الملبس، والتحلى بكل زينة، تكون جاهزة لارتكاب الخطيئة، وممارسة كل رذيلة، سواء بالنسبة لفراش

الزوجية، أو بقية الأفعال الخاطئة الأخرى، لكن من الضرورى فحسب تخفيف حدة الجوع والعطش حتى لو تم ذلك بأرخص الوسائل، فقد تكتفى فى حالة البرد بثوب خشن، أو حتى بجلد الماعز.

إن ارتداء العباءات الأرجوانية الفاخرة، ذات الألوان الفاقعة، حماقة لا حد لها. لكن فى حالات الجهل البشرى ترى المرأة تسرع إلى العبث والمبالغة. ومن هذه الزاوية لا ينبغى على المرأة التى يسودها الانسجام أن تقيد نفسهابالذهب والأحجار الكريمة الآتية من الهند أو غيرها من البلدان، ولا أن تدهن جسمها بالطيب الآتى من بلاد العرب، ولا أن ترسم وجهها بالأبيض والأحمر، ولا أن تسود حواجبها أو رموشها، أو أن تصبغ شعر رأسها. إن الجمال الذى يأتى من الحكمة، وليس من هذه الأمور، هو الذى يرضى المرأة الأصيلة ويشبعها.

لكن المرأة ينبغى عليها الا تظن أن نبالة المحتد، أو الثراء، أو القول بأنها أتت من مدينة كبيرة – هى أمور ضرورية أو لازمة لها، أو لأصدقائها، أو للآراء الطيبة من الرجال المرموقين عنها، ولو فعلت ذلك فلن يصيبها أى أذى، وإن لم تفعل فإن روحها لن تسعى إلى ما هو عظيم، إن هذه المسائل فى الواقع تضرها أكثر مما تنفعها،وتجرها إلى سوء الحظ، وإلى الخيانة، والحسد، وسوء الطوية، ومثل هذه المرأة لن تكون أبداً صافية النفس.

لابد للمرأة أن تحترم الآلهة، وأن تطيع قوانين الأسلاف وقواعدهم. وبعد احترام الآلهة فإن عليها احترام الوالدين وتوقيرهم، فهما من حيث التأثير، يتساويان مع الآلهة، بالنسبة للنسل.

أما بالنسبة لزوجها فلابد لها أن تعيش معه حياة مشروعة

ومحترمة، ولا تنظر لأية شئ على أنه خاص، بل عليها أن تحافظ على زواجها، وأن تصونه. وعلى المرأة أن تتحمل ظروف زوجها حتى ولو كان غير موسر، ولو سقط نتيجة للجهل فى عادة الشراب، أو طريح الفراش، أو كان يعاشر نساء أخريات، فإن هذا الخطأ يمكن أن يغفر للرجال، لكنه لا يغفر أبداً للنساء. إن عليها أن تحافظ على القانون، وألا تحسد الرجال على ذلك. كما أن عليها أن تتحمل غضب زوجها أو بخله، أو هفواته، أو ألفاظه التى يتفوه بها أحياناً، أو غيرته، أو شتائمه، أو معاملته السيئة، أو أية صفة أخرى تكون فيه بحكم الطبيعة، إذ يجب عليها أن تكون متحفظة وكتومة، وأن تعالج جميع صفاته بطريقة تسعده، فإذا ما أحبت المرأة زوجها وفعلت ما يرضيه، وعملت على إسعاده، سادت الهرمونيا وتحقق الانسجام... فإذا لم تحبه فإنها لن تجد الأمان لا فى بيتها، ولا لأطفالها، ولا لخدمها، ولا لممتلكاتها، بل ستصبح كما لو كانت العدو الذى يسعى إلى الخراب، بل ربما راحت تصلى للآلهة ليموت زوجها على أساس أنه رجل كريه، ولتجدلنفسها الأعذار لتعاشر رجالاً آخرين ... بل إنها سوف تكره كل ما يسعده، ويدخل السرور على قلبه.

لكنى أعتقد أن المرأة يمكن أن تحقق الهرمونيا إذا امتلأت بالحكمة، وأظهرت ضبط النفس، وذلك لن يفيد زوجها فحسب، بل أطفالها أيضاً أو عبيدها، وأقاربها، والبيت بأسره بما فى ذلك الأصدقاء والضيوف – وببساطة سوف تحافظ على بيتها، فلا تسمع ولا تقول إلا ما هو عدل ومنصف. وأن تطيع زوجها فى حياتهما المشتركة، وتمتدح من الأقارب والأصدقاء من يمتدحهم هو، وتفكر فى الأشياء حلوها

ومرها على نحو ما يفكر – وإلا فسوف تصبح ناشذاً فى علاقتها بالكل...».

ونحن فى هذا النص نجد أن بركتيوني – مثل ثيانو الثانية وفنتس الاسبرطية – تتخذ – فى النظرية الأخلاقية – منحىً مختلفاً عن الفلاسفة الرجال، فهى لا تهتم بالنظريات المثالية، ولا تفحص ما الذى ينبغى أن يكون عليه المجتمع، بل إننا نجد الفلسفة الأخلاقية عندهامغروزة فى البرجماتية، فهى تسلم أن المجتمع قائم على نحو ما هو عليه، وبالتالى تبحث فى الطريقة التى تستطيع بها المرأة أن تحقق

مبدأ الهرمونيا.

٣ – برجماتية الأخلاق ... والزوجة المخلصة:

لقد طبقت بركتيونى برجماتيتها الأخلاقية على الخيانة الزوجية بالنسبة للنساء، فهى مثل الفيلسوف الواقعى الذى يذهب إلى أن مفتاح التشريع هو ما تفعله المحاكم بالفعل، فإن بركتيونى تشير إلى الأحكام التى يصدرها المجتمع فعلا بوصفها قواعد لابد أن تعيش المرأة الفاضلة طبقاً لها،بالغاً ما بلغت نتائجها التى تعارض تحرر المرأة. فنحن نجد أنها نتجت من مقدمة فلسفية تقول بأنه يجب تطبيق مبدأ الهرمونيا المعيارى على ظروف الحياة البشرية. وعلى الرغم من أن آراءها (وكذلك النساء الفيثاغوريات الآخريات) تعرض دور المرأة على نحوٍ يرفضه معظم المفكرين المعاصرين، فلابد أن نفهم أن نظرتها هى استجابة برجماتية لمشكلة المسؤلية الأخلاقية فى مواجهة الوضع القائم وما فيه من تجاوزات.

٤ – الجمال الفيزيقى والفساد الأخلاقى للمرأة:

لاشك أن فى آراء بركتيونى عن المرأة نغمة واضحة تساير أوضاع المرأة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت، بمعنى أن تكون تابعة للرجل تماماً ومخلصة له، متبنية آراءه عن العلاقات الاجتماعية بحلوها ومرها. ولهذا نراهاتحذر المرأة من أن الإفراط فى العناية بجمالها الفيزيقى – أو جمال الجسد – قد يُسهم فى الفساد الأخلاقى عندالنساء؛

ذلك لأن الجمال الحقيقى ينبع من الحكمة، لا من الزينة أو الملابس أو المجوهرات، إذ تقف البساطة فى معارضة الغرور، والعناية بالمظهر، واللياقة فى مقابل الإفراط فى المأكل والملبس. وربما استنتج القارئ من آراء بركتيونى أنها كانت تملك العديد من الجوارى والخدم. والواقع أن النص بأسره يحمل لهجة مألوفة تماماً لمعايير الحياة التى كانت قائمة فى ذلك الوقت. ومن ثم كان وقوع المرأة فى شباك المظاهر هى الخطوة الأولى نحو الخطيئة، ونحو ارتكاب كل رذيلة. ولهذا كان الاعتدال أو ضبط النفس هما الفضائل التى تسعى إلى تطوير جميع الفضائل الأخرى، وعدم الاعتدال هو الرذيلة التى تفتح الباب – على مصراعيه – أمام جميع الرذائل الأخرى.

٥ – المثالية فى مقابل البرجماتية [١]:

لقد كان هدف بركتيونى – فى الواقع – كما تكشف عنه الشذرات المتبقية من كتابها هو أن تحدد المطلوب من المرأة فى المجتمع القائم بالفعل، لكى يمتدح الناس أخلاقياتها. ولم تستهدف أبداً الكشف عن الدور الذى يمكن أن تقوم به النساء فى مجتمع مثالى، أو افتراضى، أو حتى يختلف اختلافاً واسعاً عن المجتمع الموجود فعلاً. وإنْ كانت قد ذكرت فى إشارة عابرة أن الأوضاع يمكن أن تكون مختلفة، فالخيانة

---

١ – هذا التعليق كتبته فيكي لين هاربر Vicki Lynn Harper مترجمة الشذرات المتبقية من كتاب بركتيوني «هارمونيا النساء». راجع مثلاً كتاب «ماري إلين ويث» «تاريخ الفلاسفة من النساء»، المجلد الأول ص ٣٧.

الزوجية يمكن أن تغفر بالنسبة للرجل، لكنها لا يمكن أن تغفر للمرأة أبداً. وها هنا نرى بركتيونى تعلق قائلة: «إنه من الضرورى للنساء أن تأخذ بهذا القانون دون أن تحسد الرجال على مالهم من حرية أعظم». ويتضمن هذا الرأى وصفاً حياً للمعاملات السيئة، التى كان على المرأة أن تتحملها. لكن من الواضح أيضاً أن المجتمع الذى كانت تعيش فيه المؤلفة كان يحد من الطرق التى تستطيع المرأة أن ترضى عن المبدأ المعيارى للهرمونيا. ولا تتأمل بركيتونى، نظرياً، ما يمكن أن يكون عليه حال المرأة فى مجتمع مفترض أو مثالى، أو حتى يختلف اختلافاً واسعاً عن المجتمع القائم، بل هى بالأحرى تنظر فى أوضاع المجتمع الحالى والطريقة التى تستطيع المرأة بواسطتها أن تحقق الانسجام أو الهرمونيا.

خاتمة:

عرضنا فى هذا الفصل لثلاث نساء هن «إيزارا اللوكانية»، و«فينتس الاسبرطية»، و«بركتيونى الثانية». ولاشك أن تحليل النصوص أو الشذرات المتبقية يكشف عن أمرين هامين:

١ – القدرة العقلية على التفلسف، ومحاولة لتطبيق مبدأ الإنسجام الفيثاغورى على الفرد، والأسرة، والمجتمع. كما يكشف لنا عن المرأة الفيثاغورية أو النموذج الحى «للمرأة الفاضلة» التى كانت تعد «المثل الأعلى» للمرأة فى العالم القديم، إذ كان يضرب بها المثل للزوجة المثالية. وهذا واضح من الشذرات التى تتحدث عن اهتمام المرأة بتربية الطفل، وعلاقتها بزوجها، وبالمجتمع بصفة عامة.

٢ – إن النساء الفلاسفة من الفيثاغورية كانوا أكثر واقعية، وأشد إلتصاقاً بمشكلات الحياة، فلا تجد عندهن التحليق النظرى فى عالم المثال، بل الوقوف على أرض الواقع الصلبة، والعناية بالأخلاق العملية مثل: الاعتدال عند المرأة، والقدرة على ضبط النفس، والعفة، والربط بين الجيل الحالى وبقية الأجيال المقبلة، والماضية... إلخ. حتى أننا نجد باحثة مثل مارى إلين ويث تعتبرها نزعة «برجماتية»، فى حين يعتبرها غيرها فلسفة واقعية.

بقى أن نقول أن هذه نماذج من النساء الفلاسفة فى الفيثاغورية،

وليس حصراً لكل النساء فى ذلك الوقت، وإلا ففى استطاعتنا أن نذكر «ثيانو الثانية Theano II» وهى غير «ثيانو الأولى» زوجة فيثاغورس، وقد عاشت فى زمن متأخر، ربما عام ٣٠٠ق.م (أى بعد ثيانو الأولى بثلاثة قرون) وقد بقى لنا منها عدة رسائل أرسلتها لأم شابة توجهها إلى تربية أطفالها فى غير ترف؛ حتى يشبوا على الفضيلة، والاعتدال عند البلوغ. ومن الطريف أن هناك رسالة ترشد فيها ثيانو الثانية امرأة شابة تدعى كاليستو Kallisto للطريقة التى تعامل بها عبيدها، وهى لا تزال فى بداية زواجها.

غير أن الأطرف من ذلك كله رسالتها إلى امرأة تدعى رودوبى Rhodope للطريقة التى تبدأها بقولها «من ثيانو إلى رودوبى الفيلسوفة..» وهى تسألها فيها عما إذا كانت غاضبة منها لأنها «لم ترسل لها كتاب أفلاطون المسمى بارميندس»!! ومن الخطاب نفهم أنه كانت هناك قراءة لمحاورات أفلاطون، بل «لمحاورة بارميندس»، التى تعتبر من أصعب محاوراته. وهذا يدل مرة أخرى على قدرة عقلية عند المرأة فى العالم القديم... فإذا ما أتيحت لها الفرصة فى العالم الحديث، فإنها سوف تشكل فلسفة كاملة على نحو ما سنعرف فى الكتاب القادم.

هناك أخيراً «بركتيونى الثانية Perictione II» التى ألفت كتاباً عنوانه «عن الحكمة .. sophias» والشذرة المتبقية لنا من هذا الكتاب تبدأ بقولها: «لقد ظهر الجنس البشرى إلى الوجود لكى يتأمل مبدأ طبيعة الكل. إن وظيفة الحكمة هى امتلاك هذا المبدأ، ولكى يتأمل الإنسان الغرض من وجود الأشياء. صحيح أن الهندسة والحساب، وبقية

العلوم تدرس الأشـيـاء المـوجـودة، لكن الحكمـة تدرس أجناس الأشـيـاء جمـيعاً، إذ تتعلق الحكمـة بكل ما هـو مـوجـود، تماماً كـما يتعلق البـصـر بكل مـا هـو مـرئى، والسـمع بكل مـا هـو مـسـمـوع ...إن مـن اخـتـصـاص الحكمـة أن ترى وتتأمل الخـصـائص التى تنسب إلى الأشـيـاء على نحـوٍ كلى، أما مـا يتـعلق ببعضـها فـقط فذلك ما تختص به العلوم الطبيـعية... فالحكمة تبـحث عن المبادئ الأساسـية لكل شـئ، فى الوقت الذى تبـحث فيـه العلوم الطبيـعية عـن مبادئ الأشـياء الطبـيعيـة. والهندسـة والحـسـاب والمـوسيـقى تختص بالكم وبالهـرمونيـا..[1]» وهـذه الفـقـرة المـوجـزة مليئة بالأفكار الفلسـفـيـة، بل وتفـرق بين الفلسـفـة وغـيـرها من العلوم الجزئية، وفقاً لمجال الدراسـة.

---

1 - Mary E. Waithe : Op. Cit. P.55-56.

٤

الفصل الرابع

«إسبازيا ... مَعلّمة الخطابة»

(تُبرهن المرأة على أمومتها بأن تُرضع صغارها..
كذلك تبرهن بلادنا على أمومتها بأن تنتج
لأبنائها القمح والشعير...!)



أرشميدس، القبيادس، أنكساجوراس، أفلاطون، إسباسيا، بركليس، سقراط
بولينوس، ايتكس، أنتستين، سوفكليس، فيداس
صالون إسباسيا

أولاً: حياتـــــها

لا نعرف شـيئاً عن ميـلادها، لكنها مـاتت على الأرجح عام ٤٠١ ق. م. وهى مواطنة من ملطية فى أيونيا، وصلت إلى أثينا حوالى عام ٤٥٠، وافتتحت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة – فيما يقول ول ديورانت – خروج النساء من عزلتهن، واختلاطهن بالرجال، وتربيتهن تربية عالية، والتحقت بمدرستها كثيرات من فتيات الطبقات العليا، وأرسل كثير من الأزواج زوجاتهم ليدرسن معها (١).

ويبدو أنها كانت تلقى محاضرات كان يستمع إليها الرجال أيضاً، ومن بينهم بركليز، وسقراط، وأكبر الظن أن انكساجوراس نفسه، ويوربيدس، والقبيادس، وفيدياس المثال كانوا يستمعون إليها، أو كانوا يحضرون صالونها الأدبى – كما تدل الصورة التى سوف نتحدث عنها بعد قليل. وحين التقى بركليز بإسبازيا كان قد مضى على زواجه زمن طويل، وكانت هى من ذلك الطراز الذى تحاول خلقه فى بلاد اليونان، طراز النساء اللاتى أصبح لهن – بعد قليل من الوقت – شأن كبير فى الحياة الأثينية(٢).

---

١ – ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السابع، ترجمة الأستاذ محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٨.

٢ – المرجع السابق ص ١٩.

ويروى «ديورانت» أن بركليز وجد الفرصة سانحة أمامه للارتباط بإسبازيا، «إذ أحبت زوجته رجلاً آخر، فلم يكن منه إلا أن عرض عليها أن تستمتع بحريتها نظير استمتاعه هو بحريته، فرضيت بذلك، وجاء بركليز بإسبازيا إلى بيته، غير أن القانون الذى سنّه بركليز نفسه عام ٤٥١ يحرم على الأثينى الزواج من أجنبية حتى ولو كانت يونانية[1].

ويروى المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة فى أثينا، حتى أن شعراء الكوميديا كانوا يسمونها «هيرا» أو الإلهة الملكة، زوجة رب الأرباب، على اعتبار أن بركليز هو زيوس نفسه[2]. وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويدهش منها ويقول إنها هى التى علمته فن البيان، ويعزو إليها الفضل فى إنشاء الخطبة الجنائزية التى ألقاها بركليز بعد الخسائر الأولى فى حرب البلبونيز. وما لبثت إسبازيا أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوجة، تشيع فيها آخر أنماط الحياة الاجتماعية، وعنها تأخذ نساء المدينة «مثل الحرية العقلية والأخلاقية التى يتطلعن لها، والتى تثير حماسهن»[3]. وكان ذلك كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين من الأثينيين، فأخذوا يندون ببركليز أولاً، ثم بأعضاء الصالون ثانياً، فاتهموا فيدياس باختلاس بعض ما عهد إليه

1- James Donaldson: Women: "Her Position and Her Infleunce in Ancient Greece and Rome", N. Y 1973 P.61.

٢– المرجع السابق نفسه. وانظر أيضاً د. إمام عبد الفتاح إمام «أفلاطون .. والمرأة» ص ٤٠ – ٤١ مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٣– ول ديورانت «قصة الحضارة» المجلد السابع ص ١٩.

من ذهب لصنع تمثال الإلهة أثينا من الذهب والعاج. ووجهوا إلى انكساجوراس تهمة تتعلق بالدين، ففر الفيلسوف خارج البلاد اتباعاً لمشورة بركليز. ووجهوا تهمة دينية أخرى إلى إسبازيا نفسها، مضمونها أنها لا تخضع لأوامر الدين، وأنها جهرت بعدم تعظيم آلهة اليونان، وقُدمت للمحاكمة ونظرت قضيتها أمام ألف وخمسمائة من القضاة، ودافع عنها بركليز دفاعاً مجيداً استخدم فيه كل ما وهب من بلاغة، وأصدرت المحكمة حكمها بالبراءة(١).

ولقد خلدتها الوثائق التاريخية فى عملين بارزين:

الأول : هو محاورة مينكسينوس .. Menexenus لأفلاطون، حيث يقول سقراط: «عندى معلمة ممتازة فى البيان (الخطابة). ولقد علمت كثيراً من الخطباء الممتازين، على رأسهم أفضل الخطباء جميعاً ألا وهو بركليز. ولقد سمعت بالأمس أنها دبجت خطاباً جنائزياً عن موتانا هو الذى ألقاه بركليز فى الحفل الجنائزى الشهير. ولقد حفظت منها هذا الخطاب عن ظهر قلب. وكانت هى على استعداد لأن تجلدنى بالسياط إنْ نسيت منه شيئاً»(٢).

الثانى : اللوحة الزيتية من الجص البارز الموجودة الآن على بوابة مكتبة جامعة أثينا، واللوحة تصورها فى صحبة سقراط، وفيدياس Phidias المثال وهو يمسك فى يده بالأزميل،

---

١ – ول ديورانت: المرجع السابق ص ٥. وانظر كتاب مارى إلين ويث: «تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ٧٥.

2 - Plato : Menexenus : 235 C - 136 B.

وسوفكليس، وبركليز قائد حرب البلبونيز، وأفلاطون عندما كان شاباً، وانتستين، وانكساجوراس، والقبيادس الوسيم... إلخ. وإن كان من الواضح أن بعض شخصيات هذه اللوحة لا يمكن لهم أن يجتمعوا معاً فى وقتٍ واحد. وبعضهم مثل أرشميدس لم يكن قط من بين أعضاء صالون إسبازيا الشهير.

ثانيًا : خطاب بركليز الجنائزى

فى عام ٤٣٢ق. م. اندلعت الحرب التى نطلق عليها اسم «حرب البلبونيز»، واستمرت مرحلتها الأولى عشر سنوات (٤٣٢ - ٤٤٢ق. م). وانقسم فيها العالم الإغريقى قسمين: أحدهما: «دورى» تتزعمه اسبرطه. والآخر: تغلب عليه الصفة الأيونية وتقوده أثينا. ولقد قاد بركليز هذه الحرب، ووضع خططها معتمداً على قوة أثينا البحرية، وعلى التجمع خلف «الأسوار الطويلة»(١).

وبعد مرور عام على اندلاع الحرب اجتمع الأثينيون حسب عادتهم، خارج أسوار المدينة؛ ليستمعوا إلى خطاب جنائزى (مرثية) يعد خصيصاً فى أمثال هذه المناسبات للاحتفال بذكرى الشهداء الذين استشهدوا فى المعركة(٢).

---

١ - اقنع بركليز الجميعة الوطنية فى اثينا بصرف الأموال اللازمة لبناء اسوار لا يقل طولها عن ثمانية امتار سميت «بالأسوار الطويلة» تصل اثينا وبيريه. ونظرت اسبرطة إلى هذا العمل على انه عدائى، فسيرت جيشاً هزم الأثينيين عند تنجارا.. Tangara رغم ما أصاب الفريقين من خسائر فادحة. انظر.

- Thucydides: History of the Peloponnesian War, p. 98 Eng. Trans. By Rex Warner,1954. Penguin Classics.

٢ - قبل الاحتفال بثلاثة ايام يقيم الأثينيون - على نفقة الدولة- خيمة يضعون تحتها عظام الشهداء، وفى أثناء الجنازة توضع العظام فى توابيت مصنوعة من خشب السرو وتحمل على نعش، كما أنهم يحملون نعشاً فارغاً تغطيه سجف ويرمز إلى القتلى من الجنود الذين لم يعثر على جثتهم بعد المعركة. ويسير فى موكب الجنازة من يشاء من الناس سواء أكان مواطناً أم أجنبياً يعيش=

وكان بركليز هو الذى اختارته أثينا، فصعد منبراً عالياً أُعدَّ خصيصاً كى يسمعه أكبر عدد ممكن من الناس الواقفين بعيداً عن المنبر وقال:

«إنَّ معظم الذين تكلموا فى الماضى فى مثل هذه المناسبة أثنوا ثناء عاطراً على هذه السنة المتبعة فى الاحتفال بدفن الشهداء، على اعتبار أن هذا التكريم للشهداء الذين سقطوا فى ساحة المعركة واجب مقدس. لكن لستُ أوافق على ذلك؛ فأولئك الذين برهنوا على بسالتهم بالفعل، يكفيهم فخراً فى اعتقادى أن نعلن عن بسالتهم بالفعل أيضاً، كما شاهدتهم فى هذا الاحتفال الجنائزى الذى نظمته الدولة. وهكذا لا يكون تكريمهم وقفاً على فصاحة الخطيب أو عدم فصاحته... سأقول كلمة عن أجدادنا، إذ من المناسب ونحن نقيم مأتماً للشهداء أن نكرم ذكرى السلف. فلم تخل هذه الأرض يوماً من الأبطال الذين استطاعوا بشجاعتهم أن يورثوها لأبنائهم جيلا بعد جيل... وإنْ كنت لن أدبج خطاباً عن أشياء تعرفونها...»[1] ثم ترك بركليز شهداء المعركة

= بينهم. ويوجد القبر الرسمى فى أجمل بقعة خارج الأسوار، وفيه تدفن عظام شهداء الحرب. وعندما يتم دفن بقايا الموتى فى الأرض يقوم رجل مرموق معظم فى أعين الناس تنتخبه المدينة ليلقى خطبة يؤبن فيها الشهداء، وبعد ذلك يتفرق الجمهور. وقد اختارت أثينا «بركليز» ليكون خطيب الاحتفال بذكرى الشهداء الأول الذين وقفوا فى ساحة المعركة. – راجع فى ذلك تشارلز ألكسندر روبنصن (الابن). «أثينا فى عهد بركليس» ترجمة الدكتور أنيس فريحة مكتبة لبنان عام ١٩٦٦، ص ٧٢ – ٧٣.

1 - Thucydides: History of the Peloponnesian War p.144

وذكـرى الأسـلاف، وراح يعـدد مناقب الـمـواطن الأثيـنى، ونظام حكمـه بشكل عام. قال:

«...إننى أقـول إنّ نظام الـحكم عندنا ليس نسـخـة من المـؤسـسـات السـيـاسـيـة عند جـيـراننا. فنحن لا نقـلـد أحـداً، بل إننا مـثـال يحـتذى. ودستورنا هـو الديمقـراطية، لأن نظام الـحكم ليس فى أيدى القلة، بل فى يد الشـعب كله. وإذا سـأل سـائل عن الطريقـة التى تحـسـم بها المنازعـات الشـخـصـية، لـكان من جـوابنا أن كـل مـواطن يتـسـاوى مع غـيـره أمـام القـانون. وإذا سـأل من جـديد عن الطريقـة التى يعين بهـا شـخص مـا فى منصب رفـيع دون غيـره، ولاسـيـما فى مـراكـز المسـئولية العامـة، لكان جوابنا: إن مـا يوضـع فى الاعتبار ليس هـو مكـانة الطبقة التى ينتمى إليـها ذلك الشـخـص، بل القـدرات الفـعلية التى يملـكهـا. ولن تجـد فـرداً يقف بعيـداً عن الأضـواء فى خـدمة الدولة لأنه فقـير، فـالحياة السـيـاسـية عندنا حـرة ومفـتـوحـة، وليسـت احـتكاراً أو وقـفاً على فـئـة من الناس. ونحـن لا نتـدخل فى حـياة جـيرانـنا، ولا نغـضـب منـهم إذا ما اسـتـمتـعوا بـحـيـاتهم بالطريقة التى يرتـضـونها لأنفسـهم. ولسنا نزدرى الرجل الذى لا يروق لنا طالـمـا كـان رجـلا لا ضـــرر منه[1]. ونحن فى حـيـاتنا الـخـاصـة تغلب علينا روح الـحـرية والتـسـامح، أما فى المـسـائل العـامة فـإننا نحـافظ على احترام القانون».

«ونحـن نطيع أولئك الـذين وضـعـناهم فى مراكـز السلطة كما نطيع القوانين، ولاسيما تلك القوانين التى تحمى المضطهدين والمظلومين.

---

1 - Ibidp.145

والقوانين غير المكتوبة التى يعد انتهاكها عاراً على المواطن».

«وهناك خاصية أخرى: إننا عندما ننتهى من أعمالنا نكون فى وضع يسمح لنا بالاستمتاع بجميع أنواع الترويح عن أنفسنا، فعندنا تنافس فى الألعاب الرياضية والأعياد المنتظمة التى نقدم فيها القرابين طوال العام، كما أننا نجد الجمال فى بيوتنا، والمذاق الجيد الذى يبهجنا كل يوم ويبعد عناالملل والسأم. وبسبب عظمة مدينتنا ترد إلى أسواقنا ثمار الأرض من كل فج، ومن حقنا – وذلك أمر طبيعى – أن نستمتع بمنتجات البلدان الأخرى كما نستمتع بمنتجاتنا المحلية سواء بسواء».

«إننا نمجد الموهبة أياً كان مجالها؛ لأن التفوق الممتاز هو فى حد ذاته، جدير عندنا بالتمجيد، إننا نحب الجمال فى غير إسراف، ونحب الحكمة – أى نتفلسف – فى غير ضعف أو تخنث، ودون أن تفقدنا شهامة الرجال. إن أحداً منا لا يستسلم لأحد فى أمر يمس استقلاله الروحى وإبداعه المثمر، وإننا لنعتمد على أنفسنا اعتماداً كاملاً».

«أما المال والثراء ننفقهما فى الوجوه الصحيحة، ولا نستخدمهما للمباهاة أو الادعاء الفارغ، ولا نرى عيباً فى الاعتراف بوجود الفقر بين ظهرانينا،إنما العيب الحقيقى هو التقاعس عن محاربة الفقر. والمواطن الأثينى لا يغفل أمر بلاده لأنه يهتم بشئونه الخاصة، بل إن الذين ينخرطون منا فى التجارة تجدهم على علم جيد بشئون بلادهم السياسية، وتلك خاصية أساسية من خواصنا. إننا لا نقول عن الرجل الذى لا يهتم بأمور السياسة إنه يهتم بأموره الخاصة بل إننا نقول إنه لا يهتم بشئ على الإطلاق. إننا نحن الأثينيين نتخذ قراراتنا ونضع خططنا بعد إخضاعها للمناقشات المناسبة؛ لأننا لا نعتقد أن ثمة تناقضاً بين

الأقوال والأفعال، بل إن أسوأ الأمور هو الاندفاع إلى الفعل قبل مناقشة النتائج مناقشة جيدة...[1].

«لابد لى أن أقول – فى كلمة واحدة – إن أثينا هى معلمة بلاد اليونان ومدرستها،وإننى لأعلن أن كل فرد من مواطنينا، قادر فى كل مناحى الحياة أن يظهر على أنه سيد نفسه أو مالك شخصه، وأهل لمعالجة مختلف الأمور والشئون الطارئة فى يسر ولباقة. وليس قولى هذا عبارة تمليها المناسبة، ولا هو قول فيه مداهنة، بل إننى أقول الحق وأشير إلى الواقع، والدليل على صدق قولى هو سمو المكانة التى بلغتها الدولة بسبب هذه الفضائل والسجايا التى جئت على ذكرها...».

«لقد أطلت الحديث عن عظمة أثينا؛ لأننى أود أولاً أن أؤكد لكم أن ما نحارب من أجله أثمن جداً مما يحارب من أجله الآخرون؛ ولأبرهن لكم ثانيا لماذا استحق هؤلاء الشهداء مثل هذا التكريم، ومثل هذا الاحتفال الذى أقمناه ... إننى بتقريظى لهذه المدينة، والحديث عن فضائلها فإننى أكون قد نوهت بتضحية هؤلاء الشهداء، وأمثالهم من الرجال الذين أقامت المدينة على أساس فضائلهم عزها وسؤددها...»[2].

حاولنا أن نختصر – قدر المستطاع – هذا الخطاب الجنائزى الطويل الذى ألقاه بركليز فى حفل شهداء أثينا، الذين سقطوا فى أول عام من أعوام حرب البلبونيز العشر. ولعل أهم

1 - Thucydides : Ibid.-147-148

2 - Thucydides: Ibid. P.149.

عناصر الخطاب هى كما يلى:

١ - يبدأ بركليز بامتداح السنة المتبعة فى الاحتفال بتكريم الشهداء، لكنه يريد أن يكون فى الحفل تكريم للأجداد أيضاً، الذين لم يبخلوا يوماً على الوطن بحياتهم.

٢ - يقوم بركليز، فى الواقع بالتركيز أساساً على خصائص «الشخصية الأثينية» الحقة، فمعظم الخطاب ينصب على صفات المواطن الأثينى، من ناحية، ومناقب أثينا بصفة عامة، من ناحية أخرى.

٣ - بدأ يصف نظام الحكم فى أثينا، وهو النظام الديمقراطى، الذى يفخر به المواطن الأثينى، ويعده نموذجاً تحتذيه الدول الأخرى. وهو يعنى حكم الشعب لا حكم طبقة ولا جماعة ولا فئة.

٤ - خصائص هذا النظام هى:

أ - كل الأفراد متساوون أمام القانون.

ب - جميع الفرص متاحة أمام الأفراد لاختيار صاحب الكفاءة للمناصب الشاغرة.

جـ - لا أهمية للطبقة التى ينتمى إليها الفرد، فليست هى التى تؤهله لشغل المناصب الرفيعة ذات المسؤلية.

د - لا أهمية للثروة، فلا يكون الفرد بعيداً عن الأضواء، أو محروماً من خدمة بلده بسبب فقره.

هـ - الحياة السياسية حرة ومفتوحة وليست احتكاراً لأحد.

و - لكل إنسان أن يستمتع بحياته التى يرتضيها لنفسه ما دامت لا تضر الآخرين.

ز - تغلب على المواطن الأثينى، فى حياته الخاصة، روح الحرية والتسامح، وفى المسائل العامة طاعة القانون.

٥ - يعود بركليز بعد ذلك إلى الحديث عن «المواطن الأثينى» الذى من خصائصه الاستمتاع والترويح عن النفس بعد عناء العمل.

٦ - المواطن الأثينى يمجد الموهبة ويحب الجمال فى غير إسراف، ويحب الحكمة دون أن تفقده شهامة الرجال.

٧ - المواطن الأثينى لا يستسلم لأحد فى أمر يمس استقلاله الروحى وإبداعه المثمر، وهو يعتمد على نفسه اعتماداً كاملاً.

٨ - المواطن الأثينى، حتى إذا انخرط فى أعمال تجارية، تراه مُلِمّاً إلماماً جيداً بشئون بلاده السياسية.

٩ - ثم يعود بركليز إلى التفاخر بأثينا معلمة اليونان ومدرستها، وأن ما تحارب من أجله أثينا - وهو الحرية - أثمن كثيراً مما يحارب الآخرون من أجله. ومن هنا جاء فضل الشهداء.

ونذكر هذه العناصر الأساسية فى خطاب بركليز؛ لأننا سوف نجدها تتردد فى خطاب إسبازيا الذى يرويه سقراط فى «محاورة مينكسيونس» لأفلاطون...

ثالثاً: إسبازيا ... ومحاورة «مينكسيوس»

تدور المحاورة حول «الخطاب الجنائزى» الذى سمعه سقراط من إسبازيا رفيقة «بركليز بن إكزانثيبس... XANTHIPUS»، وهى التى علمته فن الخطابة، كما علمت كثيرين غيره. والخطاب تأبين لشهداء سقطوا فى معركة. ولم يهتم أفلاطون بتحديد هوية المعركة ولا نوع الحرب(١).

وتبدأ المحاورة بمقدمة تنطوى على سخرية من نفاق الخطباء حتى ليخيل إلى المرء أن «التملق والنفاق والمداهنة» هى موضوع محاورة مينكسينوس، وإن كان ذلك لا يظهر إلا فى المقدمة فحسب حيث يقول سقراط ساخراً: «ربما كان من الأفضل للمرء أن يموت فى المعركة؛ لأنه فى هذه الحالة سوف يحظى بجنازة رائعة حتى ولو كان فقيراً، وسوف يمتدحه الناس بكلمات قد لا يستحقها، ويعلن الحكم عن فضائله، سواء أكانت لديه أم لم تكن، حتى يمسى المرء مسحوراً بهذه الكلمات، وقد يتصور نفسه وقد أصبح إنساناً عظيماً، بل أعظم وأسمى وأنبل مما كان يظن! ويستمر معه هذا الشعور بالكرامة ثلاثة أيام (هى مدة الاحتفالات) وقد لا يفيق منه إلا فى اليوم الرابع أو الخامس..»(٢).

---

1 - The Dialogues of Plato, Vol. I Trans. by R. E. Allen, Yale University Press, 1984, P.319.

٢ – افلاطون : محاورة مينكسينوس ٢٣٥ – أ و ب . وانظر أيضاً الشرح الذى قدّم به «ألن» لترجمته لهذه المحاورة فى كتاب «محاورات أفلاطون» السالف الذكر ص ٣١٩.

ويكون تعليق مينكسينوس: «إنك تسخر، على الدوام، من الخطباء ياسقراط، وعلى أية حال، فقد اختاروا اليوم خطيباً لهذه المناسبة (وهو بركليز) ولا أظن أن مهمته ستكون سهلة؛ لأن عليه - فيما أظن - أن يرتجل الخطاب...!».

ويرد سقراط: إنه لا خوف على بركليز فقد علمته معلمة البيان «إسبازيا» فن الخطابة، وقد أعدت بالفعل الخطاب الجنائزى الذى سوف يلقيه قائد أثينا[1]. ولقد سمعته منها بنفسى، بل إننى حفظته عن ظهر قلب، وكانت هى على استعداد لأن تجلدنى بالسوط إن نسيت منه شيئاً!»[2].

1 - Plato: Menexenus, 236. B.

2 - Ibid.230.C.

رابعًا : خطاب «إسبازيا» ... الجنائزى

بعد ذلك يبدأ سقراط فى رواية خطاب إسبازيا الجنائزى تحت إلحاح مينكسينوس، فيقول إنها بدأت الخطاب على نحو ما فعل بركليز فى الخطاب الذى أسلفنا ذكره، فى امتداح هذه السنة الحميدة التى جرت عليها اثينا فى تأبين شهدائها «إذ من الضرورى أن يكون هناك تأبين للشهداء، وخطاب يمتدح الأموات الأبطال، وينصح الأحياء خاصة الأخوة والأبناء أن يقلدوا ذويهم من الشهداء..»[1] . هكذا بدأت «إسبازيا» خطابها لسقراط، ثم استطردت متساءلة: لكن أى نحوٍ يمكن أن يكون هذا الخطاب؟ وكيف نبدأ مديح هؤلاء الأبطال...؟ يبدو لى أنه من المناسب لطبيعة الأمور أن يمتدحوا لخيريتهم، وهم أخيار بالفعل؛ لأنهم انحدروا من أخيار، فتمتدح إذن، نبالة المحتد، وجودة التربية...»[2].

١ – نبالة المحتد:

من حيث ولادة هؤلاء الأبطال، فإن أسلافهم لم يكونوا أجانب، بل كانوا أبناء هذه الأرض الطيبة، عاشوا عليها، وحملتهم وأرضعتهم، وتلقفتهم برعايتها، وكانت أمهم الحقيقة التى يستريحون فى حضنها؛

---

1 - Plato: Menexenus, 236 . D.

2 - Ibid.

ولهذا كان من المناسب أن نبدأ بتمجيد الأرض التى هى الأم، وتلك هى الطريقةالمناسبة لتمجيد هؤلاء الأبناء، وهى بلاد جديرة فعلاً بالثناء، وذلك بسبب مناقب أثينا التى لا نمتدحها نحن فحسب، بل يمتدحها الجنس البشرى كله، بل إنها لعزيزة حتى على الآلهة(١). فهى كالأم الحانية على أبنائها. فكما أن المرأة تبرهن على أمومتهابأن ترضع صغارها (وليست أما من لا تكون لديها هذا النبع) كذلك تبرهن بلادناعلى أمومتها، بأن تنتج لأبنائها القمح والشعير، الذى يحتاج إليه الإنسان فى طعامه. وتلك علامة على الأمومة أصدق من أمومة المرأة؛ لأن المرأة فى حملها وولادتها تحاكى الأرض وليست الأرض التى تقلد المرأة...»(٢).

٢ – جودة التربية:

إن بلادنا التى كانت باستمرار حرة وطاهرة، احتضنت أبناءها وربتهم إلى أن أصبحوا رجالا، ثم منحتهم آلهة ليكونوا لهم حكماء ومعلمين، وهذه الآلهة هى التى نظمت حياتنا، وعلمتنا، وأرشدتنا فى فنون حياتنا اليومية.

---

١ – هنا نجد إشارة إلي أسطورة النزاع بين الآلهة – ولاسيما الإله بوزيدون إله البحر والإلهة أثينا إلهة الحكمة – علي هذه المدينة. وتضيف إسبازيا «كيف يمكن للمدينة (أو الدولة) التى يتنازع حولها الإلهة ألا يمتدحها الجنس البشرى باكمله..؟» محاورة مينكسينوس ٢٣٧ – جـ.

2 - Plato: Menexenus: 237 D , 238 , B.

ولد أجدادنا وتعلموا، وشكلوا حكومة لأنفسهم: حكومة حكيمة، وعاقلة للرجال الأخيار. وسمى هذا الشكل من أشكال الحكومة بالحكومة الديمقراطية – لبعض الوقت – وإن كان شكل حكومتنا هو «الأرستقراطية»، لأنه فى الواقع، أفضل نظم الحكم...»(١).

لقد كان الملوك فى تاريخناالقديم يرثون العرش، ثم أصبحوا يعينون بالانتخاب بعد ذلك. وهكذا أصبحت السلطة بأيدى الشعب على وجه الإجمال، فالشعب هو الذى يعين الأفراد الأكفاء لشغل المناصب الشاغرة، كما أنه يعطى الحكم لمن هو أفضل دون أن يستبعد أحد بسبب مولده أو لضعف فى بدنه، أو لفقره، أو ما شابه ذلك من أمور ثانوية. فليس ثمة سوى معيار واحد لتولى الحكم والسلطة، الا وهو: الفضيلة والحكمة(٢).

«لقد كان شعبنا – على الدوام – يقدر الأعمال الجميلة، العامة منها والخاصة على حدٍ سواء، ويجد أنه من الضرورى أن يقاتل من أجل الحرية: فمن أجلها قاتل الاسبرطيون، كما قاتل البرابرة على حدٍ سواء.

«ولهذا فإننى أؤكد أن أولئك الرجال ليسوا آباءنا فحسب، بل هم آباء الحرية، وآباء حريتنا، وحريات الذين يقطنون فى هذه القارة كلها.

---

١ – هذا هو رأى افلاطون الذى كان يعتقد ان الديمقراطية مرادفة للفوضى ولحكم الغوغاء. أما النظام الأمثل للحكم، فى نظره، فهو النظام الأرستقراطى. قارن د. إمام عبد الفتاح إمام «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى» ص ١٠١ وما بعدها.

٢ – افلاطون : محاورة مينكسينوس ٢٣٨ جـ.

لقد نظر الأثينيون جميعاً إلى ما فعله الأثينيون، وأصبحوا تلاميذاً لأبطال الماراثون Marathon(١)، وهكذا أصبح الجنود الأثينيون فى سهل الماراثون، كالبحارة فى سلاميس Salamis(٢)، أساتذة فى الفنون العسكرية لهيلاس كلها»(٣).

وما يمكن أن يعيبه شخص ما – فى رأى إسبازيا – على مدينتنا، أو يوجه إليها الاتهام – شئ واحد فقط، أو اتهام واحد فحسب هو: أنها كانت رحيمة وشفوقة أكثر مما ينبغى، وأنها تقف بجوار الضعيف، وتساعده أكثر مما ينبغى، وأنها لا تستطيع أن تنفض يدها عن مساعدة من أضرها حينما تراه مستعبدا، بل وأن تخفف عنه آلامه. ولقد ساعدت أثينا اليونانيين وحررتهم من العبودية، ولقد ظلوا أحراراً بعد ذلك إلى أن قاموا باستعباد أنفسهم(٤).

تلك هى الخطوط الرئيسية فى الخطاب الجنائزى الذى ذكره

---

١ –الماراثون Marathon : سهل فى الجزء الشرقى من وسط بلاد اليونان على بعد ٣٩كم إلى الشمال الشرقى من أثينا. فيه هزم الأثينيون (سبتمبر ٤٩٠ق. م) القوات الغازية، وأرسلوا أحد الجنود يعدو إلى أثينا ليبلغهم نبأ النصر، وظل يجرى إلى أن وصل وأبلغهم، ثم سقط ميتاً! وكانوا يحتفلون كل عام «بسباق الجرى» باسم سباق الماراثون تخليداً لذكرى ذلك الجندى البطل!.

٢ – سلاميس Salamis :جزيرة تقع على خليج سارونيك إلى الغرب من العاصمة أثينا. دارت على مقربة منها عام ٤٨٠ق. م. – المعركة الحاسمة التى أعلنت انتصار اليونان نهائياً على الفرس.

٣ – أفلاطون : محاورة مينكسينوس ٢٤١ – (أ) و (ب).

٤ – أفلاطون : محاورة مينكسينوس ٢٤٥ . ١.

سقراط فى «محاورة مينكسينوس» على لسان «إسبازيا»، ومن الواضح أن النظرة العجلى تلاحظ التشابه القوى بين هذا الخطاب وبين خطاب بركليز الذى سبق لنا أن أوردنا أهم عناصره. مما يؤكد قول سقراط بأن إسبازيا كانت معلمة فن الخطابة لبركليز ولغيره من خطباء أثينا.

خامسًا: حجتان ضد «مينكسينوس»

لكن هناك مشكلتين يثيرهما بعض الباحثين على النحو التالى:

المشكلة الأولى: إن هذا الخطاب الذى أورده سقراط على لسان إسبازيا ليست له أهمية فلسفية؛ فهو مجرد ضرب من البلاغة، أو البيان، أو الفصاحة اللغوية دون أن ينطوى على أية أفكار فلسفية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ.

المشكلة الثانية: أنه على الرغم من أن أفلاطون هو الذى كتب محاورة مينكسينوس، وعلى الرغم من أن وجهة النظر التى نسبها إلى إسبازيا صحيح، وهى خاصة بها فعلاً، فإن أفلاطون كان يسخر من الخطابة والخطباء، حتى أن المحاورة بأسرها يمكن أن تعد - فى نظرالبعض - قطعة من أدب «السخرية والتهكم»، ومن ثم فإن أفلاطون لم يكن جاداً عندما كتب هذه المحاورة!.

أما بالنسبة للمشكلة الأولى فإن أصحاب الرأى الذى يقول إن الخطاب ليست له أهمية فلسفية - مطالبون بالرد على الأسئلة الآتية:-

١ - كيف يتفق ذلك مع القول بأن أفلاطون هو صاحب المحاورة؟ وبعبارة أخرى: كيف نفسر كتابة أفلاطون لهذه المحاورة رغم طابعها اللافلسفى الظاهر؟ كيف يمكن أن نقول إن هذه المحاورة هى العمل الوحيد «اللافلسفى» لأفلاطون؟ وكيف تستقيم مع بقية محاوراته...؟

٢ - ومن ناحية أخرى ألم يكن «فن الخطابة» فرعاً من الفلسفة؟

ألم يفرق أفلاطون نفسه فى محاورة جورجياس بين نوعين من الخطابة أحدهما يعتمد على النفاق والتملق وهو نوع ردئ ومرفوض، والآخر وحده جميل ومطلوب وهو الذى يعمل على جعل نفوس المواطنين أفضل..(١).

٣ – ألم يكتب أرسطو كتاباً مستقلاً عن الخطابة، ويشير فيه بالفعل إلى «الخطاب الجنائزى» الذى ذكره سقراط على لسان إسبازيا ليقول بعد ذلك – فى لمحة ذكية بارعة –: «ليس من الصعب أن نمتدح الأثينيين ونحن بين ظهرانيهم .. لكن المشكلة حقاً أن نمتدح الأثينى فى اسبرطة»(٢). عدوة أثينا اللدود! ومن المحتمل أن أرسطو كان يقرر صدق محاورة مينكسينوس، كما أنه كان يتابع تراث الأكاديمية المبكر، وهو يزودنا بمفتاح لتفسير المحاورة...(٣).

٤ – ألم تكن الخطابة من بين المجموعة الثلاثية ... Trivium – طوال العصور الوسطى – التى كانت تضم فقه اللغة، والخطابة، والمنطق، وكانت تسمى «بالعلوم العقلية»؛ لأنها تتناول أفعال العقل – ما يدل على الوضع «العقلى» – ومن ثم الفلسفى – للخطابة عند اليونان وفى العصور الوسطى؟!

---

1 - Plato : Gorgias 503 , A.

٢ – أرسطو «الخطابة» ترجمة د. عبد الرحمن بدوى – دار الشئون الثقافية العامة – بغداد عام ١٩٨٦ ص ٦٧.

3- The Dialogues of Plato Trans. by R. E. Allen: P.319.

والمشكلة الثانية : هى أن أفلاطون لم يكن جاداً، بل إن محاورة مينكسينوس ليست سوى قطعة من أدب السخرية والتهكم. فالخطابة فى عصر أفلاطون بصفة خاصة كانت جزءاً من الفلسفة السوفسطائية. ولم تكن شخصية إسبازيا شخصية أدبية أو خرافية خلقها أفلاطون، بل إن العكس هو الصحيح، فقد تمتعت هذه المرأة بشهرة عريضة؛ ولهذا فإن الأدنى إلى الصواب أن نقول إن أفلاطون كان يضع فى ذهنه إسبازيا معلمة الخطابة السوفسطائية، وإنها ساهمت مع غيرها فى نمو الحركة السوفسطائية، كما أسهمت إسهامات ملحوظة فى تطور فن الخطابة، وإنها كانت رسولاً لهذا الفكر الجديد الذى كان يعتقد أفلاطون أن له نتائج سلبية على أثينا...».

ومعنى ذلك أن «محاورة مينكسينوس» كُتبت لنقد إسبازيا السوفسطائية، وللسخرية مما تقول، والتهكم من فن الخطابة حتى مع اعتراف أفلاطون أن هذا الفن فرع من الفلسفة، ومع تسليمه بأن إسبازيا فيلسوفة، لكنها فيلسوفة سوفسطائية تستحق التهكم والنقد كغيرها من السوفسطائيين فى عصره. وعلى الرغم من أننا فى هذه الحالة نكون قد وصلنا إلى النتيجة التى نريد إثباتها، وهى قدرة «إسبازيا» – والمرأة بصفة عامة – على التفلسف حتى بغض النظر عن نوع هذه الفلسفة، فإننا نود أن نقف قليلاً عند «النتائج السلبية» التى كانت فى ذهن أفلاطون.

سادساً: إسبازيا ...
وحركة الخطابة السوفسطائية

ما هي النتائج السلبية التي كانت في ذهن أفلاطون عندما أراد نقد حركة الخطابة السوفسطائية ... ؟!

لا شك أن أفلاطون كان في ذهنه، عندما كتب محاورة «مينكسينوس» – الانتقادات التي سوف يوجهها بعد ذلك إلى النظام الديمقراطي في محاورة «الجمهورية». ولقد سبق أن رأيناه يجعل النظام الأرستقراطي هو الأفضل – حتى على لسان إسبازيا زوجة بركليز رائد الديمقراطية الأثينية. ولا شك أيضاً أن كراهية أفلاطون للديمقراطية جاءت في أنه تصورها ضرباً من الفوضى يكون فيه الإنسان حراً لا يقيده قيد، ولا يخضع لسيد ... إلخ[1]. ففي الكتاب الثامن من «الجمهورية» يعتقد أن سمة الديمقراطية الإفراط في كل شئ: في الحرية الفاسدة، والمساواة الفاسدة: «إذ يغدو العبيد الذين يشترون بالمال متساويين في حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم»[2]. وفي محاورة القوانين يقول: «إن الحرية التامة والمطلقة من قيود جميع أنواع السلطة هي شئ أسوأ بكثير من الخضوع لحاكم محدود

---

١ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» ص ١٠٦.

٢ – أفلاطون: محاورة «الجمهورية» ٥٦٣ (قارن ترجمة د. فؤاد زكريا ص ٤٨٤–٤٨٥).

القوى...[1]». فليس ثمة تحرر كامل من كل نوع من أنواع السلطة.

لكن ما علاقة ذلك بإسبازيا؟ وماذا نقول فى أمر إسبازيا معلمة فن الخطابة..؟!.

نقول إن أفلاطون تعلم منها الكثير من «فن الخطابة» على نحو ما تعلم سقراط. ولكن ربما كان ما تعلمه أفلاطون هو الأضرار أو الآثار السيئة التى ينطوى عليها فن الخطابة كفرع من أفرع الفلسفة؛ ذلك لأن الفلسفة عنده نظام من المعرفة يسعى للكشف عن الحقيقة. كما يسعى لتنوير أذهان الناس، لكن الفلسفة، من ناحية أخرى، لديهاالقدرة على إقناع الناس بأشياء غير صحيحة، أو قل إن لديها القدرة على طمس الحقيقة ولاسيما إذا لم يكن المستمع على قدركاف من الذكاء – مثل سقراط أو أفلاطون – يسكنه من اكتشاف ذلك، ومن هنا تأتى أهمية نقد «الخطاب الجنائزى» الذى حفظه سقراط عن إسبازيا، وما فيه من ادعاءات وتزييف للتاريخ، وألوان من البلاغة تدغدغ مشاعر الناس بغير حق. ولعل هذا هو ما جعل أفلاطون يبدأ المحاورة بافتتاحية تنطوى على سخرية من نفاق الخطباء الذين يمتدحون المواطن بخلال ليست فيه حتى «يُمسى مسحوراً بهذه الكلمات» وقد يتصور نفسه وقد أصبح إنساناً عظيماً!

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إنّ ما حفظه سقراط هو «فن الخطابة السوفسطائية» وذلك يعنى قوة التأثير فى الجماهير، والحديث فى أمور من شأنها أن تجعل الشعب ينخدع فيظن فى نفسه شيئاً آخر

---

١ – أفلاطون : محاورة القوانين ٦٩٨ – أ.

غير ما يعرف!

إننا إذا ما وضعنا فى أذهاننا صورة أثينا عام ٣٨٦ ق. م، فلا ينبغى علينا أن نقول إن هذا «التشوية للتاريخ» نابع من تعظيم الديمقراطية الأثينية؛ فقد أدان الأثينيون أنفسهم هذه الديمقراطية. غير أن الموضوع الأول الذى ينبغى إدانته – وهو المصدر الرئيسى للخاطبة – هو إسبازيا: هذه الأيونية «المستنيرة» التى كانت العضو النسائى الوحيد فى حلقة بركليز...[١]. على ما يقول أحد أنصار هذه الوجهة من النظر: إدموند بلودو Edmund Bloedow.

1 - Quoted by Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P.79.

الخاتمـــــة:

إننا إذا ما أخذنا بوجهة النظر التى تقول إن أفلاطون كتب محاورة «مينكسينوس» للسخرية والتهكم من إسبازيا، وما تمثله من فن الخطابة السوفسطائى – وهذا أمر جائز – فسوف يترتب على ذلك عدة أمور هامة على النحو التالى:

١ – سوف يعنى ذلك بوضوح أن إسبازيا كانت واحدة من المثقفين اللامعين، والمفكرين المؤثرين فى حياة أثينا، وأنها صاحبة عقل لماح فى الموضوعات السياسية التى تهم الشعب، فضلاً عن اهتمامها بفن الخطابة.

٢ – إن معنى ذلك أن نأخذ بجدية واقعة أنها تعاونت مع بركليز فى كتابة خطابه الجنائزى الشهير.

٣ – إن إسبازيا كانت فى ذلك الوقت فى مركز الحلقة الفلسفية السوفسطائية، وهى حلقة كرست نفسها لتحليل البيان وشرح وكتابة فن الخطابة.

٤ – معناه أيضاً أن أفلاطون نظر إليها على أنها مصدر تهديد، وليس تهديداً شخصياً، بل تهديد سياسى وعقلى فى الحياة الثقافية الأثينية.

٥ – يبدو أن أفلاطون اعتبرها ممثلة لسوء استخدام الفلسفة، بل وسوء استخدام الحكمة والحقيقة من خلال سيطرتها على البيان، وموهبتها فى فن الخطابة.

٦ – يبدو أن تهمة الإلحاد التى وجهت إليها، والتى حوكمت بسببها أمام ألف وخمسمائة من القضاة – كانت دليلاً آخر على أن الآخرين كانوا يعتبرونها أيضاً مصدر تهديد، يضاف إلى ذلك تخليد ذكراها فى لوحة الجص المرسومة على بوابة مكتبة الجامعة، والتى تدل على تقدير الأثينين لها كمفكرة أثينية فى دولة المدينة.

٥

الفصل الخامس

«ديوتيما ... مَعلّمة سقراط!»

(من أجل هذا، يا ديوتيما، سعيتُ إليكِ، فأنا فى حاجة إلى مُعلِّم، فخبرينى بالله عليكِ...)

سقراط: المأدبة ٣٠٧

أولاً : تمهيـــــــد

إسبـازيا – التى تحدثنا عنهـا فى الفصل السـابق – وديوتيما Dio-tima التى سنتـحدث عنها فى الفـصل الحالى، همـا المرأتان الوحـيدتان اللتـان ذكرتا على أنهـمـا فيلسـوفتـان فى المـحاورات السـقراطيـة. لكن – لسـوء الطالع – أثيـر حولهما غبار كثيف لإبعاد خـاصية التفلسـف عـنهما (وربمـا لتـأكـيـد النقص فى الـقـدرة الـعـقلية عند المـرأة بصـفـة عـامـة) – الأولى بســـبب دورها فـى تأليف «الـخطاب الجـنائزى» الذى دارت حـــوله مـحاورة «مـينكسـينوس» لأفـلاطـون، فقـد نظر إليـها على أنـها مـثل على التهكم السـقراطى، والمـزاج السـاخـر عند أفلاطون.

أما الثانيـة فقد قيل إنها مـجـرد شـخصية خرافـية ابتكرهـا أفلاطون بخـياله الأدبى، وعـرضـهـا فى مـحاورة «المـأدبة» على أنهـا هـى التى لقنت سقراط «فن الحب».

ومـن ناحـيـة أخـرى هـناك رواية تاريخـيـة تقـول إنهـا كـانت تعـمل كاهنـة «مانتينيا .. Mantinea»، وإنهـا عـاشـت حـوالى عـام ٤٠٠ ق. م. وإنهـــا زارت أثينا زمـن الطاعـون، وإن لـقـــاءها مـع ســقــراط تـمّ فى الأعـم الأغلب أثنـاء هـذه الزيارة، وهـناك شــواهـد من التـاريخ ومـن الآثار على أن «ديوتيما» شـخصية حقيقية وليسـت خـرافية كما يقول الفريق الأول.

وسـوف نبدأ الحديث عن مـحاورة «المأدبة» لأفلاطون.

ثانيًا: مأدبة «أجاثون»

أما المأدبة فهى حفل أقامه الشاعر التراچيدى أجاثون .. Aga-thon حوالى عام ٤١٦ ق. م، بمناسبة فوزه بالجائزة عن أول «مأساة» له، وقد أقامها فى اليوم التالى للاحتفال التقليدى مع الشعراء والممثلين(١). وهى لهذا السبب كثيراً ما تسمى «مأدبة أجاثون».

وبعد أن تناول الحاضرون الطعام اقترح «أريكسماخوس .. Eryximachus» أن يتحدثوا فى موضوع «الحب»، فوافق الجميع على اقتراحه، ودعوا «فايدروس .. Phaedrus» أن يبدأ الحديث فاستهل حديثه بأن وصف الحب بأنه إله عظيم موقر بين الآلهة والناس جميعاً، ولأسباب كثيرة.

ثم عقب «بوزنياس .. Pausanias» – وهو شاعر شديد التعلق بأجاثون فذهب – إلى أن الحب ذو طبائع مختلفة منها النبيل، ومنها الخسيس. وهو يرجع ذلك إلى «أن هناك شخصيتين لأفروديت: الأولى: أفروديت السماوية التى يرتبط بها الحب الرفيع النبيل. والثانية: أفروديت العامية الأرضية التى يرتبط بها الحب الوضيع والخسيس. فلو كان ثمة أفروديت واحدة لجاز أن يكون ثمة جنس واحد للحب..»(٢).

ثم تحدث «أريكسماخوس .. Eryximachus»، الطبيب، فوافق

---

١ – افلاطون : المأدبة ١٧٣ – أ.

٢ – المرجع نفسه ١٨٠ – د.

على أن وجود نوعين من الحب: النبيل السماوى، والخسيس الدنئ، مع بعض التعديلات، فهو يرتب فصول السنة بحيث يظهر تأثير الحب بنوعيه، فإذا تغلب الأول نما الإنسان والحيوان وازدهر الزرع والضَّرْع. وإذا ما سيطر الثانى عمَّ البلاء، وجاء دور القحط والجدب، وشاعت الأوبئة، وتفشت الأمراض(١).

ثم جاء دور الشاعرالكبير «أرستوفان Aristophanes» الذى ذهب إلى أن الآلهة فى البداية خلقت الرجل والمرأة موجوداً واحداً له من الأيدى أربع، ومن الأرجل كذلك. وله وجهان متشابهان، ورأس يدور فى جميع الاتجاهات، وله أربع آذان. وكان هذا هو المخلوق الغريب بالغ القوة، يجرى بسرعة رهيبة، ويمشى إلى الوراء وإلى الأمام كما يشاء... إلخ. باختصار: كان مخيفاً حتى ركبه الغرور، فحاول أن يرقى إلى السماء، فشطرته الآلهة شطرين حتى تضعف من قوته وتخفف من غروره. وعقب شطر الإنسان الأول شطرين إلى رجل وامرأة، أخذ كل شطر يبحث عن شطره الآخر، فإذا ما التقى به تعانقا بقوة، لكأنما يريدان أن يعودا كائناً واحداً كما كانا من قبل!

ثم تحدث الشاعر «أجاثون .. Agathon»، فرأى أن الحب أصغر الآلهة(٢)، وهو مرهف الحس، رقيق الشعور، لا يحتمل الشدة ولا يطيق

١- افلاطون : المادبة ١٨٨ - أ.

٢- يصورونه فى الأساطير اليونانية فى صورة غلام مجنح يحمل قوساً ونشاباً، او طفل عابث يسدد سهام الحب إلى الشباب والعذارى. وهو عند اليونان.. Eros ، وعند الرومان كيوبيد .. Cupid . د.إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٢٧٦ - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

المكروه. ولهذا نراه يحيا في أرواح الناس وقلوبهم. فإن وجد فيها غلظة نفر منها، وابتعد عنها؛ لأنه لا يطيب له العيش والمقام إلا حيث يجد اللين، والرقة، والدعة، والخضوع، كما أنه يتحلى بالعفة، وضبط النفس[1].

١- أفلاطون : المأدبة ١٩٥ – ١٩٦.

ثالثاً: ديوتيما ... Diotima

عندما نصل إلى حديث سقراط عن «ديوتيما» فإننا نصل فى الواقع إلى أصعب أجزاء «محاورة المأدبة» – فيما يقول ستانلى روزن – S. Rosen فى دراسته الضخمة عن هذه المحاورة[1]. فقد كانت الأحاديث السابقة كلها – ابتداءً من حديث «اريكسماغوس» و«فايدروس»، وانتهاءً بحديث «أجاثون» – تمهيداً لحديث سقراط عن «الحب»، وهو المحور الذى تدور حوله المحاورة. وجاء حديثه على صورة حوار بينه وبين «ديوتيما»، وهى كاهنة من مدينة، مانتينيا Mantinea...، فى منطقة البلبونيز، ويقول سقراط إن الأثينيين يعرفون هذه الكاهنة جيداً، فهى التى استطاعت أن تدفع عنهم مرض الطاعون عشر سنوات كاملة[2]. ويذهب عالم اللغة المرموق «ولتر كرانتس ... Walther Kranz إلى أن «ديوتيما» تلقت دعوة لمساعدة أثينا فى حمايتها من وباء الطاعون الذى سبق حرب البلبونيز بعشر سنوات. كما يذهب المؤرخ اليونانى «ثيوكيديدز .. Thuycudides» إلى أن النبوءات قد أجمعت على قرب وقوع ويلات الحرب والمرض. وفى مثل هذه الظروف العصيبة لا نستبعد أن تستعين دولة المدينة فى أثينا بكاهنة من مكان آخر لمواجهة هذه المحن. ومن ثم فمن المرجح جداً أن «كاهنة مانتينيا» كانت موجودة فى هذه الفترة (أى حوالى عام

---

1 - Stanley Rosen: Plato's symposium, P.197, Yale University 1987.

٢ - أفلاطون : المادبة ٢٠١ – حـ.

٤٤٠ق. م)، وأنها التقت حينئذٍ بسقراط الشاب[١].

وليس ذلك اللقاء غريباً، ولا شاذاً، إذ يروى لنا المؤرخون أن سقراط الذى كان يحبس زوجته فى المنزل، ويحتقر عقلها وتفكيرها، كان فى الوقت نفسه يسعى للقاء النساء المثقفات يعلّمهن أحياناً، ويتعلّم منهن فى كثيرٍ من الحالات. فأفلاطون، وزينوفون، وغيرهما، يرويان أنه كان يسعى إلى إسبازيا رفيقة بركليز التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق، وهى أيضاً كانت امرأة أجنبية جاءت من مدينة ملطية، واستقرت فى أثينا حتى أصبحت رفيقة لأعظم السياسيين فى تاريخها، ألا وهو: بركليز...[٢].

كما أن زينوفون .. Xenophon يروى فى مذكراته أنه «عندما سمع سقراط عن امرأة جميلة فى المدينة تستقبل الأصدقاء، وأن جمال هذه المرأة يفوق الوصف حتى أن المصورين يذهبون لرسمها - قال لأصحابه: «ينبغى علينا أن نذهب لرؤيتها، إذ لا يمكن أن نفهمها جيداً لمجرد الاستماع لما يرويه الآخرون». وذهب إلى منزل ثيودوتا ... Theodota ورآها وهى ترسم، وأعجب بجمالها الفتان ... وسألها فيلسوف أثينا الأكبر: من أين لك المال الذى تنفقين؟ ألديك ممتلكات: منزل يدر عليك دخل أو عبيد ... إلخ. فأجابت بأنها تعتمد فى دخلها على الأصدقاء الكرماء... إلخ، فراح يناقشها فى أساليب الحياة وقيمتها

1- Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosophers, Vol I,. P.108

٢- د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفلاطون .. والمرأة» ص ٤٠ مكتبة مدبولى بالقاهرة (العدد الأول من سلسلة «الفيلسوف .. والمرأة»).

.. إلخ[1] ، والمهم عندنا الآن أنه إذا كان من الثابت – تاريخياً – أن سقراط بمجرد أن سمع عن «ثيودوتا» الجميلة ذهب للقائها، مع أنها من الغواني أو السراري، أليس الأقرب إلى المنطق أن يهتم أكثر بلقاء «ديوتيما» كاهنة مانتينيا إذا سمع عن وجودها فى أثينا..؟ ولاسيما وأن لسقراط تاريخا طويلا فى الإصغاء لصوت الوحى الشخصى، حتى اشتهر بأن له «شيطاناً خاصاً» ، أو «روحا داخلية ... Daemon، خاصة – يستشيره، وكان يعتبره إشارة من السماء. وفضلا عن ذلك فقد استشار سقراط بالفعل الكثير من الكاهنات. وهذا واضح فيما يرويه أفلاطون على لسانه فى «محاورة الدفاع»: « كان شريفون ... Cha-rerephon صديقى منذ عهد الصبا قد سأل كاهنة دلفى لتنبئه من هو أحكم منى، فأجابت: ليس بين الرجال من يفضلنا حكمة..»[2].

وفى محاورة «المأدبة» يأتى الخادم الذى ذهب فى طلب سقراط – ليقول للحاضرين: «إن سقراط واقف فى رواق مجاور غير ملق بالاً لأحد، ولم يستمع لندائى...»[3]. كما أنه يصف حديث ديوتيما – فى المحاورة نفسها – بأنه «حديث يقطر حكمة..» ، ويقول لها «لعلك بلغت من الحكمة غايتها...»[4] ، وعندما تطرح عليه سؤالاً تكون إجابته: «لو كنت أستطيع، يا ديوتيما،الجواب، ما أعجبت بحكمتك كل هذا الإعجاب،

1- Xenophon: Memorabilia of Socrates Book III, ch XI.

٢ – أفلاطون : محاورة الدفاع ٢١ حـ – وانظر أيضاً محاورات أفلاطون ترجمة د. زكى نجيب محمود ص ٥١ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦٦.

٣ – أفلاطون: المأدبة ١٧٥ – أ.

٤ – المرجع نفسه ٢٠٨.

وما كنت أقف منك موقف التلميذ من الأستاذ لأقتبس منك، وأتلقى عنك معرفة الحب...»[1].

ذلك كله يجعلنا نرجح أن لقاء سقراط و«ديوتيما» كان حقيقياً، وليس مجرد قصة اختلقها أفلاطون. لكن ذلك يطرح سؤالاً أسبق: أيدل ذلك على أن «ديوتيما» كانت شخصية حقيقية واقعية وليست مجرد شخصية وهمية، أو خرافية خلقها أفلاطون بخياله الأدبى، ولاسيما وأنه كان أديبا موهوباً..؟!

---

١ – المأدبة ٢٠٦ ب. (وانظر أيضاً الترجمة العربية بقلم وليم الميرى ص ٦٤ دار المعارف بالقاهرة).

رابعًا: ديوتيما ... شخصية خرافية!

عندما جاء دور سقراط للحديث عن الحب فى محاورة «المأدبة» قال:

«سأروى لكم حديثاً عن الحب سمعته من امرأة من مانتينا .. Mantinea اسمها «ديوتيما» وهى صاحبة أعمال جليلة ...إلخ»(١).

فهل كانت هذه المرأة شخصية حقيقية تعلم عنها سقراط «فن الحب» كما يقول، أم أنها شخصية أسطورية خيالية ابتكرها ذهن افلاطون؟ من الأهمية بمكان أن نجيب عن هذا السؤال، وأن ندرس هذه المشكلة قبل أن نعرض لفلسفة «ديوتيما».

سوف نبدأ أولاً بعرض الحجج التى يرى أصحابها أنها تؤيد بقوة القول بأن «ديوتيما» ليست شخصية تاريخية حقيقية، وإنما هى شخصية خرافية. وهذه الحجج تتلخص فى النقاط الآتية:-

١ - ليس من طبيعة افلاطون الزج بامرأة لتقوم بدور رئيسى فى الحوار، كما فعل مع ديوتيما فى محاورة المأدبة.

٢ - لا يمكن أن نأخذ ما يقوله سقراط مأخذ الجد، فهو لم يتعلم شيئا قط من أية امرأة، والأرجح أن تكون آراء «ديوتيما» هى نفسها آراء سقراط.

---

١ - افلاطون : المأدبة ٢٠١ - أ.

٣ – لابد أن ننظر إلى محاورة المأدبة على أنها نموذج رائع لمواهب أفلاطون الأدبية بوصفه «روائياً»، وذلك يعنى أن شخصية «ديوتيما» خلقها أفلاطون الأديب، واختفى وراءها ليقول ما يريد.

٤ – ليس هناك ذكر لشخصية «ديوتيما» فى المصادر القديمة يمكن أن نرجع إليه سوى محاورة «المأدبة».

٥ – ربما كانت شخصية «ديوتيما» من خلق سقراط نفسه، أو أن تكون نموذجاً آخر «لتهكم سقراط الشهير»! فسقراط عندما يصف «ديوتيما» بأنها «كاهنة» وصاحبة أعمال جليلة، استطاعت أن تدفع الطاعون عن الأثينيين عشر سنوات [١] – لم يكن سوى تهكم، أعنى أننا لابد أن نفهم ذلك كله، على أنه ضرب من السخرية، ولون من التهكم السقراطى الشهير. فسقراط المتهكم العظيم كان يؤمن بآراء «ديوتيما» عندما كان شاباً، ثم تخلى عنها فى مرحلة النضج، ومن هنا فقد أراد – بضرب من التهكم – أن ينسب آراءه المبكرة إلى شخصية أخرى!

---

١ – أفلاطون : المادبة ٢٠١ – أ.

خامسًا: ديوتيما ... شخصية حقيقية!

الحجج السابقة هى التى يدعم بها أصحاب الفكرة القائلة بأن «ديوتيما» شخصية خرافية - موقفهم، وينتهون منها إلى نتيجة هامة هى أنه ليس ثمة امرأة بهذا الاسم، وبالتالى فإن ما قيل من آراء فى فلسفة الحب إما أنها كانت لسقراط فى شبابه، أو هى آراء أفلاطون.

ويذهب الفيلسوف الأفلاطونى أ. تيلور .. A.E. Taylor (١٨ - ١٩٤٥) إلى القول بأن سقراط أراد فى الواقع، أن يحول الحديث نفسه إلى جدل أو حوار أو فكر أصيل، بأن يضعه على لسان امرأة اسمها «ديوتيما» - وهى كاهنة من مانتينيا .. Mantinea - وهو يروى مسار السؤال والجواب الذى دار بينه وبين هذه الكاهنة، وهو الحوار الذى فتحت فيه عينيه ليفهم الأسرار الحقيقية للحب[١].

ويستطرد «تيلور» ليرد على فكرة «ديوتيما» «الشخصية الخرافية» التى خلقها خيال أفلاطون الأديب فيقول: «ومن ناحية أخرى، ليس فى استطاعتى أن أتفق مع كثير من الباحثين المحدثين الذين ينظرون إلى «ديوتيما» على أنها شخصية خرافية؛ ذلك لأن إدخال شخصيات خرافية أو أسماء وهمية فى المحاورة هو - فى رأيى - حيلة أدبية كانت مجهولة تماماً لأفلاطون - كما سبق أن ذكرنا فى فصل سابق...»[٢].

---

1 - A.E. Taylor: plato: The Man and His Work Methuen, 1926, P.224.
2 - Ibid.

أكانت كاهنة أم فيلسوفة، فهو قول يمكن الرد عليه، ودحضه من أفلاطون نفسه الذى هو مصدر ثقة للمعلومات عن تاريخ سقراط، فهو يبين لنا فى كثير من المحاورات أن سقراط كان شخصية متدينة بعمق، وانه كان صاحب تاريخ طويل فى الإصغاء إلى صوت العرافة أو الكهانة. ونحن مرة أخرى نستشهد بتيلور، الذى يقول فى هذا السياق: «منذ قدم لنا سقراط قصة صديقه «شريفون» مع كاهنة دلفى كدليل فى دفاعه أثناء المحاكمة، ونحن نستطيع أن نزعم أن سقراط لم يكن يمانع قط فى استشارة الكاهنات، بل إنه كان يؤمن إيماناً كاملاً بتعاليمهن .. وفضلاً عن ذلك فإن استشارة «شريفون» لكاهنة دلفى، وقعت خلال السنوات العشر التى نزعم أن لقاء سقراط وديوتيما قد تم فيها.

وفضلاً عن ذلك فإن عادة استشارة سقراط «للمرأة» وأخذ النصيحة من الكاهنة وردت أيضاً فى محاورة «مينون Meno» حيث يقول: «ولقد سمعت عن رجال ونساء حكماء متبحرين فى الأمور الإلهية. وهم طائفة من الكهنة والكاهنات الذين بذلوا جهوداً مضنية لفهم مبرر Rationale ما يقومون به من سلوك..»(1). ومن هنا فإن تيلور ينتهى إلى أن «المعلومات التى يزودنا بها أفلاطون عن سقراط لا مبرر أن نأخذها على أنها وقائع تاريخية...»(2).

ولقد قام عالم اللغة الألمانى «ف. كرانتس .. W. Kranz» فى

---

1 - Plato : Meno : 18 - B.

2 - A. E. Taylor : Socrates, Greenwood Press,1975.

مقالة له عن «ديوتيما» برسم خط مواز تماما لشخصية «ديوتيما» الحديثة عند الشاعر الرومانسي المرهف هلدرلين .. Helderlin (١٧٧٠ – ١٨٤٣) فسقراط وهلدرلين كلاهما تلميذ يتعلم من أستاذته الحب والحكمة. والفرق بينهما هو الفرق بين الفيلسوف الماكر الساخر المتسامح، العجوز الأفطس الأنف، والشاعر القلق الوحيد الرائع فى جماله وشبابه. والفرق بين المعلِّمَتَيْن هو كذلك الفرق بين عرافة وكاهنة تفتى بالقول الفاصل بعد اختلاف الآراء فى شأن الحب – ولابد أنها كانت عجوز حتى تؤتى هذه الحكمة – وبين شابة هادئة رقيقة تفيض عيناها وقلبها بالطيبة، والحنان، والفهم، للشاعر الذى ألقت به المقادير فى طريقها، وشاءت أن يعيش فى بيتها، ويروى عطشه الأبدى من نبعها، ويغرق كذلك آخر الأمر فيه(١).

١ – د. عبد الغفار مكاوى: «هلدرلين» – نوابغ الفكر الغربى – العدد رقم ٢١ – دار المعارف بمصر ص ٨٨ – ٨٩.

سادساً: دليل من الآثار

فى المتحف القومى بنابلى صندوق صغير من البرونز وضعت فيه نسخة أثرية من محاورة المأدبة، وقد نقشت صورة جميلة على غطاء الصندوق، ويصف «أوتو جان .. Otto Jahn» – أحد المتخصصين فى النقوش الكلاسيكية القديمة – الزخارف التى نقشت على هذه الصورة على النحو التالى:

«تعبر الصورة عن منظر بسيط ليس فيه سوى مقعد بلا ظهر، جلست عليه امرأة اتشحت بثوب طويل فضفاض، كما طرحت على جسدها رداء يغطى الجزء الأسفل منه. ووضعت على رأسها تاجاً يشبه الخوذة لا يكشف إلا عن جبهتها. ومن الواضح أن المنظر يصور امرأة منهمكة فى الحديث، وقد استغرق انتباهها كله الموضوع الذى تتحدث فيه. وفى استطاعتنا أن نقول – دون أن نخشى الوقوع فى الخطأ – إن ذهن المرأة كان مستغرقاً تماماً وهى توجه حديثها إلى رجل يقف أمامها.

أما الرجل فهو يقف مرتدياً رداءً بسيطاً يلتف أحد أطرافه حول ذراعه الأيسر، أما الصدر، والكتفين، والذراع الأيمن فهى عارية تماماً، وهو يميل برأسه قليلاً إلى اليمين، وهو حاسر الرأس، عارى القدمين، أفطس الأنف، وعيناه غائرتان تحت حاجب كث وشفاه غليظة.. إلخ، وبعد أن يقارن «أوتوجان» بين هذا النقش البرونزى، ونقوش أخرى من عصر أفلاطون، وبعد أن يصف شخصية «الإيروس.. Eros» (الحب) الذى يبدو ظاهراً بين الرجل والمرأة يختتم حديثه قائلاً:

«لست أشك فى أننا هنا أمام سقراط الذى تركزت عيناه وشد انتباهه إلى كلمات «ديوتيما» التى راحت فى حديث حى تعلّمه طبيعة الحب، أو كما قالت هى نفسها «أسرار الحب». وبينما يستحوذ عليهما هذا «التأمل المقدس» يقترب منهما إله الحب نفسه (الإله إيروس.. Eros)[1] فى رداء كهنوتى يرتديه رجال الدين أثناء تأديتهم للطقوس والشعائر الدينية».

ويقول باحث آخر هو «بولينو منجاتسينى.. Palino Mangzzi-ni» إن صورة الرجل الموجود على هذا النقش هى نفسها صورة سقراط على نحو ما يجسدها تمثالان من القرن الرابع قبل الميلاد. وبمعنى آخر إن الصورة رسمت على غرار تمثال سقراط الذى أبدعه الأثينيون، فى حين يبدو إله الحب إيروس Eros على هيئة كائن أسطورى بأجنحة ملاك فى مواجهة صورتى سقراط وديوتيما.

وعلى الرغم من أن «منجاتسينى» يقول صراحة إننا لا نعرف – بمعزل عن هذا الدليل – ما إذا كانت هناك شخصية حقيقية اسمها «ديوتيما»، ولا ماذا كانت عليه علاقتها بسقراط، فإنه يستطرد قائلاً:

«... بالنسبة لأولئك الذين قرأوا محاورة «المأدبة لأفلاطون، فلا شك أن ديوتيما كانت شخصية حقيقية تشبه تلك الصورة المنقوشة..».

---

١ – (الحب الشهوانى) هو إله الحب فى الأساطير اليونانية ابن أفروديت إلهة الجمال وإريس إله الحرب – راجع فى ذلك بالتفصيل: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول – مكتبة مدبولى بالقاهرة ص ٣٥٣.

وفضلاً عن ذلك فإننا نراه يزعم أن الصورة الحقيقية لسقراط و«ديوتيما» الموجودة على غطاء الصندوق البرونزي، والتي تصور المأدبة – لابد من مقارنتها بالصورة البرونزية الأخرى التي تغطي جانبي الصندوق، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ٣٤٠ – ٣٣٠ق.م. وأن النقوش المرسومة «للمأدبة»، ربما كانت نوعاً من تخليد ذكرى الحفل الذي أقامه «أجاثون» – أو ربما كانت بمناسبة العيد المئوي للقاء سقراط مع «ديوتيما» الذي تم عام ٤٤٠ق.م. ولاسيما وأن ذلك لم يظهر إلا بعد وفاة أفلاطون نفسه بحوالي سبعة عشر عاماً، وعندما تولى ابن أخته «سبيسبوس.. Speusippus» رئاسة الأكاديمية. وليس من المستبعد أن تكون شخصية ديوتيما شخصية حقيقية، فهي ليست وهمية من صنع الخيال، ولا هي شخصية أسطورية. ومن المؤكد أن أفلاطون كان يعرف ما إذا كانت شخصية حقيقية أم لا. وإذا كان أفلاطون يعرف ذلك، فكيف يمكن أن يخطئ تلاميذه في موضوع شخصية ديوتيما، وهي التي لا شك أنهم ناقشوا حديثها، وساعدوا في إعداد هذه النسخة الأثرية من المحاورة... ؟!

الواقع أن اكتشاف هذاالصندوق البرونزي يقدم لنا دليلاً أثرياً هاماً يدعم بقوة القول بوجود «ديوتيما»، وإنها شخصية حقيقية، وفضلاً عن ذلك كله فلدينا شهادة مكتوبة نعرض لها فيما يلي[1].

١ – قارن أيضاً كتاب ماري إلين ويث سالف الذكر ص ١٠٥.

سابعًا: شهادة مكتوبة

لم يرد ذكر لاسم «ديوتيما» لمدة خمسة قرون، لا فى مسرحية، ولا فى أى عمل أدبى، ولا فى كتاب من كتب التاريخ، أو موسوعة أو كتابات فلسفية، فتعاليمها، وفلسفتها، فى «الحب الشهوانى» لا تذكر إلا فى محاورة أفلاطون الشهيرة «المأدبة».

ثم بدأت تظهر من جديد فى القرن الثانى الميلادى مع شخصيات نسائية أخرى مثل «ثارجليا.. Thargelia»، و«إسبازيا.. Aespa-sia» فى مسرحية كوميدية للكاتب اليونانى «لوسيان .. Lucian» عنوانها «الخصّى .. The Eunuch» تبدأ بتقرير حقيقة واقعية عن «ديوتيما.. Diotima» و«ثارجليا.. Thargelia» وإسبازيا.. -Aes pasia» عندما يستشهد بهن الكاتب على أن المرأة يمكن أن تكون فيلسوفة. فهؤلاء «نساء فلاسفة فى العالم القديم». والواقع أن الكاتب يذكرهن فى سياق التماس يتقدم به «الخصى» إلى «ديوقليس .. -Di ocles»، ليسمح له أن ينال وظيفة رسمية كمعلم للفلسفة، وكان ينظر فى ذلك الوقت إلى «الخصّى» على أنه «مخنث»، أعنى أنه ليس رجلاً على الأصالة، بل هو أقرب إلى النساء ومن هذا المنطلق كان التماس «الخصّى» العمل فى حقل الفلسفة. فإذا كان من الثابت، تاريخياً، أن هناك نساء فلاسفة، عُرف عنهن الاشتغال بالفلسفة وتدريسها، لا فقط أنهن كن تلميذات يدرسن الفلسفة عند هذا الفيلسوف أو ذاك – إنْ صحّ ذلك كله، كان من حق «الخصّى» وهو «الرجل – المرأة» أن يحظى بالموافقة على أن يكون مُعلماً للفلسفة، وأن يُسمح له بتشكيل

مجموعة من التلاميذ يدرسون على يديه. وها هنا نراه يحتج مشيراً إلى ثلاثة من النساء الفلاسفة هن: «إسبازيا»، و«ديوتيما»، و«ثارجليا»!

وربما كان الكاتب يريد أن يسخر من «الخصّى» و«من النساء... الفلاسفة» على حدٍ سواء! ربما أراد أن يقول إن النساء الفلاسفة أشبه «بالخصّى» الذى يحمل صفات الأنثى، ويريد أن يتشبه بالرجال فيقوم بتدريس الفلسفة .. لكن ذلك ليس هو ما حدث، بل على العكس، إن المحور الأساسى للحجة يدور حول ما إذا كان «الخصى» يمكن أن يعد معلماً مناسباً للغلمان فى سن الحلم...؟! فليس ثمة سوى الإشارة إلى أن «ديوتيما» و«ثارجليا.. Thargelia» و«إسبازيا» كن فلاسفة يمارسن التفلسف بالفعل، وليس هناك بالنسبة لديوتيما – بصفة خاصة – سوى الإشارة إلى أنها كاهنة فيلسوفة ماتت منذ مدة طويلة[١]!!

وهناك كتّاب آخرون فى القرن الثانى الميلادى، أشاروا إلى «ديوتيما» إشارات مباشرة دون إثارة أدنى شك فى وجودها التاريخى وفى شخصيتها الحقيقية. فأرستديز .. Aristides يشير إلى «ديوتيما» فى خطبه.. Orations، وكذلك فعل أحد الشراح فى رسائله إلى أريستديز[٢].

* كما أشار إليها فى القرن الثانى الميلادى أيضاً «ماكسيموس.. Maximus» الصورى (من مدينة صور Tyre على الساحل الجنوبى

1 - Mary Ellen Waithe: Op. Cit. Vol. I, P.105.

2 - Mary Ellen Waithe, P.106.

اللبنانى) حوالى عام ١٢٥ - ١٨٥ ميلادية الذى ذكر ديوتيما ثلاث مرات.

* وفى استطاعتنا أيضاً أن نشير إلى كلمنت السكندرى (١٥٠ -٢٢٣) الذى عاش فى أواخر القرن الثانى، وأوائل الثالث الميلادى، والذى يذكر «ديوتيما» أيضاً فى مؤلفاته.

* وفى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى نجد ثمستيوس.. Themistius» (٣١٧ - ٣٨٨) السياسى اليونانى، أو شارح مؤلفات أرسطو - يذكر «ديوتيما» على أنها معلمة سقراط.

* بل إننا نجد برقلس .. Proclus آخر فلاسفة الأفلاطونية المحدثة (٤١٠-٤٨٥) فى نهاية القرن الخامس الميلادى - يشير ثلاث مرات إلى «ديوتيما»، ويقول إنه يعتقد أنها شخصية حقيقية كانت موجودة فى عصر أفلاطون، وأنها ليست مجرد شخصية خيالية.

وهكذا نجد أنه انقضى تسعة عشر قرناً، منذ عصر أفلاطون، أى منذ التاريخ الذى كُتبت فيه محاورة «المأدبة» حوالى عام ٣٨٨ق.م. حتى عام ١٤٨٥، عندما نشر الفيلسوف الإيطالى «مارسليو فسينو .. Marcilio Ficino»[1] «خطبه» لا نجد فكرة واحدة تقول إن «ديوتيما.. Diotima» لم تكن شخصية حقيقية، وأنها التقت بسقراط،

١ - فيلسوف إيطالى (١٤٣٣ - ١٤٩٩) عرف على أنه أفلاطونى. كلّفه «كوزيمو دى مديتشى» بترجمة أعمال أفلاطون إلى اللاتينية، وكذلك أعمال بعض فلاسفة الأفلاطونية المحدثة.

ودار بينهما حوار شهير هو الذى سجله أفلاطون فى محاورة «المأدبة». وهكذا ظلت «ديوتيما» لمدة تسعة عشر قرنا – كما يؤكد الباحثون، والفلاسفة، وأدلة الآثار – شخصية حقيقية لها وجود تاريخى. وربما جاءت ملاحظة الفيلسوف الإيطالى «فسينو» من حكم سابق كان فى ذهنه، وربما مصدره العادات والتقاليد السائدة، فحواه: أن من العبث الحديث، أو حتى مجرد التفكير فى وجود «نساء .. فلاسفة»، أو أنه يصعب جداً أن نتصور أن تكون هناك «إمرأة .. فيلسوفة»، وكأن الكلمتين متناقضتان لا يلتقيان فى عبارة واحدة لنصف به موجود إنسانى!

ولقد كان هذا الحكم المسبق هو القاعدة التى اعتمدت عليها القرون الخمسة التالية، إذ بدأت تروج الفكرة التى تقول إن «ديوتيما» شخصية خلقها خيال أفلاطون الأديب، وإنها ليست سوى دليل على براعة هذا الفيلسوف وقدرته الأدبية! دون أن يكلفوا أنفسهم عبء الرد على الأدلة التى تحدثنا عنها فيما سبق، ولاسيما الدليل المستمد من الآثار![1].

1- Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosophers, Vol. 1, P.106-108 Kluwer Academic Publishers,1992.

ثامنًا: نظريات ديوتيما ...

١ - طبيعة الحب:

تذهب «ديوتيما» فيما يروى سقراط - إلى أن للحب طبيعة خاصة تتصف بما يمكن أن نسميه «بالوسطية»، فلا هو جميل ولا هو قبيح، ولا هو خير ولا هو شر، بل هو وسط بين هذا وذاك، فكما أنه ثمة حالة للعقل بين الحكمة والجهل، وهى أن يكون للمرء معتقدات صحيحة لكنه لا يستطيع البرهنة على صحتها، فكذلك ليس الحب جميلاً ولا خيراً، وليس بقبيح ولا شرير، لكنه «بين بين»، كما أنه بين الكائن الفانى والموجود الأزلى، وهو نصف إله ونصف إنسان، إنه رسول الآلهة إلى الناس، ومبعوث الناس إلى الآلهة، يرفع إلى الآلهة صلوات الناس، ودعاءهم، وضحاياهم، وقرابينهم، وينقل إلى الناس من الآلهة الأوامر والنواهى، والثواب، والجزاء، ولما كان ذا طبيعة مشتركة فهو يستطيع أن يعبر البرزخ الذى يفصل دنياالناس عن عالم الآلهة. وبذلك لا ينقسم الكون إلى قسمين منفصلين تمام الانفصال[١].

٢ - مولد الحب:

وتذهب «ديوتيما» إلى أن الخصائص المتناقضة فى طبيعة الحب:

---

١ - افلاطون: المادبة ٢٠٢ - جـ (انظر ايضاً الترجمة العربية للدكتور وليم الميرى - دار المعارف بمصر ص ٦٠).

كالجمع بين الوجود الفانى والوجود الأزلى، والجمال والقبح، والخير والشر، والحكمة والجهل، ترجع فى النهاية إلى مولده. وهى تروى فى تفسير ذلك القصة الآتية:-

أرادت الآلهة أن تحتفل بميلاد آلهة الجمال والجنس «أفروديت Aphrodite..» - فأقام كبير الآلهة «زيوس .. Zeus» وليمة كبرى حضرها: «بوروس .. Poros» إله الغنى. وبعد العشاء تسللت: بنيا .. Penia «الحاجة أو الفقر» إلى تلك الوليمة تستجدى شيئاً، ووقفت بجوار الباب، وكان «بوروس» - إله الغنى والثراء - قد سكر لفرط ما شرب من الخمر الإلهية، فخرج إلى صديقه «زيوس»، وغلبه النعاس فنام تحت شجرة، وفكرت «بنيا» فى أن تخفى بعض ما تعانيه من بؤس وشقاء بأن تحمل طفلاً من«الغنى»، فضاجعته وحملت «بالحب»! فالحب، إذن، حُمِلَ به فى الاحتفال بمولد أفروديت إلهة الجمال، ولذلك تجد فيه شوقاً عارماً إلى الجمال. ولما كان أبوه «الغنى»، وأمه «الفقر»، كان الحب يحمل هذه الخصائص المتناقضة[(١)]، فهو فقير معدم، يرقد على الأرض، وفى الأزقة والحارات، والطرقات... إلخ. ذلك ما ورثه عن أمه. لكنه من ناحية أخرى، يسعى دائباً إلى الخير والجمال: جسور، مقدام، يطلب الحكمة ويسعى إلى العلا! وهذا ما ورثه عن أبيه. فليس بدعاً أن ترى رجلاً فقيراً يحب امرأة غنية أو العكس، فتلك هى خصال

---

١ - المرجع نفسه ٢٠٣ ب، وانظر ايضاً: د. إمام عبد الفتاح إمام «الحب ... أنواع» فى كتابه «أفكار .. ومواقف» ص٣١٢ - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

الحب: إنه مركب من الغنى والفقر، من الجهل والحكمة، من القوة والضعف، من «بنيا» و«بوروس»[1]!!

والحب أيضاً هو حب الحكمة؛ لأن الحكمة شئ جميل، فالحب هو حب الجميل؛ لأنه حمل به فى الاحتفال بمولد «أفروديت» فتولد فيه شوق عارم إلى الجمال، ولكن لمّا كان حبا للحكمة، فإن ذلك يعنى أنه لا هو حكيم، ولا هو جاهل، بل هو وسط بين الحكمة والجهل. وتلك نتيجة أخرى ترتبت على مولده فأبوه حكيم حاذق (الغنى والثراء) وأمه جاهلة عاجزة (العوز والفقر والحاجة)!

٣ – ما يؤديه الحب للناس:

ترى «ديوتيما» أن الحب هو حب الجمال، تبعاً لمولده – كما سبق أن ذكرنا– ووفقا لطبيعته، فإذا تساءلنا: ومم يتألف الجمال..؟! أو ما هى غاية الحب التى يسعى إليها محب الجمال..؟! كما أجابت ديوتيما: غايته امتلاك الأشياء الجميلة. فإذا عدنا نتساءل: وبم ينتفع من يمتلك الجمال؟ كانت الإجابة هى طرح سؤال آخر: وما الذى يحققه من يحصل على الخير؟ فالحال مع الجمال هى نفسها حال الخير. والإجابة فى الحالتين واحدة: إنه يحقق لنفسه السعادة، فالسعادة هى فى امتلاك الخير. وقل نفس الشئ فى امتلاك الجمال، فالسعادة هى الغاية فى الحالتين، ولا يمكن لنا أن نتساءل لم يريد أن يكون المرء سعيداً..؟!

---

١ – د. إمام عبد الفتاح إمام «أفكار ... ومواقف» ص٣١٤، مكتبة مدبولى بالقاهرة.

ذلك لأن السعادة هى الغاية النهائية لكل فعل بشرى، وهى الهدف الأقصى لكل سلوك إنسانى.

٤ - الحب ... أنواع!

لكن: هل يرغب الناس جميعاً فى امتلاك الخير؟ وهل الحب عام بين جميع الناس..؟ وإنْ صحّ ذلك: فلم نجد بعض الناس يحب، وبعضهم الآخر لا يحب؟

ترى «ديوتيما» أننا - فى العادة - نقتطع «نوعاً» من الحب ونطلق عليه اسم «الحب»، فى حين أن كلمة «الحب» تطلق على جنس، أو نوع أعم وأشمل من هذا الاستخدام الضيق. وربما أطلقنا أسماء مختلفة على أنواع الحب الأولى. وبمعنى آخر «الحب» اسم جنس يطلق على كل رغبة فى الخير والسعادة. وتلك هى حقيقة الحب القوى الغلاب. ولكن تلك الرغبة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة، فعند بعض الناس تتجه «الرغبة» نحو حب المال، وعند البعض الآخر تتجه نحو حب القوة البدنية، وعند فريق ثالث نحو حب «الحكمة»، لكنا، عادة، لا نقول عن هؤلاء أنهم «محبون» لأننا نقصر صنع الحب على من تتجه عواطفهم اتجاهاً معيناً فنسميهم محبين.

٥ - كيف يعبر الناس عن الحب؟

فرغنا من تعريف الحب وبيان طبيعته، وعلينا الآن أن نبحث: كيف يفصح الناس عن رغبتهم فى الامتلاك الدائم للخير، إذا سلّمنا بأن

الناس جميعاً يحبون الخير، ويهدفون دائماً إلى امتلاكه.

أ- ولادة ما هو جميل:

تذهب «ديوتيما» إلى أن الولادة على نوعين، فهى قد تكون بالجسد كما تكون عن طريق الروح. فعندما يصل الإنسان إلى مرحلة النضج، فإنه يشعر بالرغبة الطبيعية للولادة، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا عن طريق الجمال لا القبح، فثمة شئ إلهى فى تلك العملية، ففى الحمل والولادة يصيب المخلوق الفانى حظاً من الخلود. ولا يمكن أن تتم العملية فى غير انسجام. ولا يتفق القبح مع ما هو إلهى، فى حين ينسجم معه الجمال، ولذلك كانت آلهة الجمال هى الآلهة التى ترعى الولادة. وعندما يشعر المرء بالآم الوضع، فإنه يتعلق بالجمال، ويحس بالسكينة، ويشعر بالاسترخاء اللذيذ، وذلك كله ييسر الولادة ويسهلها. أما القبح والدمامة فإنهما يحدثان نقيض ذلك؛ إذ ينقبض المرء، وينطوى على نفسه متألماً قانطاً، وتتعسر ولادته، ويتحمل آلام الحمل، ولا يضع مولوده. وهكذا نجد أن المرء حين يكون حاملاً، وإذا جاءه المخاض، فإنه ينجذب بقوة نحو الجمال، لأن الجمال يعينه على تحمل آلام المخاض(١).

وقد يشعر القارئ بصعوبة فى متابعة هذه الفكرة التى تعرضها ديوتيما على سقراط، وعلاقتهابالتعبير عن الحب. لكن الفكرة ليست على هذه الدرجة من الصعوبة. فالحب الجنسى الذى يتجه نحو المرأة

---

١ - افلاطون : المأدبة ٢٠٦ - جـ (وانظر ترجمة وليم الميرى ص ٦٤ - ٦٥) .

يهدف إلى ولادة نسل جديد يكرر الرجل. أما حب الأفكار فهو يستهدف ولادة روحية هى إعطاء أفكار جديدة، وهذه قد تكون عند الرجل، «فالحمل» هنا حمل فكرى يقدم لنا نسلاً فكريا. ولكن «الولادة» هى التعبير عن الحب فى الحالتين. ولِمَ تكون الولادة هى غاية الحب؟ الجواب هو أن الولادة هى التى تؤدى إلى الخلود الذى يسعى إليه الموجود الفانى، فسواء أكانت ولادة جسدية لنسل بشرى جديد أم ولادة روحية لأفكار جديدة فهى فى الحالتين سعى إلى الخلود: خلود الإنسان عن طريق أولاده، أو خلوده عن طريق أفكاره، ولما كان الحب هو الامتلاك الدائم للخير كما قدمنا، فلابد أن يرغب فى الخلود رغبته فى الخير. ويلزم عن ذلك أن يكون الحب هو حب الخلود كما هو حب الخير. وهذا تعبير آخر عن الحب، أو صورة أخرى من صوره الكثيرة.

ب - علّة الحب والرغبة:

تذهب «ديوتيما» إلى أن ما يحدث للحيوان جدير بالتدبر والإمعان، فالحيوانات جميعا من طير ووحوش ودواب... إلخ، عندما تتملكها الرغبة فى التناسل، تقع فريسة لمرض الحب للاتصال بعضها ببعض، وتسعى بعد ذلك لتوفير الغذاء لصغارها، وفى سبيل هذين الهدفين نجدها تتقاتل، وتتصارع حتى الموت، وتعانى ما تعانى من جوعٍ وألم. كل هذا من أجل حفظ النسل وامتداد الجنس. وربما قلنا إن «العقل» هو الذى يدفع البشر إلى مثل هذا السلوك، ولكن ذلك تفسير خاطئ، فما يصدق عن الحيوان يصدق كذلك على الإنسان، فطبيعة الفانى أنه ينشد البقاء والخلود، وسبيله إلى ذلك الولادة والتناسل، فالولادة هى التى تحل فرداً مولوداً محل فرد ميت. وهكذا يظل الفرد

يخلق كائناً جديداً، يكون امتدادا له، تماماً مثلما يفقد خلايا من جسمه ويجدد خلايا أخرى، وتمتد عمليات التجديد هذه إلى شعره، ولحمه، وعظمه، ودمه، أعنى إلى جسده كله، وهى كذلك تمتد إلى روحه أيضاً: فشخصية الفرد لا تثبت على حال واحد، كما أن عاداته لا تتجمدعلى وتيرة واحدة، ولا رغباته، ولا مسراته وآلامه ومخاوفه وآماله - فلا شئ يثبت من ذلك قط على ما هو عليه، بل هناك جديد باستمرار، وهناك مرونة، والجديد منها لا يزال يخلف القديم.

جـ - المعرفة:

وتقول «ديوتيما» إن ما يحدث لأجزاء المعرفة جدير بالملاحظة: فلا شئ من المعرفة يختفى تماماً، كما أننا لا نحتفظ بهويتنا فيما يتصل بالمعرفة أكثر مما نحتفظ بها فى الأمور الأخرى، بل إن كل جزء من أجزاء المعرفة يخضع لعملية التغيير والتبديل التى يخضع لها الجسم: وعملية التذكر نفسها تنطوى على معنى انفصال المعرفة عنها، فالنسيان هو إفلات المعرفة، والتذكر هو الاحتفاظ بها عن طريق إحلال فكرة جديدة محل الفكرة التى فقدت، وهكذا ترانا نخلع على المعرفة هوية وهمية متصلة. وهكذا يتحقق للموجودات الفانية البقاء والخلود. فهى ليست كموجودات خالدة على نحو ما هى عليه، فذلك مقصور على الآلهة وحدهم، بل بعملية تعويض ما يخسر الجنس من أفراد بأفراد آخرين.

د - السعى نحو الخلود:

الكائن الفانى يريد، إذن، أن يحقق لنفسه البقاء والخلود عن طريق النسل الجديد، فهو فى ذاته لا يستطيع أن يكون خالداً، فهو ليس إلهاً ذا

وجود دائم، بل هو موجود فان؛ يقوم بتعويض ما يخسر، فإن خسر جسده كله كرره في نسله، وعلى هذا النحو يستطيع الفانون المشاركة في الخلود بطريقتهم الخاصة. وكل كائن حي يحفظ نفسه بالطبيعة على هذا النحو. ومن هنا كان السبب الذي يجعل الفرد مشغولاً بالحب لكي يحقق لنفسه البقاء والخلود. إن حب الشهرة والمجد يؤثر في الناس تأثيراً قوياً، لكن حب الخلود شئ مختلف؛ لأنه يجرفهم نحوه حتى أنهم لا يأبهون بالأخطار المحدقة بهم، بل إنهم يضحون بحياتهم إذا دعت الضرورة. أكان يمكن لـ «إلكستيس..»[1] أن تموت في سبيل زوجها «أدميتوس.. Admetus» ملك تساليا، أو يقدم أخيل على الموت في سبيل صديقه[2] «كودروس.. Kodros» ملك «أتيكا» لينقذ

---

١ – الكستيس .. Alcestis : زوجة ادميتوس .. Admetus ملك تساليا الذي أصيب بمرض عضال، وتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود، وتبعد عنه شبح الموت. فأجابته الآلهة إلى طلبه بشرط أن يأتي بـ«بديل» من أهل بيته يموت نيابة عنه إذا حضرته الوفاة. وهنا تقدمت زوجته المخلصة «الكستيس» فضحت بنفسها لكي ينجو زوجها من الموت. وهكذا ماتت الزوجة الوفية، فداء لزوجها الملك! وعندما مر هرقل بتساليا وجد الملك يبكي زوجته المخلصة، ووجد شعبه من حوله يبكي هذه الزوجة، فهبط البطل إلى ظلمات الدار الآخرة، وصارع حارسها الجبار، وعاد بالمرأة المخلصة إلى زوجها، فسعدت المملكة بأسرها!. قارن أيضاً استشهاد فايدرس بهذه الأسطورة في بداية محاورة «المادبة» ١٧٩ جـ. وانظر: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٦٥ – ٦٦ مكتبة مدبولي القاهرة.

٢ – اخيل .. Achilles : بطل ونصف إله في أساطير اليونان – كان قويا لدرجة جعلته يقتل الأسود والنمور، ويصطاد الآيل بلا شباك! وأخيل في الإلياذة هو البطل العظيم في حرب طروادة الذي تفوق في سلسلة من المعارك، غضب من

بلاده من غزو الدوريين[1]، وليحفظ ملكه لأبنائه، أكان يمكن لهؤلاء جميعاً أن يموتوا لولا يقينهم من خلود ذكراهم..؟ كلا إن الرغبة فى المجد هى التى تدفع الإنسان إلى العمل الفذ، وكلما ارتقى الإنسان ازداد حبه للخلود. أما أولئك الذين تتجه غريزتهم الخلاقة اتجاها جنسيا، فإنهم يجعلون همهم النساء، ويكون حبهم جنسياً محضاً، فتراهم يحسبون أنهم يضمنون لأنفسهم الخلود بإنجاب الأطفال. ولكن هناك غيرهم تكون ميولهم الخلاقة روحية، ويحملون بالروح لا بالجسد، فينتجون ذرية روحية كالحكمة والفضيلة وما إلى ذلك. ولعل أفضل وأشرف فروع الحكمة هو الذى يتناول تنظيم الدولة والأسرة وهو: الاعتدال والعدل[2].

ومن ينجب ذرية روحية يكون أشد سعادة؛ لأن أطفاله (الأفكار فى هذه الحالة) يمتازون عن أطفال البشر، فهم خالدون، ويفوقون جمال

«أجاممنون» قائد الحملة عندما استولى على محظيته واعتزل فى خيمته بعيداً عن الحرب، لكن = =عندما بلغه نبأ مقتل صديقه باتروكليس.. Patrocles فى القتال انتابته نوبة جنونية، فأسرع إلى إصلاح ذات البين بينه وبين أجاممنون. وخرج فى اليوم التالى لقتال الطرواديين، ويصرع بطلهم الأكبر هكتور.. Hector . لكن باريس Paris تمكن من قتل أخيل بمساعدة الإله أبوللو. راجع القصة بالتفصيل د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم»، المجلد الأول، مكتبة مدبولى بالقاهرة ،ص ٣٧ وما بعدها.

١ – كودروس.. Kodros :آخر ملوك أثينا فى الأساطير اليونانية، ضحى بحياته، بسبب النبؤةالتى وعدت الأثينيين بالنصر والخلاص من غزو الدوريين إذا قتل الملك على أيدى أعدائه. فكانت تضحية الملك لإنقاذ البلاد، وللاحتفاظ بالعرش لأبنائه من بعده.

أطفـــال البـــشـــر، ولاشـك أن الناس يفـضـلـون هـؤلاء الأطفـال على الأطـفـال الذين هم مـن لـحم ودم. من أطفـال «كــالإليـاذة»، و«الأديســة»، و«أنسـاب الآلهة» و«الأعمال والأيام» ..إلخ؟! هؤلاء هـم الأطفـال الذين حققوا لآبائهم شـهـرة، ومـجداً، وخلوداً، حـتى ظفر بعـضـهـم بعـبادة البـشـر لهم، بسـبب مـا تركـوه من أطفـال روحـيين، وذلك أمـر لم يـحـدث لإنسـان قط بسـبب أطفاله من لحمه ودمه.

٦ - مدارج الروح فى طريق الخلود:

ترى «ديوتيـمـا» أن الرجل الذى يريد أن يتبع الطريق المسـتـقـيم إلى هدفـه السـامى، ألا وهـو الـخلود، عليـه أن يأخـذ نفـسـه من الصـغـر بتأمل الجـمـال الإنسانى، فـإذا مـا أحسن المـرشد إرشـاده وجهـه أولا إلى حب فـتى جمـيل، ثم إلى إدراك أن الجـمـال المادى فى شـخص هـو نفـسـه الجـمال المادى فى شـخص آخـر، وإنه إذا كـان ينشد الجـمـال الظاهرى، فـمن العبث ألاّ يعـتـرف أن الجـمـال الذى يتـجلى فى جمـيع الأجسام إنمـا هـو جـمـال واحـد، ومن هنا فـإن عليـه أن يوجـه حـبه إلى الـجمـال بصـفـة عامـة، بحيث يضـعـف حبـه لشـخص بعينه، لأنه يدرك أن هـذه عـاطفة أقل أهـمـيـة، وأن عليـه أن يـتـجـاوزهـا إلى مـرحلة أخـرى، وهـكذا يـرقى إلى مـسـتوى أعلـى، إلى أن يصل إلى المـرحلة التى يقـدر فـيـها جـمـال الروح أكـثـر من تقـديره لـجمال الجـسـد. فلو أنه وجـد نفـسـاً نبيلة فـاضلة فى جسم ليس له نصيب من الجـمـال لرضى بحبـها، والإخـلاص لها، فـيأتى بالأفكار التى تـعمل علـى التـهـذيب. وتلك هـى المـرحلة التى يجد نفـسـه فيها يتأمل الجمال الذى يتبدى فى الأعمال والنظم المـختلفة ، ويتضح له

آخر الأمر أن الجمال فيها مرتبط بعضه ببعض، فيظهر عندئذ حقارة الجمال المادى، وضآلة شأنه، إذا ما قورن بجمال الروح. ومن الأخلاق ينتهى إلى العلوم فيتأمل جمالها، وبذلك يحصر نظره فى الجمال بمعناه الواسع، فلا تستعبده عاطفة حقيرة أو نموذج فردى للجمال، سواء أكان موضوع حبه فتى، أو رجلا أو عملا من الأعمال، أو نظاماً ما من الأنظمة، وهو أن يحدث فى محيط الجمال الذى اتجه إليه بصره الآن، ثم يأتى بسبب حبه الفياض للحكمة بعواطف وأفكار نبيلة جليلة، وإذا ما قوى بفضل هذه التجربة يرنو ببصره إلى العلم الوحيد، وموضوعه الجمال.

٧ - غاية الحب:

وترى «ديوتيما» أن من يتعلم «أسرارالحب» على هذا النحو، ويرقى فى هذا الطريق حتى نهايته، سوف ينكشف له فى نهايته جمال رائع هو الغاية من جميع المراحل السابقة. هذا الجمال هو أولا وقبل كل شئ جمال خالد، وهو ثانياً ليس جميلا فى جانب وقبيحا فى جانب آخر، ولا فى آن، ثم يتغير فى آن تال، ولا باختلاف الظروف والأحوال... إلخ، بل هو جمال مطلق لا يوجد إلا بذاته.

وعندما يبدأ المرء من العالم الحسى مستعينا بجمال الغلمان، ثم يلمح هذا الجمال المطلق، إنما يكون قريبا من غايته. وهذا هو الطريق القديم فى الاقتراب من أسرار الحب الذى يسير فيه المرء عندما يبدأ بنماذج الجمال فى هذا العالم، ويجعلها درجات يرقى بها جاعلاً غايته ذلك الجمال الأسمى المطلق من نموذج الجمال الحسى، ثم من أكثر من

نمــوذج، ثم إدراك الـخـيط المـشـتـرك بين كل ألوان الـجـمـال الـحـسى، ثم يرقى من الـجـمـال الـحسى إلى الـجمـال الـخلقى، ومن الـجـمـال الـخلقى إلى جمال المـعـرفة، ومن المـعرفة بفروعـهـا المـختلفة، إلى المـعـرفة المطلقة التى يكون موضـوعها الوحـيد الجمـال المـطلق. وهكذا يعرف آخـر الأمـر مـاهـية الـجمال المطلق.

هـا هـنا – فى هذا المكان وبـجوار الـجـمـال المـطلق – ينبغى أن ينفق المـرء عمـره فى تأمل هـذا الـجـمـال المـطلق، وعندئذ لن يهـتم بذهـب ولا فضـة، ولا ثياب أو غلمان... إلخ، فهـو يطالـع ماهـية طاهـرة بلا دنس، نقية لا تشــوبهـا شــائبـة، ومن يـصـل إلى هنـا يسـتطـيع أن يدرك الـجــمــال

---

٢ – المـأدبة: ٢١١ أ – ب.

١ – تذكـرنا فكـرة «ديوتيـمـا» هـنا بالفكـرة الصـوفـيـة الإسـلامـيـة، حـيث يذهـب المـتصـوفـة إلى أن غاية الـحب فى النهـاية هـى مشـاهـدة الـجمال الآلهـى الأزلى. قـارن ما تقـوله رابعة العـدوية «لا تحـرمنى يا إلهى من جمـالك الأزلى .. اجـعل الجنة لأحبـائك، والـنار لأعدائك، أما أنا فـحـسبى أنت» ! فالـغاية فى النهاية أن نصل إلى مـشـاهـدة الـجمال الإلـهى الأزلى وننظر إليه، ونراه بمـلء العين اعتمـادا على الآية الكريمـة «وجوه يومئذ ناضـرة، إلى ربها ناظرة»(٢٣–القـيامـة)، وانظر «الـحب .. أنواع»، د. إمـام عبـد الفتـاح

تاسعًا : فلسفة ديوتيما ... وفلسفة أفلاطون:

قد يعترض معترض على حديثنا السابق متسائلاً: ولم لا تكون جميع النظريات التى عرضت لها، وأطلقت عليها اسم «نظريات ديوتيما» هى نفسها نظريات أفلاطون؟ أليس من الممكن أن يكون أفلاطون قد عرض فلسفته على لسان «ديوتيما»، كما يعرضها أحياناً على لسان سقراط؟!

والجواب - باختصار شديد - هو: أن هذه النظريات تختلف بوضوح، بل تتعارض أحياناً مع نظريات أفلاطون. غير أن هذه الإجابة تحتاج إلى شرح وتفسير.

١ - الخير ... والجمال:

ربما كان هناك تشابه ظاهرى منذ البداية بين فكرة أفلاطون وفكرة ديوتيما عن الخير، فإذا كانت السعادة عند «ديوتيما» هى فى امتلاك الخير، فإن تصورها للخير يختلف عن تصور أفلاطون اختلافاً تاماً؛ ذلك لأن الخير عندها هو خير شخصى أو ذاتى، أو قل إنه خير أنانى أو خير المرء لنفسه، ونحن نتعرف عليه على أنه محاولة لاكتساب الخلود عن طريق إنجاب المرء لنفسه من خلال فكرة الجميل. كما أن فكرة الجميل ليست هى المثال الأفلاطونى للجمال، بل هى فكرة على مستوى الظواهر فحسب لا على مستوى المثل الأفلاطونية.

وهكذا نستطيع أن نقول إن «الجمال المطلق» عند ديوتيما لا

يتحد مع مثال الخير على نحو ما وصفه أفلاطون فى الجمهورية(١)، وفضلا عن ذلك فإن لغة ديوتيما فى وصفها للجمال «إيلية» بشكل واضح. ويقول ستانلى روزن:

«ليس الخير عند ديوتيما مثالاً من المثل الأفلاطونية. وكذلك تصورها للجمال ليس هو نفسه تصور أفلاطون لمثال الجمال... إن وصف ديوتيما للجمال لا يفترض سلفا نظرية المثل. لكن يمكن أن يفهم كجزء من الأعداد أو التطوير اللاحق على يد سقراط...»(٢)، ويقول «... لا شئ فى وصف ديوتيما للجمال فى ذاته يرجعه إلى عالم منفصل أتم الانفصال عن مظاهر عند الإنسان، فانفصال الجمال هو صورة فريدة لا يمكن رؤيتها فى شئ آخر إلا بفضل تلك الأمثلة الكامنة فيه: فحتى لوصح وأن أفلاطون كان قد انتهى من نظريته عن المثل، عندما كتب المأدبة، فإن هذه النظرية مستبعدة تماماً عن حديث المأدبة(٣).

٢ – تصور «ديوتيما» للخلود:

تستطيع النفس فى محاورة المأدبة أن تصل إلى الخلود – بالمعنى الميتافيزيقى – بواسطة عملية التوالد أو الإنجاب .. بأن تترك

---

١ – أفلاطون : محاورة الجمهورية (٤٧٢ – ٤٧٨).

2- Stanley Rosen: Plato's Symposium P. 270 Yale University Press,1987

3- Ibid, p277

اسماً أو سمعة تجعلها باقية...[1].

لكن كيف يمكن للمرء أن يحقق ذلك؟ لو أن المرء أراد أن يترك أكثر من اسم أو سمعة ،لو أنه أراد أن يلد «أفكاراً» ، وأن يؤثر في الآخرين، فلابد له أن يعرف نفسه أولاً، كخطوة أولى، أن يعرف من هو؟ فما نوع الهوية الذاتية التي تأخذ بها «ديوتيما»...؟!

أ- الخلود ... والهوية الشخصية:

إن هدف «ديوتيما» في روايتها للحب هو تحليل ما الذي يبقى من الوجود البشرى على مر الزمان، وعندها أنه لا يبقى من الشخص سوى صفاته؛ ذلك لأنها تذهب إلى أن الوجود المتصل المستمر للكائن الحي يعني أن تحل صفات أخرى تشبهه محل ما قد فني من صفات... وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول إننا خالدون في أبنائنا، وفيما ننسله من أفكار. وتلك فكرة أساسية من الهوية، الشخصية عندها. وهي تختلف أتم الاختلاف عن التصور الذي قدمه أفلاطون في محاورة القبيادس الأولى (١٢٩ ب - ١٣٠ جـ) التي يذهب فيها إلى أن هناك شيئاً أساسياً هو «أنا»، أعني كياناً يقف خلف جميع الصفات والكيفيات القابلة للتغير. فالنفس هنا جوهر قائم بذاته قابع خلف جميع التغيرات الجزئية، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر لم كنت «أنا» الآن نفس الشخصية التي كنتها في الصغر، أو عندما كنت طفلاً. في الوقت الذي أكون فيه مع كل صفة أو كيف. إذ أستطيع أن أتعرف فيها على نفسي، ومن ثم فإنني عندما أصبح شابا، فإنني لا أصبح شخصا مختلفا عن

---

3 - Quoted by: Mary Ellen Waithe Op. Cit. P.86.

ذاتى عندما كنت صغيرا بنفس الدرجة التى أكون بها شخصاً مختلفاً عن شقيقى مثلاً، صحيح أن لى الآن شخصية تختلف عن شخصيتى عندما كنت طفلاً، غير أن هذا الاختلاف ليس هو نفسه كالاختلاف بين شخصيتين من البشر.

إن الخلود عند «ديوتيما» لا يعنى - كما هى الحال عند أفلاطون - خلود النفس بعد موت البدن، بل يعنى خلودى فى نسلى، إما عن طريق إنجاب الأبناء الذين يواصلون حمل الصفات الموجودة عندى، أو إنجاب الأفكار (وهو التوالد الروحى) الذى يجعلنى أبقى حياً فى هذه الأفكار - فالخلود هنا هوخلود الفكرة، تماماً مثلماً نقول إن أفلاطون خالد، أو أرسطو خالد - دون أن نعنى أن نفس أفلاطون أو أرسطو «خالدة»، وإنما المقصود أنهما ماتا جسديا منذ أربعة وعشرين قرناً، لكنا مازلنا ندرس فكرهما ونحلله، ونأخذ منه، وننقده... إلخ، مازلنا نتحدث عن «فكرهما» ونستفيد منه وهذا يعنى أنه «فكر خالد»، فالتناسل الجسدى، أى إنجاب الأبناء يجعل الصفات خالدة بأن يجعلها تتكرر فى النسل البشرى، وكذلك الأفكار القيمة تكون خالدة: فمازالت الإلياذة والأوديسة يقرأهما الناس - فى جميع الثقافات حتى هذه اللحظة - وهذا ضرب من الخلود الفكرى. وقل مثل ذلك فى «الفارابى» أو «ابن سينا» أو «ابن رشد» أو «ابن خلدون»... إلخ، فهم خالدون بفكرهم لا بأنفسهم.

وذلك يعنى أننا حين نتحدث عن شخص ما، فإننا لا نستطيع أن نتعرف فيه - رأى ديوتيما - عن جوهر Scbstance يكمن تحت الأعراض، بل نتعرف فحسب على مجموعة من الصفات المتشابهة

المتداخلة المستمرة، والمتصلة عبر الزمان: «ومن ثم فإن علينا أن نأخذ فكرة ديوتيما وتفسيرها للهوية الشخصية مأخذ الجد. فمن وجهة نظرها ليس ثمة «جوهر» ولا «ذات» ميتافيزيقية كامنة، بل إن الشخص هو مجموعة من الصفات. وها هنا يكون من المشروع أن نمد هذه الفكرة إلى مفهوم «الخلود»، وإلى فكرة «ديوتيما» عن «الحب»، بوصفه صفة من الصفات الخاصة...[١].

وإذا لم يكن ثمة سوى هذه الصفات التى تعبر عن الهوية الشخصية، فإن ذلك يعنى أننا عندما نحب شخصا ما فإننا بذلك نحب صفاته (أو بعضها على الأقل)، لكن لو صح ذلك لأصبح من الواجب أن نسأل عن قيمة هذه الصفات. وهكذا يصبح من المشروع الزعم بأن حبنا ينبغى أن يتناسب مع قيمة الصفات التى نحبها، وأن علينا أن نحب تلك الخصائص الجديرة بأن تحب أينما وجدت. ويمكن للمرء الذى يسير فى طريق ديوتيما وتفسيرها للحب – على هذا النحو – أن يندفع إلى طريق «اللاشخصية» !!

فى حين أن أفلاطون يرى أن النفس جوهر مستقل عن البدن، ولأنها ارتكبت خطأ فقد سجنت فى هذا البدن وسوف تتحرر منه بالموت، لكنها لا تموت معه؛ حيث إنها خالدة. ويقدم أفلاطون ف محاولة «فيدون» وحدها أربعة أدلة على خلود النفس بعد فناء الجسد هى: تعاقب الأضداد، والتذكر، والبساطة والتركيب، ومثال الحياة، لكن

1 - Quoted by: Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P.88.

الدليل الذى يؤثره ويراه مقنعاً أكثر من غيره، لم يبسطه إلا فى «فايدروس» و«القوانين» وهو أن النفس متحركة بذاتها[١].

ب - الخلود ... ونظرية التذكر

يربط أفلاطون بين نظريته فى «خلود النفس» ونظريته فى تذكر المثل، ولعل أفضل مثال لعملية الربط هذه - وهو المثال النموذجى - هو التجربة التى قام بها سقراط وأجراها على خادم «مينون... Meno» وهو عبد صغير، أخذ يسأله عن طول ضلع المربع الذى مساحته ثمانية أقدام مربعة، ولم يكن الخادم على علم سابق بالهندسة، ومع ذلك جعله سقراط يتذكر قوانين الهندسة التى تعلمتها نفسه فى وجود سابق[٢].

كما عرض أفلاطون أيضاً لعملية الربط بين خلود النفس، ونظريته فى تذكر المثل، فى محاورة «فيدون»[٣]، وفى محاورة «فايدروس»[٤]. أما النفس عند «ديوتيما» فهى تختلف عن ذلك أتم الاختلاف؛ فلا هى عاجزة عن تذكر المثل بطريقة أفلاطون، ولا هى نفس - إنها ليست خالدة أصلا؛ ذلك لأن المرء إنما يحقق الخلود عند «ديوتيما» - بطريقة غير أفلاطونية تماماً. وفى استطاعتنا إن نقول أن

---

١ - د. أحمد فؤاد الأهوانى : أفلاطون ص ٩٤ - دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥ (سلسلة نوابغ الفكر الغربى عدد رقم٥).

٢ - محاورة «مينون» ٢٨٢ - ٢٨٥.

٣ - محاورة «فيدون» ٧٢ وما بعدها .

٤ - محاورة «فايدروس» ٢٤٨ وما بعدها .

النفس عند «ديوتيما» لا تحقق الخلود على الإطلاق؛ ذلك لأن الخلود عندها مجازى فحسب وليس ميتافيزيقيا.

جـ - الخلود ... وتناسخ الأرواح

على الرغم من أن «ديوتيما» تذهب إلى أن الرغبة فى الخلود تدفع المرء إلى أن يكافح لكى يلد نسلاً يشبهه، نسلاً بشرياً، فإن الشخص الذى يعجز عن التوالد لا يسلك الطريق الذى يسلكه الرجل الشرير عند أفلاطون على الإطلاق.

ذلك لأن أفلاطون يعتقد أن النفس البشرية تنال جزاء ما صنعت، وأن كل شخص يثاب أو يعاقب أو يلقى جزاءه حسب عمله. فالفيلسوف أو محب الحكمة تصعد نفسه إلى السماء حيث مقر الأنفس، فتستمتع بالنظر إلى الحقائق المجردة: فلا أجسام، ولا مادة، ولا ألوان، ولا صور محسوسة، بل إن مقر الأنفس يصبح غذاءها الروحى. أما غير الفلاسفة فيتناسخون فى أبدان بشر، وأبدان حيوانات حسب أعمالهم. فالرجل الشرير قد تتناسخ نفسه مرة أخرى فى جسد امرأة، وربما فى جسد حيوان. ولهذا نراه يقول فى طيماوس: «فمن زل عن المبادئ الأخلاقية، تحول فى ولادته الثانية إلى طبيعة إمرأة، فإن لم يرعو عن شره فى هذه الحالة أيضاً فإنه يظل يتحول من طبيعة وحش إلى طبيعة وحش آخر تماثله فى شره... وهكذا دواليك.»(١).

وهكذا يتضح لنا أن تناسخ الأرواح - المأخوذ عن الهند عن طريق

1-Plato : Timaeaus, 24 C.

الفيثاغورية – يذهب إلى أن الجبناء والفجار من الرجال سيصبحون بعد ذلك «نساء»، وخفاف العقول والسذج، الذين يظنون، مثلا، أن علم الفلك يمكن تحصيله بالنظر إلى النجوم من غير معرفة الرياضة، سيصبحون طيوراً، وأولئك الذين لا فلسفة لهم سيصبحون كواسر برية، وأغبى الناس فهما سيصبحون أسماكا(١).

أما «ديوتيما» فهى لا تؤمن بالتناسخ، ولا بانتقال النفس من بدن إلى بدن؛ لأن النفس أولاً ليست جوهرها، وهى فى نظرها ثانياً ليست خالدة، ولأن الاختلاف هائل بين فلسفتها وفلسفة أفلاطون.

---

١ – برتراند راسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الأول ص ٢٣٠ ترجمة د. زكى نجيب محمود، لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة – الطبعة الثالثة ١٩٧٨.

الخـــاتمــــــة:

لقد ناقشنا فى هذا الفصل شخصية «ديوتيما»، وأثبتنا أنها شخصية حقيقية، وأنها كاهنة وفيلسوفة من مانتينا، وانها زارت أثينا عندما استدعاها الأثينيون لمساعدتهم فى الحماية من مرض الطاعون، وأنها التقت بسقراط أثناء هذه الزيارة. ثم عرضنا بعد ذلك لنظريات «ديوتيما» فى «الحب» و«الخلود» و«الجمل»... إلخ، وبينّا فى النهاية كيف أن هذه النظريات تختلف فى كثير من الجوانب عن فلسفة أفلاطون، كما أنها تتعارض مع هذه الفلسفة فى جوانب هامة (مثل خلود النفس، وتناسخ الأرواح... إلخ)، والواقع أن ديوتيما تختلف عن أفلاطون فى كثير من المفاتيح الأساسية لفلسفته ونظرياته مثل: تصوره للخير، وتصوره للخلود، وتصوره لتناسخ الأرواح، ونظريته فى الهوية الشخصية، ونظريته عن المثل.. إلخ، ولا يمكن أن يقال إن الباحث المتخصص فى أفلاطون يمكن أن يجد بعض التناقضات فى فكره حول موضوع من الموضوعات من محاورة إلى أخرى، ذلك لأن الأمر هنا يتعلق بتناقضات أساسية حول أفكار مركزية توجد فى جميع أو معظم المحاورات الأخرى.

وهكذا نستطيع أن نقول فى النهاية إن «ديوتيما» كانت واحدة من «النساء ... الفلاسفة فى العالم القديم» وأنها تبرهن – كما سوف تبرهن المرأة فى العالم الحديث – على أنها ليست أقل من الرجل فى قدرتها العقلية، ولا فى استعدادها للتفلسف.

٦

الفصل السادس

«چوليا دونا ... أوچوليا الفيلسوفة!»

* هل يمكن أن توجد فضيلة العفة عند الخصّى؟
* وهل مجرد الامتناع عن الظلم يُشّكل العدل؟

أبو للونيوس... Appollonius

تمهيـــــد ...

«چوليا دونا» ... أو «چوليا الفيلسوفة» ، كما كان يطلق عليها المؤرخون فى القرن الثالث الميلادى ، المرأة التى ، كوّنت حلقة من أنبغ العقول فى عصرها: حلقة تضم الشاعر ، والفيلسوف الفيثاغورى ، والمشائى ، والسوفسطائى ، ومُعلم البيان ، والمحامى ، والسياسى ، والطبيب ، والمؤرخ ... إلخ – على نحو ما سنعرف فيما بعد – عاشت فى الفترة التى أعقبت الإمبراطور الرواقى ماركوس أورليوس (١٢١ – ١٨٠م) – والسابقة على أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠م) والأفلاطونية المحدثة. وعلى الرغم من أنها – على ما نعلم – لم تخلف وراءها كتباً من تأليفها تعالج الموضوعات الفلسفية التى كانت تدرسها ، فإنها كانت تكرس نفسها لدراسة الفلسفة ، وتوجه أعضاء حلقتها إلى الكتابة فى موضوعات معينة اهتمت بها اهتماماً شديداً على نحو ما سنعرف فيما بعد. ولقد كانت الوحيدة من بين أولئك الذين نُطلق عليهم اسم الفلاسفة – ربما باستثناء ماركوس أوريليوس – التى سُكَّ اسمهاعلى أكثر من ثلثمائة وخمسين عُملة مختلفة ، كما وجد اسمها على أكثر من ١٨٠ مبنى من المبانى العامة ، والتماثيل المتناثرة فى أنحاء البلاد ، حتى أضفى عليها الناس فى النهاية صفة القداسة!

وسوف نبدأ أولاً فى سرد تفاصيل حياة هذه المرأة اللامعة ، ثم نحاول بعد ذلك أن نجيب عن السؤال:

لِمَ أُطلق عليها لقب فيلسوفة ؟؟؟

أولاً : حياتها ...

ولدت «چوليـــا دونا – Julia Donna»، أو «چوليــــا دومنـا J.Domna»، عـام ١٧٠ مـيلادية فى إمـيسا... Emesa – وهـــى الآن ضـاحية فى مـدينة حـمص الحـديثة – فى سـوريا على نهـر العـاصى[1]، واسـمها دوما أو دومنا Domna قريب الشبه بالكلمة اللاتينية -Domi na التى تعنى «السـيـدة»، وإنْ كـان من المـمكن أن يكون الاسـم أرمنى الأصل بمعنى مارثا.. Martha[2]، وكـان والدها «يوليـوس باسيانوس.. Julius Basianus»، الكاهن الأكبـر لمعبد إله الجبل.. Elagabal، وهـو إله الشـمس فى «إمـيسـا» التى كـانت مـركـزاً دينيـا هـاماً فى ذلك الوقت.. حيث كانت عبادة هذا الإله منتشرة فى هذه المنطقة[3].

ولا يروى لنا التـاريخ شـيئاً يذكـر عن تربية «چوليا» فى حـياتها المبكرة، لكن من المرجح أنها التقت ببعض المثقفين المرموقين الذين كانوا يفـدون على منزلهم، ويبدو أنهـا تعلمت من المناقـشات التى تدور

---

١ – كانت حمص المدينة السورية التى تقع على نهر العاصى فى الجزء الغربى من وسط البلاد قد أصبحت فى ذلك الوقت مستعمرة رومانية.

٢ – شقيقة العازر ومريم، وصديقة يسوع المسيح (لوقا ١٠ : ٤٠) وهى ترمز فى التراث المسيحى إلى الحياة النشطة الإيجابية، بينما ترمز شقيقتها مريم إلى الحياة التأملية.

٣ – إله الجـبل.. Elagabal : هو إله الشـمس أو هـو إله حارس فى معتقدات الشرق القديم ولاسيما سوريا، وكان النسر هو الطائر المقدس عنده. قارن: د. إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٣٣٠ – مكتبة مدبولى بالقاهرة.

بينهم وبين والدها الكاهن. وسوف يتضح فيما بعد اهتمامها بالتنجيم والرياضيات بصفة عامة، وهو اهتمام غرسته فيها البيئة التى عاشتها وهى طفلة، ومن المحتمل أيضاً أن «سبتيموس سڤيروس.. Septi-mius Severus[١]»، رآها لأول مرة فى ذلك الوقت عندما كان يقيم فى هذه المنطقة بوصفه قائداً عسكرياً للحامية الرومانية فى حمص. وكانت «چوليا» فى التاسعة أو العاشرة من عمرها، وبعد ذلك بعدة سنوات أصبح «سڤيروس» نفسه حاكماً على إقليم ليون فى بلاد الغال (فرنسا قديماً)، وهناك فقد زوجته الأولى، وراح يبحث عن الزوجة الثانية ذات الحظ السعيد التى سوف ترتبط به. وها هنا اكتشف أن سيدة شابة من حمص فى سوريا قد خبأت لها النجوم طالعاً ملكياً، فأسرع فى التوسل إليها وحظى بالزواج منها[٢].

وكانت «چوليا» تستحق فى الواقع كل ما يمكن أن تعد به النجوم، فقد وهبت هذه المرأة – حتى عندما تقدمت بها السنوات – كل مفاتن الجمال، وجمعت بين روعة الخيال، ورصانة العقل، وقوة الحكم، مما يندر أن يوهب لبنات جنسها فيما يرى إدوارد جيبون...[٣].

لقد ولد سڤيروس عام ١٤٦م فى قرية لبدة Lebda (الليبية)

---

١ – سبتيموس سڤيروس (١٤٦ – ٢١١م) سوف يصبح إمبراطوراً لروما (١٩٣ – ٢١١) وسوف ينشئ سلالة سڤيروس الحاكمة على نحو ما سيظهر فيما بعد

٢ – إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد على أبو درة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم، المجلد الأول، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ص١٨٠.

٣ – المرجع السابق، فى الصفحة نفسها.

على الســاحل الشــمــالى لأفـريـقـيــا، وبعــد أن درس اللغــتين اليـونانيـة والرومانية فى المـدرسـة، ذهب إلى روما لدراسة القـانون، وعُين فى عهد الأمـبـراطور «مـاركـوس أورلـيوس» فى وظائف مـتـتـابعـة فـى: أسـبـانيـا، وسـردينيا، وأفريقيا، وسـوريا. وفى عهد الإمبراطور «كومودس Com-modus»[(١)]، أصبح حاكما لجاليا.. Gallia فى وسط فرنسا.

قلنا إن زوجـتـه الأولى مـاتـت فى هـذه الفـتـرة، وراح ســڤـيـروس يسـتـشـيـر أبراج النجـوم – فـقـد كـان يؤمـن إيمـاناً قـوياً بـالتـنجـيم – عن المـرأة التى تصلح زوجـة له، فـأخـبـره المـنجـمـون أن هـناك – عـلى نهـر العـاصى – فى سـوريا فـتاة جـمـيلة ابنة الكاهـن الأكبـر لإله الجـبل يقـول طالعـهـا إنهـا سـتكون زوجـة لأحـد الملوك، وسـوف تـصـبح إمـبـراطورة مهيبة الجانب، رصينة العـقل، قوية البيان، هى «چوليـا دونا» فسعى إلى الزواج منهـا، «وهـكذا كـان اخـتـيـاره للزواج من فـتـاة سـورية راجعاً إلى إيمانه بالتنجيم فيمايقول واحد من كتاب القرن الرابع الميلادى..»[(٢)].

تزوج سـڤـيروس وچوليـا عام ١٨٧ مـيلادية، وكان هـو فـى الحـادية والأربعين، أمـا هـى فكانت فى السـابعـة عشـرة، وانجـبا طفلهـما الأول فى منطقة ليون Lyons فى الجـزء الجنوبى الشـرقى من فرنسـا فى أبريل

---

١ – لوسـيـوس كـومـودس (١٦١ – ١٩٢م) إمـبـراطـور رومـانى (١٨٠ – ١٩٢) ابن مـاركوس أورلـيوس، وكان طاغية مـجنوناً فاسقاً مـستهتراً، وقـد دفعه اعتـزازه بقوته البدنية إلى الـتوهـم بانه البطل الأسـطورى «هـرقل»، وإلى النزول إلى المـجتلـد لمقاتلة الأسـود!!.

1-Beatrice H. Zedler: Julia Domna in A History of Women Philosophers Vol. I, P.117.

١٨٨، وأطلقا عليه اسم «باسيانوس Bassianus» على اسم والد «چوليا» وهو الذى عرف طوال التاريخ باسم كاراكلا.. Caracalla، أما الابن الثانى فقد سمى جيتا.Geta على اسم والد سڤيروس وشقيقه. وقد ولد فى روما فى العام التالى ١٨٩م.

وفى عام ١٩١ميلادية عين سڤيروس حاكماً لـ«بانونيا.. Pan-nonia»، وهى مقاطعة رومانية فى أوروبا الوسطى، كانت تشمل الجزء الغربى من هنغاريا الحديثة، وأجزاء من شرق النمسا وشمال يوغسلافيا الحديثتين – وكان المركز الرئيسى لقيادته فى كارنينتوم Carnuntum» على نهر الدانوب، ها هنا كان سڤيروس زوج «چوليا» قائداً لثلاث مناطق، ولما علم بمقتل الإمبراطور كومودس Commo-dus[1] – الذى مهد قتله الطريق أمام أسرة «سڤيروس» – نادت قواته بسڤيروس إمبراطوراً، وكان المتآمرون فى روما قد قدموا العرش إلى «بريتناكس Bertinax» وهو سنتور معمر ومحافظ، ولكنه قُتل بيد الحرس البريتورى بعد حكم دام ستة وثمانين يوماً! فزحف سڤيروس بقواته سريعاً إلى روما، وصوت مجلس الشيوخ فى صفه بأن يرقى العرش – وهكذا نودى به إمبراطوراً على روما.

---

٢ – هبط كمودوس بتفكيره، ومن ثم بروما من ذُرى شموخها عندما ظنّ نفسه «هرقل الرومان» والشمس المشرقة .. إلخ، وضعت له مارتشيا Marcia– احب خليلاته إلى نفسه – جُرعة من السم فى النبيذ الذى قدمته لعشيقها بعد ان عاد من رحلة صيد متعبة، وبينما كان يتلوى من الم السم، اقتحم غرفته شاب مفتول العضلات وقتله خنقاً دون مقاومة! اضمحلال الإمبراطورية الرومانية – المجلد الأول ص ١٦٢.

فى عـام ١٩٣م، وهو العـام الذى دخل فـيـه «سـقـيـروس» رومـا منتصراً ظافراً، لم يظهر اسـمه فـقط على العملة، بل كـتب عليهـا أيضاً اسم «چوليـا دونا»، وفى هذا العـام أيضاً أنعم هـو عـلى «چوليـا» بـاللقب الإمـبراطورى «أوجستـا.. Augusta» وهـكذا بـعـد ست سـنوات مـن زواجـهـمـا تـحـقـقـت نبـوءة النـجـوم وأصـبـحـت چوليـا زوجـا لـملك، بل أصبحت «إمبراطورة» لروما!.

كان هناك منافـسان قويان لسـقيروس على عرش رومـا. أما الأول فهو «نيجر.. Niger» حـاكم سـوريا فى الشـرق، والثـانـى هـو ألبـينوس Albinus حـاكم بريطانيا فى الغـرب، وسـار سقـيروس بقـواته أولاً إلى الشرق، وهزم «نيجر»، بل قُتل هـو وزوجـته وأولاده عام ١٩٣ مـيلادية، وواصـل سـقـيروس حـملتـه فى الشـرق ضـد أولئك الذين سـاعدوا نيـجـر وأيدوه. وكـانت «چوليا» تصـحـب زوجـها فى حـملتـه على الشرق وتقـيم فى مـعسكره، حـتى أطلق عليهـا عام ١٩٦ لقـب «أم المعـسكـر.. Mater Castrorum» اعـتـرافـاً بدورها فى مـرافـقـة الـزوج وتشـجـيـع الجـنود، وحضـورها المستمر فى المعسكر.

ثم وجـه «سـقيروس» انتبـاهه بعـد ذلك إلى «ألبنيـوس» الذى أراده بعض الشيـوخ إمبراطوراً، فسـير قواته إليـه، وكان ألبينوس قد عـبر من بريطانيا إلى بلاد الغال (فـرنسـا قديماً) - فـهزمه سـقـيروس عند منطقة ليـون الفـرنسـيـة عـام ١٩٧ للمـيـلاد، وقـتل ألبـينوس وزوجـتـه وأولاده، وأصـدقـاؤه، وعلى الأقل ٢٩ من أعـضـاء مـجلس الـشـيـوخ الذيـن كـانوا يؤيدونه.

ولقـد قيل إن فكرة سـقيروس فـى القـضاء عـلى منافسـيه - نيـجـر

والبينوس – بدلاً من أن يجعلهما خلفائه، كانت تعوز أساساً إلى طموح «چوليا» التى اقترحت عليه القضاء عليهما، وشجعته فى الإعداد لذلك لكى تجعل من أبنيها خلفاء لأبيهما على عرش روما، لكن لا شك أن «سفيروس» كان يريد لأبنيه أيضاً أن يرثا العرش، ولكى يضفى «سفيروس» مظهر الشرعية على حكمه فقد أعلن «ماركوس أورليوس» الذى مات عام ١٨٠م أباً له بالتبنى، كما زعم أن كمودوس كان شقيقاً له!

وبعد أشهر قليلة من انتصار «سفيروس» فى ليون صحبت چوليا زوجها فى رحلة أخرى، لكن إلى الشرق هذه المرة، وإلى أفريقيا عام ٢٠٣ على وجه التحديد. وبعد عودتهما أقيمت الألعاب الرياضية فى روما عام ٢٠٤ ميلادية إيذاناً بافتتاح عهد جديد. وعلى خلاف الإمبراطورة السابقة، كان لچوليا دور بارز فى الاحتفالات. ولكن رغم الاحترام وآيات الشرف، التى حظيت بها «چوليا» فى روما وفى طول الإمبراطورية وعرضها، فإن السنوات القليلة الأولى من القرن الثالث، لم تكن سارة، ومن ثم لم تكن «چوليا» سعيدة؛ والسبب أنها واجهت مشكلتين حادتين: الأولى: عدو فى البلاط الإمبراطورى، والثانية: سلوك الابنين:–

كان «بلوتيانوس Plautianus» الذى كان مثل سفيروس من مواليد شمال أفريقيا يتمتع بثقة الأمبراطور حتى أصبح الوزير الأثير المقرب إليه؛ جمع ثروة طائلة وتغلغل نفوذه فى كل مكان حتى نصبت له التماثيل فى طول العالم الرومانى، وفى عام ٢٠٢ ميلادية رتب لزواج ابنته بلوتيلا Plautilla من بسيانوس الذى أصبح يلقب الآن «كاراكلا» الابن الأكبر لچوليا وسفيروس، رغم معارضة چوليا،

ومعارضة العريس، معاً فى إتمام هذا الزواج!

كانت چوليا حانقة على نفوذ «بلوتيانوس» القوى على هذا النحو، وهو أول قائد يتمتع بسلطات واسعة، ويسئ استغلالها أسوأ استغلال. وقد كان زواج ابنته من أكبر أبناء الإمبراطور ضماناً لحسن مستقبله، لكن لسوء حظه ثبت أنه كان إيذاناً بسقوطه، فعندما زادت أطماع «بلوتيانوس» وأثارت من فى القصر أجبر الإمبراطور – الذى لا يزال يحبه – على قتله على غير رضا منه(١).

لقد كان بلوتيانوس يعامل «چوليا» الرقيقة بطريقة سيئة؛ لأنه كان يمقتها بشدة لرجاحة عقلها وكياستها، وكثيراً ما كان يدس لها عند الإمبراطور، ويثير الشبهات حول سلوكها، ويجمع الأدلة ضدها، بإكراه نساء نبيلات على الشهادة الزور عن طريق التعذيب! ويذهب بعض المؤرخين أنه أقنع الإمبراطور بمحاكمتها، لكنها برئت من جميع التهم!

ومن حسن الطالع أن «جيتا.. Geta» شقيق سفيروس وهو يرقد على فراش الموت عام ٢٠٤م أخبر سفيروس أن «بلوتيانوس» غير جدير بثقته، وبعد ذلك الإتهام بالتآمر لقتل الإمبراطور، وتم إعدامه فى العام التالى(٢٠٥م)، ويروى أحد المؤرخين أن أحد الذين شهدوا إعدام

---

١ – إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول ص ١٧٤ – وانظر فى نفس هذا الكتاب حاشية ص ١٧٤ حيث يقول چيبون «من أكبر تصرفاته نزقاً وجراة أنه خصى مائة من أحرار الرجال الرومان فيهم المتزوج، وفيهم رب الأسرة، لا لشئ، إلا أن يكون فى ركاب ابنته عند زواجها من الإمبراطور الصغير حاشية من «الخصيان» مما هو جدير بملكة شرقية..

بلوتيانوس «انتزع بضع شعيرات من لحيته وأحضرها إلى بوتيلا (ابنته) «وچوليا» الإمبراطورة، ولم تكونا تعرفان شيئا عما حدث. وصاح وهو يقدم لهما شعيرات اللحية:

«انظرا ! ها هو ما تبقى من بلوتيانوس! وسوف يسبب لأحدكما الفرح والبهجة، وللأخرى الحزن والألم..!»(١).

أما المشكلة الثانية التى كانت تواجه «چوليا» فهى أن الابنين «كاراكلا» و«جيتا» كانا يقضيان معظم أوقاتهما فى اللهو والمتعة والتسلية كعادة الأفراد فى ذلك الوقت، لكن الأسوأ من ذلك أن كلاً منهما كان يكره الآخر! ولقد حاول الإمبراطور، عبثاً، أن يخضع الابنين لسيطرته، وأن يعيشا فى إنسجام كل منهما مع الآخر. وصحبا الأب فى حملة إلى بريطانيا عام ٢٠٨م لعلهما يستفيدا من وجودهما خارج روما، وأن ينخرطا فى سلك الحياة العسكرية، وأن يعيشا معاً عيشة الأباطرة. فأعطى لجيتا Geta – الابن الأصغر – مسؤلية المنطقة الواقعة تحت السيطرة الرومانية، فى حين واصل سڤيروس مع «كاراكلا» السير ضد البرابرة الذين غزوا الولاية من الشمال. غير أن الإمبراطور اشتد عليه مرض النقرس، الذى كان يعاوده بين الحين والحين، حاول «كاراكلا» أن يسيطر على الجيش، وأن يثير الافتراءات ضد شقيقه، بل بلغ به العقوق أن طلب من الأطباء أن يعجلوا بوفاة والده، الذى كان قد تجاوز الستين آنذاك، وأقعده داء النقرس حتى استلزم الأمر أن يحمل على محفة! وكلما اشتد المرض على سڤيروس

1- Beatrice H. Zedler: Julia Domna, P.190.

اشتعلت نار الأطماع الوحشية والأحاسيس السوداء فى نفس الابن الأكبر وضاق ذرعاً بالإبطاء فى تقسيم الإمبراطورية، ولقد حاول أكثر من مرة التعجيل بالأيام القليلة الباقية من حياة والده، وجهد دون جدوى فى إحداث فتنة بين الجنود. وقضى سڤيروس نحبه فى يورك York فى ٤ فبراير عام ٢١١م وهو فى الخامسة والستين من عمره، وفى السنة الثامنة عشرة من حكم مجيد موفق. وفى لحظاته الأخيرة أوصى ولديه بالوفاق والوئام، كما أوصى الجيش بهما خيراً، وأحرق جثمانه وأخذت «چوليا» الرماد المتبقى من الجثة إلى روما ليدفن فى ضريح فخم شيد للأباطرة(١).

كانت «چوليا» تقف إلى جانب زوجها فى جميع الإصلاحات التى قام بها طوال حكمه، سواء فى الإدارة أو القيام بالأعمال العامة، أو إقامة الجسور وإصلاح الطرق، وترميم المبانى القديمة، كما ساعدته «چوليا» فى إصلاح «قاعة الاجتماعات للنساء» وإعادة معبد ڤستا .. Vestaإلهة المدفأة عند الرومان. وكانت رحلاتهاالمتعددة مع زوجها – وهو ما تظهرنا عليه صورها على العملات ونقوش المبانى – دليلا على تقدير زوجها لها، وما تقوم به من دور هام بوصفها إمبراطورة. أما الآن فقد تركها وحيدة، تعانى مشكلة الانقسام بين ولديها، والصراع بينهما على من يرث العرش بعد وفاة الأب.

لقد أوصى المستشارون الذين عينهم الأب فى حضور «چوليا» بتقسيم الإمبراطورية بحيث ينال «كاراكلا» أوروبا كلها، فى حين تكون

1- Ibid.

أسيا من نصيب «جيتا» . لكن چوليا عارضت التقسيم بقوله: «فى استطاعتكم يا أولادى، تقسيم الأرض والبحار جميعا، لكن كيف يمكن لكم تقسيم الأم؟!» وهكذا رفضت فكرة التقسيم، وإن ظلت الكراهية تعمل عملها بين الشقيقين، وأخيراً استجاب «كاراكلا» لتوسلات أمه- بخبث ودهاء - ورضى بلقاء أخيه فى بيتها على أساس أن تتم المصالحة والتراضى بينهما - وفيما هما يتحدثان اندفعت جماعة من الضباط كانوا مختبئين بسيوف مسلولة، وانهالوا على «جيتا» وحاولت الأم المذهولة أن تحميه بين ذراعيها، ولكن عبثا كانت تكافح، وجرحت يدها وتلطخت بدماء ابنها الأصغر، بينما رأت الأكبر يستحث السفاحين ويعاونهم، ثم يفر إلى المعسكر ويرتمى على الأرض أمام تماثيل الآلهة. وعندما عاد إلى القصر وجد جمعاً من النسوة النبيلات يبكين الابن الأصغر الذى لقى حتفه قبل أوانه، فهددهن الإمبراطور الحقود بالموت فوراً، بل إنه نفذ تهديده بالفعل فى بعضهن، واستقبل حكمه بإعدام عدد كبير قُدر بأكثر من عشرين ألفاً من الجنسين كان من بينهم حراسه ووزراؤه ومعاونوه، فضلاً عن كل من ارتبط بأقل صلة بجيتا..Geta . ووضع فى ذهنه: كسب محبة الجيش، والنظر إلى بقية رعاياه على أنهم قليلو الأهمية، «وراح يتنقل بين أوروبا وآسيا. وحدث أن كانت تصحبه أمه، وهو يقيم فى سوريا، عندما اقترب منه ضابط اسمه «مارتياس» مدعياً أنه إنما يؤدى واجبه وطعنه بالخنجر، وكانت

تلك نهاية المارد الجبار الذى لطخت حياته الطبيعة الإنسانية بالعار[1].

ويقول أحد المؤرخين إن أمه حزنت عليه: «ولم يكن حزنها بسبب موته، أو أنها أرادت له طول العمر، بل لأنها شعرت بالحيرة عندما تبين لها أن عليها أن تعود من جديد إلى حياة خاصة...»[2].

---

١ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الأول، ص ١٩٢.

2 - Beatrice H. Zedler : Julia Domna P.122.

ثانيًا : چوليا ... الفيلسوفة:

كانت «چوليا» الإمبراطورة مشغولة بتأدية واجباتها الرسمية، فى الوقت الذى كانت تتابع فيه إهتماماتها العقلية وتطوير ثقافتها ودراساتها الفلسفية. ويتمثل الدليل التاريخى على ذلك فى شهادة اثنين من معاصريها: الأول هو: الفيلسوف اليونانى السوفسطائى «فلوستراتوس Philostratus» ١٧٠ - ٢٤٥ميلادية الذى تعلم فى أثينا أولاً، ثم قام بالتدريس فيها بعد ذلك قبل أن ينتقل إلى روما ويستقر فى بلاط الإمبراطورة «چوليا»، ويصبح أحد أعضاء حلقتها الفلسفية، وهو صاحب كتاب «حياة السوفسطائيين»(١).

والشاهد الثانى هو: السياسى والمؤرخ الرومانى «ديوكاسيوس Dio Cassius (١٥٥ - ٢٣٠ميلادية) الذى كتب «تاريخ روما» فى ثمانين كتاباً، كان الأول - فلوستراتوس - لا يتحدث عنها إلا ويلقبها بـ«چوليا .. الفيلسوفة»، كما يذكر أن «حلقة چوليا كانت مؤلفة من علماء الرياضة والفلاسفة»، ويقول أنه كان أحد أعضاء هذه الحلقة.

أما «ديو» فهو بعد أن يذكر السلوك العدائى لـ«بلوتيانوس» الوزير الأثير المقرب إلى سفيروس - تجاه چوليا يقول: «ولهذا السبب فقد بدأت چوليا تدرس الفلسفة، وتقضى معظم وقتها مع

1 - Ethel M. Kersey: Women Philosophers. A Bio-Critical Source Book.green Wood Press N.Y 1989, p137.

السوفسطائيين» ، ثم يشير إلى الفترة التى كانت فيها «چوليا» تتسلم رسائل رسمية من ابنها، وتقوم باستقبال الرجال المرموقين فى «نيقوميديا» ، وأنطاكية فى آسيا الصغرى من عام ٢١٥ إلى عام ٢١٧م يقول عنها ديو: «إن چوليا كرست نفسها أكثر وأكثر لدراسة الفلسفة مع هؤلاء الرجال..».

هذه التعليقات من جانب معاصرى چوليا توحى بالأسئلة الآتية:

١ - مَنْ هم أعضاء حلقة چوليا، أو صالونها الأدبى؟ وماذا كانت اهتماماتهم؟

٢ - مَنْ هم فلاسفة السوفسطائية فى عصرها؟!

٣ - ما هى الفلسفة التى درستها؟

٤ - وما هى الفلسفة التى كانت تفضلها.. ؟!

سنحاول فيما يلى الإجابة عن هذه الأسئلة على التوالى:

ثالثًا: صالون جوليا الأدبى أو حلقتها الفلسفية:

مَنْ هم أعضاء هذا الصالون...؟ يذكر فلوستراتوس أن حلقة جوليا كانت تتألف من «علماء الرياضة والفلاسفة». ويبدو أن مصطلح علماء الرياضة هنا كان يعنى علماء التنجيم .. Astrologers، حيث كان التنجيم فى ذلك الوقت جزءا لا يتجزء من الرياضيات. والأرجح أن «جوليا» احتفظت باهتمامها بهذا العلم من سوريا، ولا سيما أنها ولدت فى مدينة حمص، وتربت على الديانة السورية القائمة فى ذلك الوقت، ولقد سبق أن ذكرنا أن والدها كان الكاهن الأكبر «لإله الجبل»، وفضلاً عن ذلك فيبدو أن زوجها كان يشاركها الاهتمام بالتنجيم ايضاً، فقد سبق أن ذكرنا أنه كان يستشير الأبراج فى أمر زواجه، وأنها هى التى أوحت إليه بهذه الفتاة السورية التى يقول طالعها إنها ستتزوج ملكاً. وعلى الرغم من أنه يعوزنا أسماء علماء الرياضة والتنجيم فى صالون جوليا الأدبى، أو حلقتها الفلسفية، فإن هناك أسماء كثيرة يذكرها المؤرخون الذين أعدوا قائمة طويلة من المثقفين المرموقين فى عصر «جوليا»، وذهبوا إلى أنهم جميعا كانوا أعضاء فى صالونها، فضلاً عن أخت جوليا واسمها «جوليا ميسا» وأبناء عمومتهاوبعض أقاربها. والقائمة تضم الآتى أسماؤهم:

١ – «بابنيان Papinian» وهو محامى مرموق – ويحتمل أن يكون ابن عم جوليا – الذى عمل فى خدمة الإمبراطور سفيروس، وقام بكثير من الإصلاحات القانونية الهامة فى الإمبراطورية.

٢ – «أولبيان Ulpian، وهو تلميذ المحامى السابق بابنيان، وأحد المشتغلين بالقانون. وكان عضواً فى المجلس الاستشارى للإمبراطور سفيروس.

٣ – «أوبيان Oppian» الشاعر الذى أهدى كتاباً عن الصيد للإمبراطور الإبن كاراكلا قائلاً: «إلى دونا العظيمة التى وهبته إلى سفيروس العظيم».

٤ – «أثنايوس Athenaeus» مؤلف كتاب: «السوفسطائيون على العشاء»، وهو شرح للمأدبة السوفسطائية، ويحوى معلومات كثيرة متناثرة.

٥ – الاسكندر الأفروديسى – الفيلسوف المشائى الشهير والملقب بالشارح الأكبر لأرسطو، وكانت عضويته فى هذه الحلقة سببا – فيما يبدو – فى أن قام الإمبراطور سفيروس برعايته وتعيينه رئيساً للمدرسة المشائية فى أثينا.

٦ – «سرينس سامونيكس .. Sammonicus Serenus» الذى قتله «كاراكلا» بعد مقتل شقيقه جيتا .. Geta.

٧ – «جالينيوس .. Galen» (١٢٩ – ٢١٥م) الفيلسوف والطبيب اليونانى الذى جال فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية قبل أن يستقر فى روما ويصبح طبيباً فى بلاط الإمبراطور «ماركوس أوريليوس». وانصبت فلسفته على: فلسفة العلم، والطبيعة، والمنطق.

٨ – «ماريوس ماكسيموس Maximus Marrius، الذى ألف

كتاباً عن «حياة سبتموس سڤيروس» ، وهو الكتاب الذى أصبح مرجعاً فى التاريخ الرومانى.

٩ - «ديو كاسيوس Dio Cassius» المؤرخ الرومانى الشهير وصاحب كتاب «التاريخ الرومانى» فى ثمانين كتاب، كما أنه ألف أيضاً كتاباً صغيراً عن الأحلام والبشائر.

١٠ - «جورديان .. Gordian» الذى كان حاكماً للمقاطعات الرومانية فى إفريقيا، والذى أهداه «فلوستراتوس» كتابه المعروف عن «حياة السوفسطائى» ، وأصبح هو نفسه إمبراطوراً فيما بعد، ولكنه كان باستمرار شخصية مثقفة حتى قيل عنه إنه كان يقضى أيامه فى صحبة أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وفرچيل.

١١ - مجموعة منوعة من السوفسطائيين الذين سيرد ذكرهم فى القسم التالى[١].

رابعًا: السوفسطائيون .. The Sophists

لا شك أن دارس الفلسفة اليونانية عندما يلتقي بمصطلح «السوفسطائي» فسوف يرد إلى ذهنه في الحال أسماء لامعة مثل: «بروتاجوراس .. Protagoras» صاحب العبارة الشهيرة «الإنسان مقياس الأشياء جميعًا»، و«جرجياس Gorgias» صاحب كتاب «في الوجود، أو في الطبيعة» وكتبه الأخرى في الخطابة - ولاسيما كتابه: «رسالة في فن الخطابة»، وقد يستدعي مصطلح السوفسطائي أيضاً افلاطون وأرسطو، ورأيهما في الفيلسوف السوفسطائي أنه الرجل الذي كان يدعي الحكمة وهو عاطل منها ... إلخ إلخ.

غير أن مصطلح السوفسطائي في عصر «چوليا» لم يكن له أي معنى ذمّي، كما أنه لم يكن يدل على الموقف الفلسفي الشهير القديم، بل إنه كان في الواقع لقباً أو مصطلحاً شرفياً يطلق على الخطباء ومعلمي البيان الذين وصلوا إلى الذورة في المهارة الخطابية. فالسوفسطائيون في القرنين الثاني والثالث الميلادي كانوا على رأس المثقفين الذين ينالون تقديراً عالياً من علية القوم، ومن عامة الناس على حدٍ سواء، كما كان الأباطرة يقدرونهم وينعمون عليهم بالمناصب والأماكن الرفيعة في الدولة، ولهذا فقد بلغوا من الثراء حداً جعلهم يغدقون الهبات على جماعاتهم بإقامة المباني العامة. كما أنهم أظهروا في حياتهم أن فن الإقناع يمكن أن يكون وسيلة للنجاح في الحياة العامة. وأحد مصادرنا الرئيسية عنهم هو «فلوستراتوس» الذي كان عضوا بارزاً في صالون «چوليا».

ويميز فلوستراتوس فى كتابه «حياة السوفسطائيين» بين «السوفسطائية القديمة» التى أسسها «جورجياس» فى القرن الخامس قبل الميلاد والسوفسطائية الثانية التى أسسها «إسكينس .. Aes-chines[1]» فى القرن الرابع ق. م.

لقد كان الفن السوفسطائى القديم يتعلق «بالخطابة الفلسفية» طالما أن أولئك الذين استخدموه كانوا يتخذون مواقف فلسفية فى الموضوعات المطروحة فى ذلك الوقت مثل: الشجاعة، والعدالة، والاعتدال، والشكل الحالى للعالم.. إلخ. أما السوفسطائية «الثانية» (ويفضل فلوستراتوس استخدام كلمة «الثانية» بدلا من كلمة «الجديدة»)، فإن أتباع إسكينس Aeschines عالجوا موضوعاتهم من زاوية مختلفة: فيها السياسة، وفيها الثقافة العامة، وفيها تنقيح فن الخطابة نفسه. ومن ثم فقد كانت الموضوعات التى يدرسونها مستمدة من التاريخ والأدب اليونانى القديم، كما كانوا يستعرضون فيها مهاراتهم فى فن البيان.

ويذكر «فلوستراتوس» فى كتابه أولئك الذين ينطبق عليهم مصطلح «السوفسطائى» على الرغم من أن السوفسطائى – فى رأيه – ليس فيلسوفاً خالصاً، فإنه لابد أن يبدأ بالإصغاء، بعمق، إلى ثمانية من الفلاسفة، يبدو أنهم كانوا من السوفسطائيين؛ لأنهم يستعرضون

---

١ – كان إسكينس ٣٨٩ – ٣١٤ق. م. خطيباً أثينياً بارعاً. وهو يمثل الجيل الثانى من السوفسطائيين فيما يقول «فلوستراتوس»، كما كان معارضاً سياسياً لدموستين فى الجمعية الأثينية.

نظرياتهم بسهولة ويسر، وفصاحة وبيان، وبعد ذلك يناقش «فلوستراتوس» تسعة من السوفسطائيين القدامى منهم «بروتاجوراس» و«جورجياس» و«هيبياس»، و«أنطيفون»، و«بروديقس».. إلخ، وأكثر من ٤٣ من السوفسطائية الثانية، رغم أنه ربما لم يكتب كتابه هذا عن «حياة السوفسطائيين» إلا بعد وفاة چوليا، فمن الصواب أن نفترض أنه طالما أن «فلوستراتوس» كان عضواً بارزاً فى صالون چوليا التى كانت خبيرة بتاريخ السوفسطائية، فإنه كان يعرض عليها المعلومات ويناقشها فيما يصل إليه من معارف، وأنها كانت تتتبع تأليفه للكتاب.

وشاهدنا على أنه كان يفعل ذلك نستمده من رسالة كتبها إلى «چوليا» يخبرها فيها أن أفلاطون لم يكن يمتعض منالسوفسطائيين، بل كان على العكس، معجباً بهم، حتى أنه تبنى الصورة الأدبية للحوار التى كان يستخدمها «جورجياس» و«بروتاجوراس» و«هيبياس». ثم يذكر كذلك أمثلة من المفكرين الذين رأوا أنه ينبغى محاكاة السوفسطائيين، ومنهم «إسبازيا الملطية» التى يقال إنها شحذت لسان بركليز وهذبته حتى يقلد «جورجياس» ثم يضيف: وإسكينس أيضاً الذى تعرفينه (والخطاب موجه إلى چوليا) وناقشنا حديثه فيما كتب من محاورات بأسلوب قاس، لم يتردد أن يكتب على غرار جورجياس فى حديثه عن مفكرة مرموقة هى «ثارجيليا.. Thargelia».

ويختتم فلوستراتوس رسالته بقوله:

«أيمكن أن نرجو أن تقومى أنت أيضاً أيتها الملكة العظيمة بحث بلوتارك (٤٦ – ١٢٠م) أجرأ اليونانيين، أن يكف عن إهانة

السوفسطائيين، وإلا يسوق حماقات عن «جورجياس»؟! فإن فشلت فى إقناعه، فأنت - على أقل تقدير - تعرفين، بحكمتك وحصافتك، الاسم الذى يطلق على رجل من هذا القبيل[١].

ولما كان «بلوتارك» كاتب السير اليونانى المعروف قد مات قبل أن تولد «چوليا» بنصف قرن، فقد تشكك البعض فى صحة الرسالة، غير أن «فلوستراتوس» عندما يطلب من «چوليا» أن تتحدث إلى رجل ميت، فإنه يستخدم عامداً - فيما يبدو - ضرباً من الفن الأدبى القديم، ولا سيما أن «چوليا» كانت على علم تام بفلسفة «جورجياس» وغيره من السوفسطائيين القدامى[٢].

وبالإضافة إلى معرفة «چوليا» بالسوفسطائيين القدماء، فإن كتاب «فلوستراتوس» يساعدنا فى معرفة «السوفسطائيين فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين الذين عرفتهم چوليا معرفة شخصية، ومنهم الأسماء الآتية:

---

1 - Qouted by Beatrice H. Zedler: Op. Cit. p.125-126.

٢ - لاحظ أن السوفسطائيين القدامى كانوا أول واضعين حقيقيين لعلم الخطابة. ولقد كان هذا العلم هو العلم الذى يجب أن يوضع فى هذا العصر من حيث إنه الممثل الحقيقى لروح العصر، كما أنه المعبر عن إحدى خصائص الروح اليونانى، وهى الميل إلى النضال الذى ظهر أولاً فى الحياة الجسمية (الألعاب الرياضية فى بلاد اليونان) ثم انتقلت المنافسة فى القرن الخامس إلى الميدان الفكرى، وأصبحت أداة المنافسة هى الكلام أو الخطابة، ولذا كان للخطابة المكان الأول فى الحياة الروحية اليونانية - انظر فى ذلك د. عبد الرحمن بدوى «موسوعة الفلسفة» المجلد الأول ص ٥٨٨ - ٥٨٩ المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت عام ١٩٨٤.

* «أبو للونيوس Apollonius، الأثينى (وهو غير أبو للونيوس الطيانى الفيثاغورى الذى سنتحدث عنه بعد قليل)، الذى كان فى زيارة للإمبراطور سفيروس عام ١٩٦ أو ١٩٧، ودخل فى منافسة خطابية وظفر فيها.

* «هيراقليدس .. Heracleides، الكاهن الأكبر فى لقيا Lycia[1] الذى اشتهر بأنه سوفسطائى. وله حادثة معروفة هى أنه انهار وهو يرتجل خطاباً أمام الإمبراطور سفيروس.

* «إيليان .. Aelian» وهو مفكر رومانى عاش فى عهد سفيروس، وكان يتحدث اليونانية بطلاقة، وقد ألف فى التاريخ، كما أنه كتب عن طبيعة الحيوان.

* وهناك سوفسطائى آخر كان معروفاً جيداً للإمبراطور وزوجته چوليا وهو «انتيباتر Antipater، الذى كان معلماً خصوصياً لابنيهما، كما أنه عمل وزيراً لدى سفيروس. وكتب مرثية بعد مقتل جيتا .. Geta أغضبت شقيقه، ومات فى الثامنة والستين من عمره «بأن أمسك، إرادياً، عن الطعام»!

* ويقول «فلوستراتوس» أن هموكراتس Hemocrates كان عضواً فى الحلقة السوفسطائية، كما أن هليودورس Heliodorus كان أيضاً من بين الحلقة السوفسطائية.

---

١ - كانت لقيا Lycia مقاطعة بحرية قديمة فى الجزء الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى، ثم اصبحت ولاية رومانية.

* ويقول أيضاً عن فلسكس.. Philiscus من تساليا إنه عندما كان فى روما: «التحق بحلقة چوليا التى تضم مجموعة من الفلاسفة وعلماء الرياضيات، وحصل منها - برعاية الإمبراطور - على كرسى الخطابة فى أثينا»، ولقد استمر يشغل كرسى الخطابة فى أثينا لمدة سبع سنوات.

* كما كان «فلوستراتوس» نفسه أحد الأعضاء البارزين فى صالون چوليا الأدبى أو حلقتها الفلسفية، كما كان من المقربين إليها، ولهذا نراه بعد أن يذكر «چوليا» بالاسم يقول: «كنت أنتمى إلى حلقة الإمبراطورة التى كانت معجبة للغاية بممارسة البيان والخطابة»، وهو فى نهاية كتابه «حياة السوفسطائيين» يعتبر نفسه واحداً من السوفسطائيين. يقول:

«أما عن فلوستراتوس، وعن قدراته فى القانون والمحاكم، والبلاغة، والسياسة، وكتابة البحوث، وإلقاء الخطب الحماسية - وأخيراً: موهبته فى الحديث المرتجل - فليس لى أن أتحدث عن ذلك»(١).

وهناك كاتب من المحدثين فَحَصَ حلْقة «چوليا» أو صالونها

1 - Beatrice H. Zedler: Op. Cit. p.126.

الأدبى فحصاً دقيقاً، ثم قال فى النهاية:

«لقد كانت هناك حلقة من السوفسطائيين والفلاسفة تشارك فيها «چوليا» بنفسها فى المناقشات، وتستمتع بما يدور فيها من حوار، كما كان فلوستراتوس، وفلسكس السوفسطائيين عضوان فيها...»[1].

1-Ibid. P126.

خامسًا : ما هى الفلسفة التى درستها چوليا...؟

لا تقدم لنا نصوص المعاصرين «لچوليا» إجابة واضحة ومباشرة عن هذا السؤال. فها هو «فلوستراتوس» فى كتابه «حياة السوفسطائيين» يشدد على أسلوب البيان، والخطابة عند من كان يحضر الحلقة من الرجال، كما كان هناك بعض السوفسطائيين الذين اهتموا بأفلاطون والأكاديمية، ونحن نعرف أيضاً من كتابه أنه جرت العادة فى زمن ماركوس أورليوس أن يعين الإمبراطور لافقط أساتذة كراسى البيان والخطابة فى أثينا وروما، بل أيضاً أساتذة: الأفلاطونية، والأرسطية، والرواقية، والأبيقورية. وربما ظل هذا التقليد حتى زمن «چوليا». وعلى كل حال فإن «فلوستراتوس» يشير إلى الأنواع الأساسية من الفلسفة فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين التى ربما رغب الطالب فى معرفتها. لكن الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف اهتمامات «چوليا» الفلسفية فربما كان الأفضل أن نبحث عنها فى الكتب التى امرت بتأليفها؛ فهى تدل، بالقطع على منحى التفكير عندها.

سادساً: الفلسفة التى اهتمت بها چوليا:

قلنا إنه ربما كان لـ«چوليا» اهتمامات فلسفية رئيسية، ويمكن أن نجدها فى الكتب التى تم تأليفها بأمر من الإمبراطورة، فما هى هذه الكتب؟! من الثابت أن «چوليا» أمرت فلوستراتوس بتأليف كتاب عن سيرة حياة أبو- للونيوس الطيانى - فمن هو هذا الفيلسوف؟ وما الذى جذب انتباهها إليه؟

١ - أبوللونيوس الطيانى Appollonius of Tyana

هو فيلسوف يونانى من الفيثاغورية المحدثة فى القرن الأول الميلادى (ولد قبل المسيح بأربعة أعوام)، وكان بمثابة «مسيح وثنى»، درس فى طرطوس وفى أجيا فى معبد اسكليوس، ووقف نفسه على مذهب فيثاغورس، سافر إلى الهند، وزار بابل ونينوى وهو فى طريقه إليها، كما زار اليونان وإيطاليا وأسبانيا. وقصة حياته مليئة بالخوارق والمعجزات حتى عده الناس ساحراً، ولكنه كان يؤكد أنه لا يملك سوى عطية الاستبصار والتنبؤ. وبعد أن نجا بأعجوبة من نيرون ودومشيان، مات عن مائة عام فى أفسس حيث أسس مدرسة فيثاغورية، وقد بلغ حد القداسة فى هذه المدينة، حتى أن صوره كانت ترفع فى كثير من المعابد. وقد ابتنى له «كاراكلا» معبداً، ونحن نعرف من كتبه «حياة فيثاغورس» وقد اعتمد عليه فرفريوس ويامبليخوس، ونحن نعرف أن

من تأليفه أيضاً «رسالة فى العرافة»... إلخ إلخ(١).

٢ – تلك كانت فكرة سريعة وعامة عن هذا الفيلسوف الذى اهتمت به «چوليا» وأمرت بتأليف كتاب عنه. فما الذى شد انتباهها إليه؟! لقد شد انتباهها فى الواقع بعض الذكريات عن «أبوللونيوس» رواها تلميذه «داميس .. Damis»، وعرضها بأسلوب شيق قائلاً إنه: «يأمل أن يكون كتابه على شرف أبوللونيوس، وأن تكون فيه فائدة لأولئك الذين يحبون العلم»(٢).

لقد نظر بعض الناس إلى «أبوللونيوس» على أنه ساحر وعرّاف، ويروى فلوستراتوس بعض الروايات عن قدرته السحرية، حتى أننا لا نستطيع أن نفرق فى أنشطته العادية بين الواقع والخيال، لكن الحقيقة أن أبوللونيوس كان فيلسوفاً من المدرسة الفيثاغورية المحدثة، ولد فى طيانا Tayana فى إقليم كابادوسيا Cappadocia فى الجزء الشرقى من أسيا الصغرى، ودرس فى شبابة :فلسفة أفلاطون، والمدرسة المشائية، والرواقية، والأبيقورية، وفيثاغورس. وفى السادسة عشرة من عمره اعتنق حياة الزهد الفيثاغورية ومارسها، فامتنع عن تناول اللحم، وشرب الخمر، وأدان التضحية بالحيوانات كقرابين للآلهة، ولم يكن يرتدى من الملابس سوى المصنوعة من الكتان، كما كان طويل الشعر، ملتحياً، وباختصار: عاش حياة الفقر والزهد والعفة، ومارس

---

١ – قارن حياته بالتفصيل : جورج طرابيشى «معجم الفلاسفة»، ص ٣٦ دار الطليعة – بيروت.

٢ – اقتبسته بيراتس زدلر فى بحثها «چوليا دومنا» السالف الذكر ص ١٢٨.

طقوس المدرسة الفيثاغورية ومنها «الصمت»، إذ يروى عنه أنه ظل خمس سنوات فى صمت مطبق، وتعلم كثيراً من الكهنة ورجال الدين فى جميع البلدان، فعندما سافر إلى فارس - وهو فى طريقه إلى الهند - التقى «بالمجوس» - كهنة الزرادشتية- كما التقى فى الهند برجال الدين البراهمة وحاورهم فى الهندوسية» والتقى بالفلاسفة «العراة»، كما سافر إلى مصر وتعلم من كهنة وادى النيل. ثم اليونان، وإيطاليا، واسبانيا...إلخ، كما سبق أن ذكرنا. ولقد اتهمه الإمبراطور نيرون .. Neron اتهاماً باطلاً بأنه خائن - وكذلك فعل الإمبراطور دومشيان.. Domitian واستطاع الإفلات من الموت باعجوبة، ومات خلال حكم نيرفا Nerva، أعنى فيما بين ٩٦ و٩٨م[١].

وكان فيثاغورس الذى يعتبره «أبوللونيوس» ملهمه الروحى، قد أسس فى القرن السادس قبل الميلاد جماعة دينية - كما سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب، كانت تدرس العلوم ولاسيما الرياضيات - سارت على قواعد صارمة فى حياتها كوسيلة للتطهر والعمل على خلود النفس، وهى قواعد فصلنا فيها القول فيما سبق. وكانت الفيثاغورية المحدثة إحياءً للتعاليم الفيثاغورية القديمة ممزوجة ببعض العناصر الأفلاطونية والصوفية. وكان مودراتوس Modera-tus، وأبوللونيوس Appollonius أعظم ممثليها فى القرن الأول الميلادى.

١- الإمبراطور الرومانى ماركوس نيرفا (٣٥ - ٩٨) كان إمبراطوراً لروما لمدة عامين فقط من ٩٦ حتى ٩٨ .

لقد نظر بعض الباحثين إلى كتاب فلوستراتوس عن «حياة أبوللنيوس» على أنه رواية، أو قصة خيالية. لكن بغض النظر عن دقة الكتاب من الناحية التاريخية، فهو كتاب هام بالنسبة لنا «بوصفه سجلاً للمبادئ التى أحيتها «چوليا الفيلسوفة» ولاسيما وأننا لا نعلم عن كُتب «چوليا» نفسها شيئاً، ومن ثم ففى غيبة تأليف «چوليا» فإننا سوف ننظر إلى هذا الكتاب لا على أنه كتب بتكليف منها فحسب، بل على أنه يكشف كذلك عن الأفكار الأساسية التى اهتمت بها، وأرادت تنميتها وتطويرها، ولقد دارت هذه الأفكار حول موضوعات متنوعة وهامة منها: الله، والإنسان، والخلود، والأخلاق الشخصية، والفلسفة السياسية... إلخ(١).

ومن الواضح أن «أبوللونيوس» عبر عن ميله لفلسفة فيثاغورس حيث يقول: «مذهبى الخاص فى الحكمة هو نفسه مذهب فيثاغورس فيلسوف ساموس.. Samos»، كما انه تعلم من فيثاغورس الشئ الكثير حول السلوك العملى فى الحياة: ضبط النفس، والسيطرة على رغباتها، والسير بقواعد حكيمة. كما تعلم منه ضرورة عبادة الآلهة: «وأن يعترف بوجودها سواء أكانت مرئية أم لا»، وهكذا تعرف على الله خالق العالم الذى أخرج الأشياء جميعا إلى الوجود؛ لأنه إله خير(٢).

وكان أسلوب العبادة الذى يسير عليه أبوللونيوس هو نفسه أسلوب العبادة عند «چوليا»، إبنة الكاهن الأكبر لإله الجبل الذى عرفته

1-Beatrice H. Zedler Op. Cit. p.128.
2-Idid. P.129.

منذ نعومة أظافرها، عندما كانت تصلى لإله الشمس الذى كان يتحكم فى الفصول الأربعة وبذلك كان مصدر: الضوء والنور والنار، وإنضاج المحاصيل، كما أن أبوللونيوس – مثل چوليا – دعا إلى إقامة تماثيل للآلهة فى المعابد، وأعتقد أن هذه التماثيل – سواء أكانت لأبوللو، أو زيوس، أو أثينا – تمثل جهد العقل البشرى لتصور الحقيقة المثالية. ولكنه نقد التراث المصرى الذى كان يصور الآلهة فى صورة حيوانات[1]، ففى رأى أبوللونيوس أن:

«هناك تشابهاً معيناً بين الآلهة والإنسان، ولقد مكّن هذا التشابه الإنسان من دون جنس الحيوان أن يتعرف على الآلهة، وأن ينظر فى الطبيعة والطريقة التى تشارك بها فى الجوهر الإلهى... إن الناس الطيبين الخيرين يحملون فى أعماقهم شيئاً من هذا الجوهر الإلهى»[2].

وهو يرى أن كل شئ يحمل فى داخله نفساً خالدة، ومصدر وجود هذه النفس هو «ما لا ينسل»، كما أنه اعتقد، مثل أفلاطون، أن

١ – يعتقد هيجل على العكس أن عبادة الحيوان تمثل الارتباط بين ما هو روحى وما هو طبيعى، ومن ثم فإن العبادة المصرية التى هى اساساً عبادة الحيوان هى الأكثر تطوراً ورقياً، ويقول ايضاً: «من المؤكد أن الأمم التى عبدت الشمس والنجوم ليست أعلى قدراً من تلك الأمم التى عبدت الحيوانات، بل العكس هو الصحيح، لقد تصور المصريون فى عالم الحيوان الشئ الباطنى، وما هو غير قابل للإدراك..» محاضرات فى فلسفة التاريخ «العالم الشرقى» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ص ٢٠٣ – ٢٠٤ مكتبة مدبولى بالقاهرة.

2-Beatrice H. Zedler: Op. Cit. P.130.

النفس بما أنها مقيدة بجسدٍ فانٍ فهى مسجونة، ومن ثم فقد قارن بين حياة النفس فى البدن وحياة الإنسان داخل السجن، واعتبر الموت هو الخلاص أو الفرار من هذا السجن. غير أن أبوللونيوس كان على وعى بأن هناك آراء مختلفة ومتنوعة عن النفس، ويعتقد فلوستراتوس أننا لو أخذنا بتعاليم أبوللونيوس عن النفس «فإننا نستطيع – بفرح ومتعة، وبمعرفة جديرة بطبيعتنا البشرية – أن نشق طريقنا إلى الهدف الذى رسمته لنا ربات القدر Fates..»[١].

أما هو هذا الطريق الذى رسمته لنا ربات القدر، فذلك ما يتضح من نصوص كثيرة من سيرة حياة أبوللونيوس، على الرغم من أنه لا يعرض بحوثاً نظرية فى فلسفة الأخلاق، فإننا نجد تشديداً وتركيزاً عن حاجتنا إلى تحصيل فضائل: الحكمة، والشجاعة، والعدالة، والاعتدال، وضبط النفس. ولقد اعتقد أبوللونيوس أن الإنسان الذى يعشق الحكمة هو أعظم من كولوسس رودس.. Colossus of Rhodes[٢]. أما بالنسبة للشجاعة فقد شدد أبوللونيوس على أنه لا يكفى أن تمتلك الفضيلة كصفة، بل لابد للمرء أن يمارسها أيضاً.

وكان أبوللونيوس يُعلم تلاميذه فضيلة العفة، والاعتدال، وضبط النفس، ولهذا فقد حصر نفسه – بالنسبة لاستخدام الأمور المادية – فى

---

١ – ربات القدر Fates : ثلاث ربات فى الأساطير الرومانية وهن: فانى، ولاكسيس، وكلوثو. ولكل واحدة منهن وظيفة خاصة تقوم بها فى حياة الإنسان. راجع إمام عبد الفتاح إمام «معجم ديانات وأساطير العالم» مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٢ – تمثال ضخم لإله الشمس هليوس Helios، كان ارتفاعه يزيد عن ٣٠ متراً، أقيم حوالى ٢٨٠ق. م. ويعتبر هذا التمثال إحدى عجائب الدنيا السبع.

الضرورات الأساسية، لأنه اعتقد أن أسوأ الرذائل جميعاً هى رذيلة الجشع والشر! وفضلاً عن ذلك فقد انتقد السُّكر والنهم فى تناول الطعام. كما اعتقد أنه لكى نبقى على ذهن الإنسان صافيا، فمن الأفضل أن يبقى «مرحاً فى رصانة واتزان» وها هنا نراه يفضل أن تشرب الماء بدلاً من الخمر، وإن كان لا يطلب من أصحابه أو من الملوك الامتناع الكامل عن تناول الخمر، بل فقط الاعتدال فى تناولها. يقول:

«... الفلسفة بالنسبة للملك هى أن يندمج الاعتدال والانغماس معا بنسب معقولة، أو هى الإفراط والصرامة معاً... لكى يكون لديه الكبرياء وعزة النفس».

ولقد دار النقاش حول موضوع العفة عندما تساءل داميس.. Da-mis تلميذ أبوللونيوس: هل يمكن أن توجد فضيلة العفلة لدى الخصى...؟ ولقد أجاب أبوللونيوس بقوله: «إن فضيلة العفة لا يمكن أن توجد لدى الخصى، طالما أن العفة الجنسية لا ترجع إليه هو، بمعنى أنه لم يختر ذلك وإنما جاء رغماً عنه،وهو يذهب إلى أن العفة الحقيقية – مثلها مثل الاعتدال – لا تعنى العجز عن الإفراط أو الإقلال فى أفعالك أو رغباتك، بل هى تنبع من القرار الذى تتخذه وتسير عليه، بحيث تجعل أفعالك ورغباتك تحت سيطرتك(١)».

وفى مناقشة أبوللونيوس للعدالة نراه يشدد أيضاً على المعنى الإيجابى للفضيلة، ويطرح السؤال الآتى: هل مجرد الامتناع عن الظلم يشكل العدل...؟ لقد تعلم أبوللونيوس من براهمة الهنود أن العدالة هى

1-Beatrice H.Zedler: Julia Domna P.130.

أكثر كثيراً من أن تعنى اللاظلم، أو عدم ارتكاب أفعال ظالمة؛ ذلك لأنها تتطلب من المرء أن يكون إيجابياً فى فعل ما هو عدل، وأن يحث الآخرين على عدم ارتكاب الظلم(١).

ولم يكن «أبوللونيوس» مهتماً بأخلاق الفرد فحسب، بل أيضاً بأخلاق المجتمع، فقد كان مهتماً، بصفة خاصة، بالطريقة التى نحقق بها الانسجام فى المجتمع، وكيف يمكن للفلسفة أن تعين الحاكم وتساعده فى أفعاله، وتقف بجواره وترشده فى سلوكه. وهو يعترف من الناحية الواقعية بوجود منافسة بين المدن (أو الدول)، لكنه يعتقد أن هذه المنافسة ينبغى أن توجه نحو إبراز ما هى المدينة التى تقوم بأداء واجباتها على خير وجه، وتحقق بالتالى مانسميه بالصالح العام. وكثيرا ما نراه يردد ما يقوله أفلاطون فى «الجمهورية»: «...يبدو لى أنه من الأفضل لكل مرء أن يفعل ما يفهمه أحسن من غيره، وأن يفعل الفعل الذى يمكن أن يفعله أفضل من غيره...».

أما من حيث الفلسفة السياسية فقد اعتقد أبوللونيوس أن النظام الملكى هو أفضل صور الحكم، ولاسيما إذا كان حاكم القطيع البشرى راعياً عادلاً ولقد عاش هو نفسه تحت حكم العديد من الأباطرة الرومان، ذكر منهما اثنين على أنهما حاربا الفلسفة والفلاسفة، فقد أصدر

1-Ibid, P.131.

الإمبراطور نيرون .. Neron [1]، مرسوماً بتحريم الفلسفة، فلا يجوز لأحد في روما أن يقوم بتدريسها أو دراستها، وكذلك فعل الإمبراطور الثاني وهو دومشيان Domitian [2] الذي جعل مجرد كلمة «الحكمة» إهانة أو إساءة يستوجب صاحبها العقاب، كما أصدر مرسوماً يعاقب الفلاسفة ويتعقبهم، في الوقت الذي نجد فيه أباطرة رومان آخرين، من أمثال فسبازيان Vespasian [3]، وتيطس Titus [4] - يطلبون العون من أبوللونيوس ويسألونه المشورة، ولقد قال في معرض رده على فسبازيان: «إن جلالة الملك لا يعلّمه أحد، بل أقصى ما يستطيع أن يفعله

---

١ - نيرون Neron (٣٧ - ٨٦) إمبراطور روما ٥٤ - ٨٦م تميز عهده بالطغيان والوحشية. أقنعته عشيقته أن أمه تتآمر عليه لتسقطه، فرضي أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها، فطاردها رجاله حتى قصرها ولما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم «ادفعوا سيوفكم في رحمي»، واحتاج قتلها عدة طعنات، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله «لم أعرف أن لي أمًّا بمثل هذا الجمال» وكان نيرون يومها شاباً في الثانية والعشرين من عمره (عام ٥٩م) مغرماً بالشعر والموسيقى، والفنون الجميلة، والتمثيل، أحرق روما عام ٦٤م، واتهم المسيحيين بذلك واضطهدهم، وانتحر بعد أن ثار عليه القادة العسكريون في إفريقيا، وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا).

٢ - دومشيان Domitian (٥١ - ٩٦م) إمبراطور روماني (٨١ - ٩٦) ابن الإمبراطور فسبازيان. رقي العرش خلفاً لأخيه الإمبراطور تيطس Titus، كان حكمه استبدادياً يتسم بالقصوة والوحشية، حارب الفلسفة، وتعقب الفلاسفة.

٣ - فسبازيان.. Vespasian (٩-٧٩م) إمبراطور روماني (٦٩-٧٩م) حاول القضاء على تمرد اليهود بمحاصرة أورشليم (القدس)، ثم ترك الحصار لابنه تيطس Titus وهرع إلى روما لكي يقر النظام فيها بعد انتحار «نيرون».

٤ - تيطس Titus (٣٩-٨١م) إمبراطور روماني (٧٩-٨١م) ابن الإمبراطور فسبازيان وخليفته أعاد بناء روما بعد أن أحرقها نيرون.

أن يقدم له مجموعة من النصائح والإرشادات العامة منها:

* مارس سلطتك باعتدال.

* دع القانون يحكمك أنت قبل أن يحكم رعيتك.

* احترم الآلهة.

* لتكن عاهلاً خيراً وصالحاً».

فما الذى يمكن أن يهم الإمبراطورة «چوليا» من ذلك كله..؟! لا شك أنها اهتمت بالجوانب الأخلاقية والسياسية معاً: الأخلاق الشخصية التى تهم الفرد فى سلوكه، والأخلاق الاجتماعية التى تساعد فى تحقيق الانسجام فى المجتمع. ومن ثم فقد اقتنعت تماماً بأن الفلسفة يمكن أن تكون مرشدة لا فى حياة المرء الشخصية فحسب، بل فى ممارسة السلطة السياسية أيضاً.

على الرغم من أن «فلوستراتوس» لم يكن قد انتهى بعد من تأليف كتابه عن «حياة أبوللونيوس» عندما ماتت چوليا عام ٢١٧م - فإنها بغير شك كانت على علم بمضمونه، فهى التى أمرت بتأليفه وعاصرت مراحل هذا التأليف، وشجعت «فلوستراتوس» وساندته فى كل مرحلة. ومن ثم فقد ذهب أحد الكتاب، بحق، إلى أن هذا الكتاب: «يقدم لمحات مضيئة لذهن امرأة لعبت دوراً رائداً فى فترة حاسمة من التاريخ الرومانى»، وذلك بسبب أنها هى نفسها كانت عاشقة للفلسفة، كما كانت تؤمن بخلود النفس، وحاجة الإنسان إلى الفضائل العقلية والخلقية، بقدر حاجته إلى الإرشاد والتوجيه الذى يمكن أن تقدمه الفلسفة لأولئك الذين لديهم سلطة سياسية ويمارسونها.

وعلى الرغم من أن المذهب الفيثاغورى الجديد نسخته الأفلاطونية المحدثة، فلاشك أن «چوليا» قد وجدت الكثير من الموضوعات التى اهتمت بها عند أبوللونيوس، وكانت جديرة بأن تعجب بها، كما وجدت الكثير من التعاليم الفلسفية المألوفة فى الفلسفة الكلاسيكية.

الخـــاتمــــــة :

تلك هى المرأة اللامعة التى كانت شعلة مضيئة فى مدينة روما، فلماذا أطلق عليها المؤرخون فى القرن الثالث الميلادى لقب «چوليا ... الفيلسوفة» ؟

فى استطاعتنا أن نجيب، فى إيجاز، أن سبب التمسمية يرجع لانشغالها بالفلسفة، ودراستها لكثير من الموضوعات والمشكلات الفلسفية، كما أنها أمرت بتأليف كتاب عن فيلسوف من الفيثاغورية المحدثة، رأت أن أفكاره لابد أن يعرفها الناس لما لها من أهمية، كما أنها كانت على علم، وصلة مباشرة، بأفكار السوفسطائيين القدماء، وبمعلمى الخطابة من السوفسطائية الثانية فى عصرها، وفضلاً عن ذلك كله فقد تعلمت هى نفسها من خلال صالونها الأدبى، وحلقتها الفلسفية، كما شجعت هى نفسها الآخرين أن يتعلموا، أما واقعة أنها كانت إمبراطورة، فقد كانت ذات مغزى خاص، لقد سبق أن رأينا أن بعض الحكام السابقين من الرجال الأشداء من أمثال «نيرون» و«دومشيان» قد حرموا الفلسفة دراسةً وتدريساً، واضطهدوا الفلاسفة ونفوهم خارج البلاد، وأعدموا أساتذتهم على نحو ما فعل «نيرون» مع سنكا الفيلسوف الرواقى الكبير، عندما أمره بالانتحار، فقطع الرجل شرايينه وترك الدماء تسيل حتى قضى نحبه! أما «چوليا دونا» فقد استخدمت سلطتها الإمبراطورية فى حماية الفلسفة، كما أنها ساعدت على ازدهار الفلاسفة، وأعطتهم المكانة التى يستحقونها، وأمرت بتأليف

الكتب عنهم، وتحليل أفكارهم، ومناقشة فلسفاتهم... وليس ذلك بالإنجاز الهين[1]!

وتقول إثيل كيرزى... Ethel M. Kersey إن «چوليا دونا».. أو «چوليا الفيلسوفة» هى المرأة التى أهدى إليها ديوجنز اللايرتى Dio-genes Laertius كتابه الشهير «حياة مشاهير الفلاسفة»[2].

1-Beatrice H.Zedler: Julia Domna p.123 in"A History of Women Philosophers" Vol I..

2 - Ethel M.Kersey: "Women Philosophers A Biocritical Source Book" Greenwood Press, New Yourk, 1989, p.137.

٧

الفصل السابع

«ماكرينا ... Makrina»

«جوهر النفس هو قدرتها على التفكير العقلى، ولافرق فى ذلك بين الرجل والمرأة...»

ماكرينا... Makrian

أولاً: حياتها ومؤلفاتها:

ماكرينا Makrina (٣٣٠ - ٣٧٩م) قديسة، وفيلسوفة يونانية، وصاحبة أقدم نظام دينى لزهد النساء وتنسكهن، نقل إلينا حياتها شقيقها جريجورى Gregory (٣٣١ - ٣٩٦م) أسقف نيسا.. Nyssa من (٣٧ - ٣٧٦). وأحد آباء الكنيسة الشرقية، وأحد أبطال مجمع القسطنطينية (استانبول حالياً).

ولدت فى قيصرية الجديدة عام ٣٣٠ فى القرن الرابع الميلادى، وهى تنحدر من أسرة أرستقراطية، كان والداها - باسيليوس وإيميليا - ينتميان إلى الطبقة الأرستقراطية، حيث كانت الأسرة تملك أراضى شاسعة يعمل فيها العبيد. صحيح أن أملاك الأسرة صودرت، لكن من المحتمل أنها عادت إليها عند تولى الإمبراطور قسطنطين الحكم. كان جدها لأمها فقيهاً فى الديانة المسيحية، وضليعا فى الفلسفة اليونانية على حدٍ سواء. ويخبرنا شقيقها جريجورى كيف أن شقيقته «ماكرينا» عاشت حياة زهد وتنسك. ولقد اختار شقيقاها «باسليوس»، و«بتروس» حياة الزهد أيضاً، ولقد خلدها شقيقها الثالث «جريجورى» الذى امتدحها فى كتاب ألّفه عنها بعنوان «حياة ماكرينا Vita Makrina» ويذكر جريجورى أنه كان بينه وبين شقيقته مناقشات فلسفية حول خلود النفس والبعث والقيامة، حتى وهى على فراش الموت.

ولقد دون جريجورى هذه المناقشات فى محاورة جعل عنوانها «فى النفس والقيامة De Anima et Resurrectione.» بعد موتها مباشرة. ويتضح من هذه المحاورة أن «ماكرينا» كانت مثقفة ثقافة رفيعة، وأنها

كانت على دراية ممتازة بالفلسفة اليونانية، فقد علمتها أمها «إميليا Em-melia» لكنها لم تتلق أى تعليم رسمى، على نحو ما تعلم شقيقاها فى أثينا. ولقد برهنت «ماكرينا» على عقلية ممتازة وعلم واسع بالموضوعات التى ناقشتها الفلسفة اليونانية منذ أفلاطون، ويذهب الباحثون فى حياتها إلى أن محاورة « فى النفس والقيامة» هى الشطر الثانى من محاورة فيدون لأفلاطون(١).

1 - Ethel M. Kersey: Women Philosophers: A Bio-Critical Source Book, "P. 146, Green Wood.

ثانيًا : ماكرينا ... والتراث الروحي:

١ - وحدة النفس وخلودها

تدافع ماكرينا في محاورة «في النفس والقيامة» عن خلود النفس، في حين يلعب جريجوري دور الخصم، لكي تزداد الحقيقة وضوحاً وتألقاً، وتقلب القضية من جميع الجوانب. أما وجود النفس فهو أمر مسلم به طوال المحاورة على نحو ما جرت العادة في العالم القديم كله. وتصف ماكرينا طبيعة النفس على النحو التالي:

«النفس جوهر مخلوق حي وعقلاني تتغلغل فيه قوة الحياة، والقدرة على إدراك الموضوعات الحسية، وهي توجد في جسم عضوي مزود بالحواس، على قدر ما تهب الطبيعة هذه القوى»[1].

ويذكرنا وصفها لملكات النفس بوصف أفلاطون في محاورة «فيدون»، فيما عدا أن ماكرينا تسمي النفس «بالجوهر المخلوق». أما في محاورة فيدون فإن أفلاطون يضع النفس في مرتبة وسطى بين العالم الحسي المرئي وعالم المثل، أو العالم العقلي، وهو يقول في محاورة «طيماوس.. Timaeus» إن النفس خلقها الصانع «Demiurgos» ولاسيما الجزء الأعلى منها، وهو الجزء العقلي..»[2]. وتذهب ماكرينا إلى أن النفس هي مبدأ الحياة والحركة، لأن بقايا الجسد الميت ومخلفاته

---

1 - Quoted By: Cornelia W. Wolfskee L: Makrina, p.140.

2 - Plato: Timaeus 69. C.

عندما تصبح أشلاء هى نثرات تختفى عند الموت، والتصور الذى يقول إن النفس هى مبدأ الحياة موجود عند أفلاطون فى محاورة فيدون[1] بوصفه التصور الذى يذهب إلى أن النفس هى ملكة الإدراك والتفكير، ولا يمكن أن تكون شيئاً مادياً.

غير أن برهان ماكرينا على خلود النفس ليس هو نفسه برهان أفلاطون فى «فيدون»؛ فعندها أنه لابد أن تكون هناك قوة عقلية وروحية قادرة على التوفيق والتنسيق، وتفسير نتائج كل فعل من أفعال الإدراك الحسى. وهذه القوة الروحية هى: النفس التى هى واحدة، وبسبب هذه الواحدية فإن النفس تبقى بعد فناء الجسد؛ لأن البسيط غير المركب لن يفنى عندما يتلاشى المركب، وهذا يعنى أن النفس التى هى مبدأ الحياة: خالدة. ويظهر هذا البرهان فى الفصل السابع من محاورتها مع شقيقها جريجورى، ويعارض شقيقها فكرتها التى تقول إن النفس تبقى أيضاً مع العناصر التى يعود فيها الجسد الميت. غير أن «ماكرينا» تدافع عن قضيتها: ففى رأيها أن النفس واحدة، وروحية، وغير قابلة للفناء، ولا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء مهما يكن نوعها[2]، إن النفس لا يمكن أن تكون مع عنصر – كما يقترح جريجورى – وتترك بقية العناصر، فواحدية النفس وعدم قابليتها للقسمة، يضمنان عدم فنائها.

سوف نتحدث فيما يلى عن زهد «ماكرينا» وتنسكها، لكن لما كان

1-Phaedo,105.C.

2-Cornelia W. Wolfskeel Op. Cit. P.141.

هذا الزهد يمكن أن يفهم أفضل فى ضوء تراث الزهد المسيحى، وغير المسيحى، الذى استمر قرونا طويلة، فإنه يبدو من الأفضل أن نصف بإيجاز الحياة العقلية والروحية فى القرن الرابع قبل أن نناقش فلسفة ماكرينا فى شئ من التفصيل.

٢ - الزهد أو التنسك Asceticism

الزهد أو التنسك، بصفة عامة، هو كبح الرغبات الجسدية والنفسية وقهرها؛ تحقيقاً لهدف دينى أو مثل أعلى روحى. وهى عملية روحية قديمة مارسها كثير من أتباع الديانات المختلفة، لكن يتخذ الزهد نظاماً أشد صرامة - فى مظهره - فى المسيحية التى قالت إن جسد الإنسان والأرض التى هو جزء منها مأخوذان بخطيئة آدم، فهما لا يستحقان من المسيحى الصحيح سوى الازدراء، وأن الشئ الوحيد ذا القيمة هو الروح. ومن هنا نشأت ظاهرة الرهبانية Monasticism المسيحية التى تحتم على أصحابها الاعتزال فى الأديرة والعيش فيها عيشاً قوامه: العزوبة، والعبادة، والفقر والصبر، والطاعة العمياء. وهذه الظاهرة ليست وقفاً على المسيحية، فللبوذية أيضاً رهبانيتها التى لا تقل صرامة عن رهبانية المسيحية.

ويلاحظ دودز.. Dodds أن القرن الرابع الميلادى شهد ميلاً قوياً نحو الزهد - سواء فى الديانة المسيحية أو غيرها - حتى أصبح ذلك الميل من السمات العامة لذلك العصر، وربما بدأ هذا الميل - فى القرن الأول قبل المسيح - على يد الأفلاطونية المحدثة المبكرة التى نظرت إلى الحياة على هذه الأرض على أنها أدنى من الحياة العليا، وقد تحررت

النفس من البدن وما يحيط به من عالم مادى. أما الأفلاطونية المتأخرة فقد ذهبت إلى أن «نفس» الإنسان هى الوسيط بين العالم العقلى والعالم الحسى الذى ينتمى إليه جسده. ومن ثم فإن الإنسان لا يشعر أنه فى بيته، وهو على هذه الأرض، وهو يريد أن يتجاوز هذه الحياة الأرضية. وهناك سمة رئيسية وجوهرية فى نفس الإنسان هى أنها تحاول باستمرار أن تبقى على اتصال بالعالم العقلى، حتى أن هدف الإنسان أثناء وجوده على الأرض هو الوصول إلى «عالم المثل» بأن تعيش حياة زهد وتقشف، وعفة، وطهارة، ونقاء. وبمعنى آخر: على الإنسان أن يحيى حياة يقوم العقل بتوجيهها إلى العالم العقلى؛ حتى يحمى نفسه من تجسد جديد بعد الموت. فلابد أن يكون ذلك هو الهدف الرئيسى لحياة الإنسان على الأرض. وتقوم النفس البشرية بمهمة مزدوجة فى المذهب الأفلاطونى Platonism أثناء حياة الإنسان على الأرض، وتكشف هذه المهمة المزدوجة عن تناقض فى «النفس»؛ لأنها تجد نفسها فى مرتبة وسطى بين العالم المعقول والعالم المحسوس، أما عند أفلوطين Plotinus (٢٠٤ – ٢٧٠م) وتلميذه فرفوريوس.. Porphyry (٢٣٢ – ٣٠٤م)، فإن المرتبة الوسطى للنفس تؤدى إلى ظهور الزهدوالتنسك نتيجة للإفراط فى التأمل المجرد.

وهكذا ظهرت سمة عامة للأفلاطونية المحدثة هى الحط من كل ما هو مادى، والتطلع – فى شوق عارم – لتجاوز هذه الحياة الأرضية عن طريق الزهد والتنسك. ولهذا قيل إن التصوف عند أفلوطين كان

تصوفاً من نوع خاص، إنه «تصوف عقلي»[1]، فقد نظر إلى الفضيلة الأخلاقية وحياة الزهد والتأمل العقلي على أنها وسائل أساسية، وجهود ضرورية تبذلها النفس البشرية، حتى تتحرر من قيود الحياة الجسدية. وهكذا لاتكون الحياة الفاضلة ممكنة بدون درجة معينة من الزهد، أو قل إن حياة الزهد ضرورية لكي نصل إلى العالم العقلي، عالم المثل الذي توحد الأفلاطونية المحدثة بينه وبين العقل الآلهي أو النوس.Nous، وتنظر إليه على أنه المثال الحق للفضيلة.

ولقد كتب «فرفريوس» إلى زوجته مارسللا.. Marcella يقول إن التطهر والزهد يكمنان خلف توظيف العقل، وذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى الله، ولهذا فإنه ينظر إلى الرجل والمرأة على انهما متساويان من حيث «النفس»، وهما معاً قادران على الدخول في حياة الزهد والتنسك، والقيام بالممارسة العقلية التي تحقق الهدف النهائي للحياة، ألا وهو الاتحاد بالله[2].

٣ – الغنوصية ... Gnosticism[3]

الغنوصية، أو مذهب العرفان، مذهب عقلي نشأ في نطاق

---

١ – التساعية الرابعة لأفلوطين – دراسة وترجمة للدكتور فؤاد زكريا – وزارة الثقافة بمصر – الهيئة المصرية عام ١٩٧٠ ص ٥٢.

2 - Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.142.

٣ – مصطلح الغنوصية .. Gnosticism مشتق من الكلمة اليونانية «غنوص Gnosis» ومعناها: المعرفة.

الكنيسة المسيحية خلال القرن الأول الميلادى، وازدهر بصفة خاصة خلال القرن الثانى للميلاد، أكد أصحابه أهمية المعرفة الروحية بأكثر مما أكدوا أهمية الإيمان، كما حاولوا التوفيق بين تعاليم المسيح والفلسفات الإغريقية والشرقية، وأنكروا التفسير الحرفى للكتاب المقدس. ومن أجل ذلك اعتبرتهم الكنيسة هراطقة..Heretics ومارقين عن الدين.

وتوجد خصائص الزهد أيضاً فى الغنوصية التى تنظر إلى العالم الحسى باحتقار، وتعتبره شراً فى ذاته، فقد اعتبرت المادة مبدأ مستقلا، ومصدر كل شر. وهذا ما نجده فى مذهب «باسيليدس.. Basilides»[1] أحد أتباعها. كما أن العالم الحسى لم يخلقه الله العلى العظيم فى مذهب «فالنتينوس.. Valcntinus»[2]، بل خلقه «الصانع» ومساعدوه، وهى كائنات شريرة وأرواح دنسة عن طريقها تدلف إلى الخليقة الانفعالات والأهواء. وهذه الخليقة هى نفسها التى أضاف إليها الله العلى العظيم بذرة من الجوهر العلوى هى: الروح. وكل تاريخ العالم هو تاريخ الكفاح ضد جماعة الشياطين التى تحاول القضاء على هذه البذرة. ويمكن للقارئ أن يلحظ بوضوح ما فى الغنوصية من ثنائية مانوية، فقد كان

---

١ – غنوصى مصرى سكندرى من النصف الأول من القرن الثانى الميلادى، وهو مؤسس إحدى عبادات الأسرار التى استمرت قروناً بعده.

٢ – غنوصى مصرى كتب باليونانية – ولد فى أواخر القرن الأول الميلادى ومات حوالى ١٦١م. أصله من مصر درس فى الإسكندرية، وطاف حول البحر الأبيض، عكف فى روما على دراسة النصرانية، وانتهى به الأمر إلى اعتناقها، اتهم بالهرطقة بسبب أفكاره الغنوصية، ولم يحل ذلك دون انتشارها والتأثير فى كثرة من التلاميذ الذين انقسموا بعد وفاته فئتين: المدرسة الأناضولية، والمدرسة الإيطالية.

العالم – والمادة فى ذاتها – شر فى مذهب مانى Mani [١]، والخيط المشترك بين جميع المذاهب الغنوصية هو أنه لابد من إنقاذ الإنسان من هذا العالم، واحتقار الجسد والمادة والأمور الدنيوية، وهذه الخاصية موجودة فى الغنوصية منذ سيمون Simon المجوسى[٢] الذى قام بكثير من الأعمال السحرية التى تشبه ما تدعو إليه الغنوصية – أدت إلى الزهد الذى تغلغل فى المسيحية المبكرة. غير أن هذا التشابه لا يقدم لنا رابطة أساسية بين الغنوصية والمسيحية.

٤ – الغنوصية، والمسيحية، ودونية المرأة

كانت الغنوصية، إذن، تعتقد أن الشر الأصلى لهذا العالم حقيقة واحدة، وهى تفسر وجود هذا الشر بسبب أن هناك «صانعاً» هو الذى أوجده من مادة شريرة، وليس الخالق العظيم. أما المسيحية فهى، من ناحية أخرى، تؤكد خيرية العالم، وخيرية الله، فالعالم خلقه الله العلى العظيم وهو إله خير، ولهذا جاء العالم خيرا فى أصله، لكنه أصبح شريراً عندما عصى الإنسان إرادة الله، ولهذا تجاذب الموقف المسيحى بين رفض العالم وقبوله، ولاسيما فى بداية المسيحية. فالكون الذى

---

١ – مانى بن فاتك (٢١٦ – ٢٧٤م) من أنبياء الفرس، جاء ليتم عمل زرادشت وبوذا والمسيح، وتكمن الثنائية Dualism : فالله العلى العظيم يعارضه أمير الظلام، والاثنان عنصران أوليان والعالم مخلوق من أجسام حكام الظلام ولهذا فهو شر. راجع فى ذلك كله «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» ترجمة د.إمام عبد الفتاح إمام ص ١٥٠ وما بعدها، مكتبة مدبولى، بالقاهرة.

٢ – أعمال الرسل : الإصحاح الثامن : ٩ – ١٠.

نراه لابد من قبوله على اعتبار أنه خير أو حسن: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (سفر التكوين الإصحاح الأول:٣١) لكن بسبب واقعة أنه «شر» لابد من رفضه. ويبدو أن تيارات الزهد التى كانت قائمة فى القرن الأول الميلادى – انعكس أثرها على الزواج، متأثرة فى ذلك بما جاء على لسان القديس بولس – مؤلف سفر الرؤيا – والنظر إلى العذرية على أنها أفضل من الزواج[١].

ويشير بعض الباحثين إلى أن الإنسان قد شعر بعدم الأمان، فى العصر القديم فى عالم يسوده التغير المستمر، فحاول أن يهرب من هذه المشاعر المقلقة، وأن يبحث لنفسه عن مأمن فى نوع من «الغنوص.. Gnosis» وهو استبطان المرء، وضياع ذاته فى المناطق المجهولة من النفس، وفى كراهية هذا العالم. وانحطت المرأة التى كان ينظر إليها على أنها مجرد جسد مادى – إلى مرتبة أدنى من الرجل فى جميع المذاهب الغنوصية، وهكذا اعتبرت المرأة خطراً على الرجل، وتجسدت المشاعر التى يهرب منها حتى دفعته إلى أن يسلك فى حياة الزهد والتسلط[٢].

١ – قارن «حسن للرجل الا يمس امرأة». رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح السابع: ١. وأيضاً: «أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا لما أنا» – ٨ من نفس الإصحاح. وانظر أيضاً: «هؤلاء هم الذين لم يتجسسوا مع النساء لأنهم أطهار...» رؤيا يوحنا اللاهوتى الإصحاح الرابع عشر: ٤.

2 - Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.143-144

ثالثًا: ماكرينا ... وروح المرأة:

يروى جريجورى شقيق «ماكرينا» تعريفها للنفس «فى محاورة فى النفس والقيامة»، لكنه يعتقد أن هذا التعريف غير كافٍ فى تفسير ملكات النفس، فهو يعتقد أن هناك ملكات أكثر من ملكات التفكير، وإعطاء الحياة، والإدراك الحسى، فهناك أيضا ملكات خاصة بالرغبة والغضب التى يمكن النظر إليها كدوافع لكثير من الانفعالات، ومن الواضح أنها ليست جسدية، ومن ثم لابد أن تنتمى إلى النفس أكثر من أن تنتمى إلى البدن. أو أن نقول بوجود نفس أخرى. وهاتان الفكرتان مستبعدتان عند ماكرينا مادامت ماهية النفس هى ملكة التفكير، فالانفعالات – من ناحية – لا يمكن أن تنتمى إليها، كما أننا لا نستطيع أن نفترض وجود فى نفس أخرى بداخلنا – من ناحية أخرى.

وأجابت ماكرينا أن اعتراضات «جريجورى» وجيهة، فلاشك أن بداخلنا انفعالات كالجوع والرغبة، لكن هل هذه الانفعالات تنتمى إلى ماهية النفس؟ أم أنها أضيفت إليها بعد ذلك؟ تلك أسئلة ينبغى بحثها والإجابة عنها، ولتعتقد ماكرينا أن على أولئك الذين يتحدثون عن النفس أن يضعوا الكتاب المقدس فى أذهانهم. فالكتاب المقدس يقول إن النفس مخلوقة على «صورة الله»، فهى إذن تشبه الله، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون فيها انفعالات ولا أشجان!

غير أن «جريجورى» يعود إلى السؤال: وماذا تظنين فى أمر الانفعالات: الرغبة، والغضب، والجوع، وما إلى ذلك؟ وتجيب ماكرينا: إن هذه حركات داخلية لا تنتمى إلى ماهية النفس، وإنما هى فقط مجرد

قشور Incrustation للنفس؛ لأننا، جميعاً، قادرون على محاربة هذه الانفعالات والانتصار عليها، وهى قدرة تكون فى بعض الأحيان عظيمة النفع لنا.

عرضنا بإيجاز أهم سمات النقاش بين ماكرينا وجريجورى. حيث تظهرنا ماكرينا على إلمام بالفلسفة اليونانية، بما فى ذلك محاورة «فيدون» لأفلاطون، وكتاب النفس De Anima.. لأرسطو، ثم يتصل الحوار بينها بعد ذلك نتيجة لتعليق ماكرينا القائل بأن جميع الانفعالات يمكن ردها إلى انفعالى: الرغبة والغضب، دون أن نعتبرهما ينتميان إلى ماهية النفس، لأن ملكة التفكير هى جهد النفس. ويعترض «جريجورى» على استبعاد الانفعالات من طبيعة النفس رغم أن الكتاب المقدس لا يعتبر الانفعالات سيئة باستمرار، ومن ثم فهى ليست دائماً مما يجدر استبعاده والتخلص منه. وتوافق «ماكرينا» على ذلك، لكنها تعود فتقول إننا نحن الذين نوجه الانفعالات فنجعلها أحياناً حسنة وأحياناً سيئة. كما أنها تشدد على واحدية النفس، وعدم قابليتها للفناء، وخلودها بفضل هذه الواحدية، والنفس البشرية الخالدة تبقى بعد موت البدن.

لاتتابع «ماكرينا» تعريف أرسطو للنفس من «أن النفس كمال أول لجسم طبيعى ذى حياة بالقوة»[1]، فهو يرى أن النفس هى

١ – أرسطو «كتاب النفس» ٤١٢ ظ – ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى – مراجعة على اليونانية الأب چورج قنواتى، الطبعة الأولى ١٩٤٩، دار إحياء الكتب العربية، ص ٤٢ – ٤٣.

«صورة» أو ماهية الجسم الطبيعى، ولهذا فلا يمكن فصلها عن البدن، ومن هنا فإن النفس تموت بموت البدن - وينطبق ذلك على النفس النباتية والحيوانية، بقدر ما ينطبق على النفس البشرية. غير أن النفس البشرية عند «ماكرينا» تمتلك أيضاً ملكة التفكير أو النوس ..Nous، وهى تأتى من الخارج وغير قابلة للفناء. وتلاحظ «ماكرينا» أن ملكات النفس هى القوة التى تهب الحياة والتفكير، والقدرة على الخلق والإبداع فى المادة. وعلى الرغم من أن أرسطو بحث جميع مظاهر النفس، فإنه ذهب إلى أن النفس فانية، ولهذا فإن «ماكرينا» تلوم أرسطو لأنه لم ينته من هذه الوقائع إلى إدراك وحدانية النفس وبالتالى خلودها. ويكمن تصور «ماكرينا» لوحدة النفس خلف نقدها لوجهة نظر أفلاطون فى الانفعالات، حيث يقول فى محاورة «فايدروس» بالتشبيه المجازى الشهير للنفس بالعربة يجرها جوادان جامحان مسئولان عن الانفعالات. وترفض «ماكرينا» هذا التصور؛ لأن النفس، عندها، واحدة وشبيهة بالله، وهى أساساً «بلا انفعالات»[١].

ولقد أصبح من الواضح من مناقشة «ماكرينا» لطبيعة النفس وللخلق البشرى، أنها لا ترى فروقاً جوهرية بين نفس الرجل ونفس المرأة، فجوهر النفس عندها، هو قدرتها على التفكير العقلى، ولا فرق فى ذلك بين الرجل والمرأة، وليست الانفعالات أجزاء جوهرية من النفس. ولا تلوم «ماكرينا» النساء - كما فعل كلمنت السكندرى - على

1- Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.145.

الانفعالات الشريرة أو الرذائل المختلفة[1] ؛ ذلك لأن «ماكرينا» كما رأينا لا تذهب إلى أن الانفعالات جزء من ماهية النفس بحيث تصبح جزءاً من طبيعة المرأة «بقدر ما يعود إلى الاختيار الحر لدى كل امرأة وهنا، تقع المسئولية على عاتق النساء فرادى، ولكنها لا ترجع إلى الطبيعة الجوهرية للنفس عند المرأة - وهو فهم أعمق كثيراً من تصور كلمنت السكندرى الذى اعتبر طبيعة المرأة بما هى كذلك «..شيئاً مخزياً ومخجلاً حقاً..»[2]، أما «ماكرينا» فترى أن طبيعة النفس واحدة، وهى سواء عند الرجال أوالنساء، وهى مخلوقة على «صورة الله» وشبيهة به...!

ويبدو أن شقيقها باسليوس Basilius الملقب بالأكبر، واحد «الأقمار الثلاثة»[3]- كما قيل عنه - وهو من معلمى الكنيسة - كان يشاركها هذه النظرية. فنحن نراه يشرح الإصحاح الأول من سفر التكوين بقوله:

---

١ - قارن رأى كلمنت السكندرى فى المرأة كتابنا «الفيلسوف المسيحى ... والمرأة» ص: ٦٦ وما بعدها، مكتبة مدبولى بالقاهرة (العدد الثالث من سلسلة الفيلسوف والمرأة).

٢ - المرجع السابق ص : ٦٨.

٣ - هو الأخ الأكبر لماكرينا (٣٢٩ - ٣٧٩م) درس أولاً فى القسطنطينية ثم فى أثينا، وعندما توفى والده عام ٣٥٦م عاد إلى قيصرية ليعلم فيها البيان. تنصر ثم طاف بمراكز التنسك والزهد فى سوريا، وما بين النهرين، ومصر. وبعد هذه الرحلة باع أملاكه ووزع ثمنها على الفقراء، وعاش متوحداً فى الريف بعيداً عن المدينة.

«تمتلك المرأة أيضاً خصائص الموجود الذى خلق على صورة الله بنفس الطريقة التى يمتلك بها الرجل هذه الخصائص، فطبيعتهما واحدة، ومتساوية فى الشرف، متساوية فى الفضائل، متساوية فى المنافع، متشابهة وقت الإدانة...[1]» ومعنى ذلك أن «باسليوس» ينظر إلى النفس – أو الذهن أو العقل – عند الرجال والنساء على أنه واحد، وعلى أنه صورة لله، أو هو قبس إلهى. وهما معاً – الرجل والمرأة – قادران على تحقيق التشبه بالله عن طريق الفضائل المختلفة، وإن كان التشبه الكامل لا يحققه – فى رأيه – سوى المسيح نفسه الذى كان كاملاً من كل وجه. وهكذا ينظر باسليوس إلى المرأة على أنها مساوية للرجل فيما يتعلق بقدرتها العقلية والروحية: «وذلك لأنها خلقت على صورة الله، فلها نفس العقل – أو الذهن – ومن ثم فلها الغلبة والسيطرة، كالرجل، على المخلوقات الأخرى (الدواب) وعلى رغباتها الدنيا...»[2].

1-Quoted by Cornelia W. Wolfskeel: Makrina, P.147

٢- افلوطين «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة بقلم. د. فؤاد زكريا ص ١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، عام ١٩٧٠.

رابعًا: ماكرينا ... والخلق، والتجسيد، والقيامة

تنبع آراء ماكرينا عن «الخلق» من فكرتها عن الانفعالات: فالإنسان فى الكتاب المقدس يقف على رأس المخلوقات، ومن ثم كانت النباتات والحيوانات تلى الإنسان فى ترتيب الموجودات. وتذهب ماكرينا إلى أن النفس النباتية موجودة فى النبات، على حين أن النفس النباتية بوظائفها، وكذلك ملكات الإدراك الحسى فى آن واحد موجودة فى الحيوان. أما جوهر النفس البشرية فهو قدرتها على التفكير، غير أن النفس مرتبطة كذلك بالطبيعة الحيوانية. ولقد اقتنعت «ماكرينا» بأن النفس خالدة، وأنها هى الحارسة للعناصر التى يعود فيها الجسد بعد الموت. فالجسد، عندها، يعاد نسجه من العناصر القديمة فى بدن أشد دقة، وسوف يشبه هذا البدن الروحى الجديد الجسد السابق، حتى أن النفس سوف يسهل عليها أن تتعرف عليه.

١ – ماكرينا وتراث أفلوطين

يبدو أن توحيد «ماكرينا» بين الله والخير والجميل، له أصول فى الأفلاطونية المحدثة، ولاسيما التساعية الأولى، والسادسة لأفلوطين. فضلاً عن أن أفلوطين يؤكد فى التساعية الرابعة أن للنفس البشرية مهمة مزدوجة وإن كانت واحدة: «النفس واحدة وإن اختلفت الملكة التى تعمل فى كلتا الحالتين. جميع الملكات الأخرى توجد فى كل من هاتين

الملكتين...»[1]، ويقول إن الجمال الموجود في العالم الحسي هو حث للنفس البشرية للسعي نحو جمال العالم المعقول الذي يكون العلم المحسوس نسخة أو صورة أو شبيه له، ويتساءل أفلوطين في التساعية الخامسة: لم تركت الأنفس الله والدها؟ لقد تجسدت في البدن لكنها تتطلع شوقاً تجاه العالم المعقول، أعني تجاه الله، وهو يذهب إلى أن العالم المعقول لاشر فيه، وإذا كان العالم المحسوس صورة أو نسخة منه فإن ذلك يعني أن هذا العالم المرئي يشارك بدرجة ما في ضرب من «الخيرية»، رغم وجود العنصرالمظلم في ذلك العالم الا وهو «الهيولى» أو المادة. وعند أفلوطين أن النفس البشرية أثناء وجودها في البدن عليها مهمة المحافظة عليه، لكن عليها أيضاً مهمة أخرى هي البحث عن طريق للعودة إلى العالم العقلي الذي جاءت منه، وهو يعتقد مثل أفلاطون في (طيماوس٨٧هـ) أن الإنسان مركب من نفس وبدن (التساعية الأولى) وهذا يعني أن الجسد الثاني هو أنسب جسد لطبيعة الإنسان، ولا علاقة لفنائه بسقوط النفس، فالنفس المتجسدة في بدن هي وحدها التي يمكن أن تخطئ. لكن ليس جسد الإنسان مما يمكن استعادته في نهاية الزمان إلى العالم المرئي المحسوس، وهو جزء من مسار أزلي للفيض.

وعلى العكس من ذلك تذهب ماكرينا إلى أن فناء جسد الإنسان الحالي سببه «السقوط»، أعني سقوط الإنسان في الخطيئة الأولى، فقد كان لدى الإنسان، قبل الخطيئة، جسد بلا انفعالات (انظر كتابها في

---

١ - أفلوطين «التساعية الرابعة» ترجمة ودراسة بقلم د. فؤاد زكريا، ص١٨٠، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠.

النفس والقيامة الفصل الثامن عشر)[١].

وتعتقد «ماكرينا» أن الجسد الروحي الذي يخلو من العواطف والانفعالات سوف تسترده النفس يوم القيامة. لقد كان أفلاطون في محاورة «طيماوس» يذهب إلى أن فناء الجسم البشري ينتمي أيضاً إلى طبيعة الإنسان، وقد صنعته الآلهة المرئية، في حين أن نفس الإنسان قد خلقها الصانع .. Demiurgos بنفسه، وهكذا كان الإنسان مركباً من النفس والبدن، وأصبحت مهمته الحياة في هذا العالم – كما جاء في محاورة طيماوس (٤١ هـ و٤٢ هـ)، وقد يفلت الإنسان من التجسيد أو التناسخ إذا ما عاش في البدن حياة حسنة مستقيمة. أما «ماكرينا» فمن الواضح أنها تختلف عن أفلاطون في تفكيرها فهي تذهب إلى أن الجسد البشري سوف تكون له قيامة، وسوف تسترده النفس في نهاية الزمان بطريقة خاصة.

تقول:

«سوف ترى، عندئذ، أن هذا الثوب البدني الذي تحلل الآن عن طريق الموت، سوف ينسج من جديد من العناصر ذاتها، لابناء على تركيبه الحالي الثقيل، وإنما سوف يغزل من خيوط أكثر رقة وأشد دقة..»[٢].

وعلينا أن نلاحظ أن «القيامة» فكرة مسيحية قلباً وقالباً، وأن

1- Cornelia W. Wolfskeel: Makrina P.157.

2- De Anima et Resurrectione "Quoted by Coronelia, Ibid, P.158.

«ماكرينا» تعتمد فى هذه الفكرة على الكتاب المقدس، على نحو ما سوف يتضح فيما بعد.

٢ ـ ماكرينا... وفورفوريوس

توجد عند فيلسوف الأفلاطونية المحدقة «فورفوريوس» ـ تلميذ أفلوطين ـ وجهة نظر يمكن أن نقارنها بأفكار أستاذه، فالتلميذ لا يعتقد أن الأشياء المادية أو الجسمية Corporeal سيئة أو شريرة، على الرغم من أنه، يعتقد أن من الضرورى للنفس أن تهرب من جميع الأشياء الجسمية، لكى تبلغ هدفها الحقيقى فى العالم العلوى. إن على البشر أن يتصوروا الله حاضراً فى كل ما يقومون به من أفعال؛ فهو يراقب تصرفاتهم وأفعالهم. والله هو علّة كل ما هو جميل وخير فى العالم، فى حين أن أفعال البشر هى علة الشر الأخلاقى. لقد كان أفلاطين يعتقد أن الخطيئة فى العالم سببها أن الإنسان يستسلم لأشياء هى أدنى من النفس، وعنده أنه عندما يولد المرء (وهو هنا يتابع أفلاطون فى طيماوس ٤١ ـ م) يضاف إليه نوع آخر من النفس تنتمى إليها الانفعالات المرعبة، وذلك إضافة إلى النفس العاقلة العليا فى الإنسان، وهكذا تصبح النفس البشرية مركبة، وهذه «التركيبة» هى التى يمكن أن ترتكب الخطايا، فى الوقت الذى تظل فيه النفس العليا للإنسان ـ التى هى الذات الحقة ـ كما هى لا تمس. أما فورفوريوس فهو يقول صراحة إن علة الخطايا الكبرى ينبغى ألا يبحث عنها داخل البدن، بل داخل النفس، وهو يرى أن الفضيلة هى الطريق الوحيد إلى الله، والإنسان الذى يلهث وراء اللذة يتعارض تعارضاً مطلقاً مع حبه لله. إن على المرء أن يتخلى عن

الانفعالات ويكبح جماح الإحساسات التى تثيرها، وهو يرى مثل أستاذه أفلاطون أن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى بعد الموت، رغم أنه يرفض صراحة تصور أفلاطون الذى عرضه فى طيماوس والذى يقول إن النفس يمكن أن تتجسد مرة أخرى فى جسد حيوان. والمرء خلال حياته على هذه الأرض يمكن أن يجد ثراءه الروحى داخل نفسه، ويمكن أن يعمل العقل؛ لأن عقل الرجل الحكيم (أو المرأة الحكيمة) هو معبد لله، والله هو الموجود الوحيد الذى يحتاج إليه الرجل الحكيم أو المرأة الحكيمة. ويعارض فورفوريوس فى كتابه «ضد المسيحيين Kata Christianoon» الذى وضعه فى خمسة عشر باباً - عارض العقيدة المسيحية فى قيامة الجسد. فعنده أن فكرة القيامة تتناقض مع تصور أزلية العالم. غير أنه يذهب إلى أن روح الإنسان الطيب لا يمكن أن تهبط من جديد أبداً، مادامت الحكمة الكاملة لا يمكن أن توجد فى هذه الحياة الدنيا، والحياة بعد الموت لا بد أن تكتمل عن طريق الوجود الإلهى.

٣ - ماكرينا... وتراث فيلو السكندرى

فيلو السكندرى (٢٠ق.م - ٥٠م) فيلسوف يهودى، أكبر ممثل للفكر اليهودى المثقف باليونانية فى ذلك العصر، أثَّر تأثيراً قوياً فى فكر الآباء (آباء الكنسية)، كما أدخل عنصراً جديداً فى تاريخ الفلسفة هو الوحى. كان يسمى بأفلاطون اليهود؛ لأنه حاول أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية. درس «فيلو» موضوع خلق الإنسان فى كتابه «فى الخلق» وأماكن أخرى، وشرح عقيدة «صورة الله» الواردة فى الإصحاح الأول من سفر التكوين، غير أن شرحه معقد وقد أُسيء فهمه.

فهو فى بعض الفقرات يتحدث عن المرأة بوصفها موجوداً أدنى من الرجل، ويعتبرها مسئولة عما فى العالم من شرور، وفى أحيان أخرى يتحدث عنها على أنها صورة الله، وأن الله خلقها على صورته. أما النفس العاقلة عند الإنسان، التى هى نسخة من العقل الإلهى Divine.. Logos لا جنس لها، فالتعارض بين الجنسين الذكر والأنثى ينتمى إلى العالم الحسى المرئى، فلم يفكر «فيلو»، من الناحية النظرية، أن لدى الرجل والمرأة معاً نفساً عاقلة، ولهذا فهما معاً «مخلوقان على صورة الله»، لكنه - رغم ذلك - يعتبر المرأة الموجودة فعلاً أدنى من الرجل، وهى علة الشرور فى هذا العالم. وكان «فيلو» أول فيلسوف قدم تفسيراً فلسفياً للإصحاح الأول من سفر التكوين، ولقد اقتنع فيلو - مثل أفلاطون - أن الله لا يمكن أن يخلق أى نوع من أنواع الشر، كما أنه يفسر قصة السقوط فى سفر التكوين على أنها رمز لسقوط العقل عندما أغوته الحواس والعواطف والانفعالات، لكن الإنسان قادر بواسطة هذا العقل نفسه على العودة إلى حالته الأصلية، وهو يرى أن الله الذى لا يمكن أن يضع الشر، ولا يمكن أن يكون علة لأى نوع من أنواع الشر فى العالم، خلق هذا العالم المرئى بإرادته الخيرة، وهدف الإنسان على الأرض هو ممارسة الفضائل المختلفة مع جيرانه. وهذا هو معنى الاتحاد بالله، والنفس التي تتطلع شوقاً إلى الله سوف تحقق هدفها بهذه الطريقة.

٤ ـ ماكرينا... ونظريات التجسيد

درست «ماكرينا» النظريات المختلفة للتجسيد التى كانت معروفة بين فلاسفة اليونان[١]، ورفضتها جميعاً؛ لأن هذه النظريات تعنى وجود حركة دائرية للأرواح بين السماء والأرض، وهذه الحركة فى عودتها، تفترض سلفاً سقوط النفس كسبب لظهورها على الأرض من جديد. وتعتقد ماكرينا أن هذه الفكرة تتناقض مع خيرية الله ومع العناية الإلهية، فإذا كان وجود الإنسان سببه الخطيئة، فإن ذلك يعنى أنه لن يكون صالحاً للفضيلة، وفى الفقرة الرابعة من كتابها فى «النفس والقيامة» ترفض ماكرينا، بوضوح، الفكرة التى تقول إن نفوس البشر العاملة يمكن أن تتجسد أو تتناسخ من جديد فى أجساد الحيوانات والنباتات كنوع من أنواع العقاب عما ارتكبوه من خطايا، فلقد صور أفلاطون حياة النفوس المختلفة وهى تتجسد فى حيوانات مختلفة: فهذه نفس تتجسد فى صورة بجعة، و«نفس» المغنى والشاعر «ثاميريس Thameris..، تتجسد فى بلبل، وغيرها فى صورة أسد وهكذا[٢] كما أن «أفلوطين» لم يستبعد تماماً إمكان تجسد النفس البشرية فى أجسام الحيوانات والنباتات، ومعنى ذلك أن النفس البشرية عند هذين الفيلسوفين يمكن أن تفقد خاصيتها «العاقلة» كنتيجة لارتكابها للأفعال

---

١ ـ كانت الآية الواردة فى «سفر التكوين»: «خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكر وانثى خلقهم» ـ مصدر إرباك كبير لأعداء المراة، كما كانت موضوع مناقشات لا حصر لها، انظر كتابنا «الفيلسوف المسيحى.. والمرأة» العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف... والمرأة» مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٢ ـ انظر «فى النفس والقيامة» الفصل الرابع عشر فقرة ٣.

الشريرة، ومن ثم تتجسد لهذا السبب فى موجودات أدنى، ولقد سبق أن رأينا أن «فورفوريوس» هو الذى رفض هذه النظرية، ورأى أن النفس البشرية لا يمكن أن تفقد أبداً خاصيتها العقلية، ومن ثم رفض إمكان أن تتجسد فى أجسام الحيوانات.

أما «ماكرينا» فقد عارضت فكرة التجسد بوضوح، ولا سيما إمكان تجسد النفس البشرية فى النباتات والحيوانات. وذهبت إلى أن ذلك سوف يعنى تدمير التفرقة بين الإنسان والحيوان، وفضلاً عن ذلك فإن الحركة الدائرية للأنفس البشرية مرفوضة؛ لأنها تتضمن خلطاً بين الخير والشر. إن الحركة الدائرية فى تفسير «ماكرينا» تبدأ من السماء وتسببها سقوط النفس، وتنتقد «ماكرينا» هذه الفكرة، لأنها قد تعنى أن الخطيئة هى سبب الوجود البشرى الأرضى، وفضلاً عن ذلك فمادامت السماء ينظر إليها على أنها ثابتة لا تتغير بواسطة الوثنيين، فليس من الممكن أن نفسر كيف حدث سقوط النفس. ولا تذكر «ماكرينا» أسماء الفلاسفة الذين تنتقدهم، لكنها عندما ترفض نظرية سقوط النفس فى السماء، فمن الواضح أنها ترفض نظرية أوريجين Origen الفيلسوف اللاهوتى السكندرى المعروف (١٨٥ ـ ٢٥٢) الذى كان يذهب إلى أن سقوط الموجودات الحرة العاقلة هو الذى تسبب فى الحياة البشرية على الأرض. أما «ماكرينا» فهى تذهب إلى أن النفس والبدن معاً خلقهما الله بإرادته الحرة، ولم تظهر النفس إلى الوجود قبل البدن كما يذهب بعض الفلاسفة. وقل مثل ذلك فى التناسل: فالنفس والبدن يظهران معاً إلى الوجود أثناء الحمل. وهذا يعنى، عند «ماكرينا» أن النفس حاضرة فى الحيوان المنوى الذى يبدأ منه تشكيل الكائن الحى. وعندما تحقق البشرية مسيرتها فسوف تختفى عملية الكون والفساد،

أو الظهور والاختفاء، وسيكون ذلك يوم البعث والقيامة. وهنا سوف تشارك البشرية ـ بالنفس والبدن ـ فى الحياة الأزلية، وفى يوم القيامة سوف يسترد الجسد البشرى الفانى بنيته الخالدة التى كان يمتلكها قبل السقوط؛ ذلك لأن «ماكرينا» تعتقد أن صفة الفناء لجسد الإنسان اكتسبها نتيجة لسقوطه فى الخطيئة الأولى، لكن القول بأن للإنسان جسد لا علاقة له بالسقوط على الإطلاق، بل على العكس وجود بدن للإنسان هو جزء من طبيعته ذاتها. والخلاف واضح بينها وبين أوريجين عند هذه النقطة، فالجسد الروحانى الموجود عند أوريجين ـ يقوم القيامة لا يستبعد إمكان اختفائه أيضاً، أما «ماكرينا» فهى تقيم فكرتها عن القيامة والبعث على أساس الكتاب المقدس. فكما جاء فى مزامير داود أنه سيكون هناك استرداد لجميع الأشياء يوم القيامة، فإنها تنظر إلى استرداد الحياة البشرية كجزء من هذا الاسترداد الشامل.

وتنتهى المحاورة بين «ماكرينا وشقيقها» جريجورى بالدفاع عن النظرية المسيحية فى البعث والقيامة وهى تستمد معظم أدلتها من الكتاب المقدس، ولهذا فنحن نجد فى نهاية الحوار جوانب لاهوتية ممتعة، وأفكار كثيرة عبَّر عنها شقيقها بعد ذلك فى كتابه «خلق الإنسان» ـ كانت شقيقته العظيمة قد عرضتها ودافع عنها، وربما اقتضى الإنصاف أن يقوم باحث بالكتابة المفصلة عن هذه المفكرة التى تعد من أعظم نساء القرن الرابع الميلادى، لما كان لها من ذهن ثاقب، وفكر فلسفى عميق؛ ولهذا احتلت مكانة رفيعة بين «النساء... الفلاسفة» فى العالم القديم.

٨

الفصل الثامن

«هيباشيا ... فيلسوفة الإسكندرية»

«عند السُكر تقال الحقيقية... In Vino Veritas»

هيباشيا: الميلاد والنشأة:

في هذا الجو ولدت «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية عام ٣٧٠م، ابنة ثيون Theon أستاذ الرياضيات فى المتحف، وآخر عالم عظيم من علمائه الذين سجلت أسماؤهم فى سجل أساتذة متحف الإسكندرية(١).

وليست هناك وثائق عن تعليمها المبكر، رغم أن معظم المؤرخين يذهبون إلى أنها قد تعلمت ودرست فى البداية على يد والدها الذى كان يقوم بتدريس الرياضيات والفلك فى المتحف، ولكن بما أنه لم يرد ما يؤكد لنا أن أباها درس الفلسفة، ومادامت «هيباشيا» قد درست الفلسفة ثم حاضرت فيها بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية (داخل المتحف وخارجه) - فلابد لنا من أن نفترض - على أقل تقدير أنها درست الفلسفة على يد فلاسفة من مدرسة الأفلاطونية المحدثة، وهى الفلسفة السائدة فى المدينة فى ذلك الوقت، أو أنها قد ثقفت نفسها بنفسها، بقراءة تاريخ الفلسفة، ولا سيما مؤلفات أفلاطون وأرسطو أولاً، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة بعد ذلك(٢).

---

١ - ول ديوارنت «قصة الحضارة» المجلد الثانى عشر ص٣٤٦ ترجمة محمد بدران - دار الجيل للطبع والنشر - بيروت.

2- Ethel M. Kersey: «Women Philosophers» P.134 Greenweod press N.Y. 1989.

وهناك رأى ضعيف يقول به معجم سويداس Suidas Lexicon[(١)] مفاده أن هيباشيا قد درست الفلسفة فى أثينا. ويتشكك معظم المؤرخين فى هذه الرواية، ويؤكدون أنها تعلمت على يد علماء الرياضة فى متحف الإسكندرية، كما درست الفلسفة على يد باحثين آخرين (ربما كانوا من فلاسفة المكتبة). ومما يثير الشك فى رواية سويداس قوله: «إن علية القوم فى مدينة أثينا قد عرهوا إلى هيباشيا عندما وصلت إليها» - ولو صح ذلك لكان معناه أنها كانت شخصية مرموقة ومعروفة، وليست طالبة عندما زارت المدينة، ويبدو أن القول بأن «علية القوم فى مدينة أثينا قد قاموا بزيارتها، يعنى أن عظماء الفلاسفة كانوا يعاملون معاملة حسنة من الشخصيات العامة فى أثينا عندما يأتون لزيارتها، أو أن هيباشيا لما لها من مكانة رفيعة قد زارها علية القوم فى أثينا - على نحو ما كان يزورها علية القوم فى مدينة الإسكندرية[(٢)].

الأرجح، إذن، أن هيباشيا قضت فترة التلمذة فى مدينة الإسكندرية كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية: «فيلسوفة مصرية وعالمة فى الرياضيات ولدت بالإسكندرية عام ٣٧٠، وماتت بالإسكندرية فى مارس عام ٤١٥.. كانت المرأة الأولى التى لمعت فى ميدان الرياضيات

١ - سويداس Suidas مؤلف معاجم يونانى من مدينة القسطنطينية. كتب معجمه الشهير Suda, Isuidas Lexicon فى أواخر القرن العاشر الميلادى، ويعد من اغنى مصادر التراث اليونانى حتى ذلك التاريخ.

2- Mary Ellen Waithe: A History of Women Philosophers Vol. P.177 Khuwer Aeademic Publishers. 1992.

واشتهرت بكونها عالمة فيها[١].. بل إن العبارة توحى بأنها لم تترك الإسكندرية قط. وعلى كل حال فالثابت أنها قضت فترة الطلب على الأقل فى هذه المدينة، وأنها كانت طالبة مجدة ومتميزة، وذات قدرات عالية؛ وذلك لسببين على الأقل:

الأول: أن الثابت أنها تعلمت على نفقة الدولة، فقد دفعت لها نفقات التعليم من الموارد العامة[٢]، وذلك شىء فريد أو هو استثناء له دلالة هامة، ولا سيما إذا عرفنا أن النساء بصفة خاصة لم يكن يتم اختيارهن لينفق عليهن من الموارد الرسمية[٣].

والثاني: أنه قرب نهاية عام ٤٠٠م. تم تعيينها فى المتحف، وكانت فى الخامسة والعشرين (أو الثلاثين على الأكثر) من عمرها. ويظهر هنا الإستثناء واضحاً أيضاً، ولا سيما إذا عرفنا أن حكومة الإسكندرية كانت مسيحية (أو شبه مسيحية) فى ذلك الوقت، فى حين كانت هيباشيا لا تزال على ديانة اليونان. ويرى بعض المؤرخين أنه ما دامت التعيينات فى المتحف كانت تتم بأمر من الإمبراطور أو نوابه، فلا بد أن تكون هيباشيا أستاذة متفوقة حتى تنعم بميزات علماء المتحف (كالراتب، والسكن، والمكانة... إلخ)، فى هذه السن الصغيرة[٤].

كانت هيباشيا تلقى محاضراتها فى المتحف (وربما فى المكتبة).

1- Encyclopedia Britannica Vol.O.P.200.

2- Mary E. Waithe: Op. Cit. P.170.

3- Ibid, P.171.

4- Ibid.

ويقول سقراط - المؤرخ المسيحي - إنها بزت أهل زمانها من الفلاسفة عندما عينت أستاذة للفلسفة بالإسكندرية، فقد هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية، وكان الطلاب يتزاحمون ويحتشدون أفواجاً إليها من كل مكان، وكانت الخطابات توجه إليها باسم «الربة Muse» أو «الفيلسوفة»، وعندما كانت هيباشيا تقوم بشرح مذهب أفلاطون أو أرسطو - كانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الإسكندرية وأكابرها... كانوا يختلفون إلى قاعتها ليستمعوا إليها، وهى تبحث فى هذه الموضوعات التى أثارت الجدل منذ زمن: من أنا؟ وإلى أين مصيرى؟ وماذا فى استطاعتى أن أفعل أو أن أعرف؟ أين مكانى فى نظام الأشياء؟ ما طبيعة الإله؟ ما طبيعة الخير والشر..؟[١].

ولما كانت هيباشيا معروفة بجمالها الأسطورى[٢]، وكانت قد عزفت عن الزواج وتفرغت للفكر، فقد كان من الطبيعى أن تتعرض لبعض المضايقات من طلاب تقدموا للزواج منها، ولألوان أخرى من الغزل من شبابٍ لا يأخذ الدراسة مأخذ الجد، ويروى المؤرخون نماذج من هذه المضايقات: فقد ظل أحد الطلاب يطارها، وتعمد أن يلاحقها بعد انتهائها من دروسها، لكنها لقنت هذا الشاب الوسيم «زير النساء» درساً بأن قذفت فى وجهه «بفوطة» مستعملة، وإن كانت نظيفة، وهى تصيح «إن الاستمتاع بالجنس هو هدفك أيها الشاب الأحمق، لا

1- Ethel M, Kersey: «Women Philosophers» P.134 Greenwod press. N.Y. 1989.

2- Ibid.

الاستمتاع بالفلسفة[١]» ويروى بعض المؤرخين أنها حاولت علاج الانفعالات الطاغية عند الشباب «بمناهج الفلسفة وتعاليمها»... غير أن زير النساء لم يرتدع، فأخذت منديلاً كانت قد استعملته، وقذفت به فى وجهه وهى تقول: «هذا هو ما تحب، أيها الشاب الأحمق، وهو ليس شيئاً جميلاً» ذلك أن الأفلاطونيين، وهى منهم، يعتقدون أن الخير والحكمة والفضيلة وغيرها تحمل فى داخلها قيمتها، ولهذا فإن الناس يرغبون فيها لذاتها، أما أن يكون الشخص جميل الطلعة، جذاب المحيًا، متناسق الجسد.. إلخ، فتلك ليست قيماً إنسانية ذات جدارة خاصة، وهى لا ترتبط بالقيم إلا بتشابهات سطحية. ولقد كانت «هيباشيا» تدرس الفكرة الحقة عن الحب الأفلاطونى وتمارسها، وهكذا استطاعت أن تصل بواحد من طلاب الفلسفة فى الإسكندرية إلى مرحلة يشعر فيها بالخجل من نفسه، وكانت تلك هى أفضل طريقة لعلاجه أيضاً[٢].

ويروى لنا «ول ديورانت»، نقلاً عن سويداس Suidas فى معجمه ـ قصة أخرى فيها الكثير من المغالاة، فضلاً عما تنم عنه من سلوك شائن يصعب على المرء أن يصدق أن تقوم به العذراء الفاضلة «هيباشيا»، كما كانوا يطلقون عليها، ومضمون القصة: «أن شاباً راح يضايقها بإلحاحه المستمر حتى عيل صبرها، فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها، وقالت له: إن الذى تحبه هو هذا الذى يرمز إلى التناسل، وليس هو شيئاً جميلاً قط»[٣]، وأكبر الظن أن هذه القصة مختلقة، بدليل أن

1- Mary E. Waithe: Op. Cit. P.172.

2 -Ibid.

٣ ـ ول ديورانت: مرجع سابق ص٢٤٧.

ديورانت نفسه يتشكك فيها ويقول: «لعل أعداءها هم مخترعوها»[١]؛ ذلك لأن المؤرخين الذين كتبوا عنها مجمعون على أنها كانت شخصية محترمة، على خلق رفيع، ولذا فمن المستبعد جداً أن يكون السلوك السابق هو ردها على الشاب الأحمق.

ومهما يمكن من شيء فالثابت أنها رفضت الزواج من كل من تقدم طالباً أن تقترن به.. وظلت عذراء طوال حياتها، كما كانت قوية الشخصية تفرض احترامها على الجميع، ويصفها إدوارد جيبون E.gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) ـ وهو أعظم المؤرخين الإنجليز فى عصره ـ فى عبارة موجزة بقوله: «رغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال، ناضجة الحكمة، فإنها رفضت عشاقها، وعلمت تلاميذها دروساً، ولذا تلهف أشهر الناس مقاماً وجدارة على زيارة تلك الفيلسوفة[٢]». وجاء فى دائرة المعارف البريطانية.. «واجتمعت لها الفصاحة والتواضح والجمال مع قدراتها العقلية الممتازة، فجذبت عدداً هائلاً من التلاميذ[٣]». ويقول سقراط المؤرخ إنه «بلغ من رباطة جأشها، ودماثة أخلاقها الناشئين عن عقلها المثقف، أن كانت فى كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة، وحكامها، دون أن تفقد ـ وهى فى

١ ـ نفس المرجع فى نفس الصفحة.

٢ ـ إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثانى ص٥٠٠ ترجمة لويس اسكندر، ومراجعة احمد نجيب هاشم ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر، القاهرة عام ١٩٦٩.

3- The New Encyclopedia Britannica Vol. 6. P.200.

حضرة الرجال ـ مسلكها المتواضع المهيب، الذى امتازت به عن غيرها، والذى أكسبها احترام الناس جميعاً، وإعجابهم بها..(١).

غير أن هذا الإعجاب لم يكن ـ فى واقع الأمر ـ يشمل الناس جميعا، فما من شك أن مسيحيى الإسكندرية كانوا ينظرون إليها بقدر غير قليل من الكراهية؛ وذلك لأسباب متعددة منها:

أولاً: أنها ظلت على ديانة اليونان الوثنية.

ثانياً: كان المسيحيون الأول ينظرون إلى «هيباشيا» على أنها تجسيد للعلم والفلسفة والثقافة بصفة عامة، وهى أمور تتحد فى نظرهم مع الوثنية فى هوية واحدة. يقول أ.ولف..A-Wolf :

«لقد كان العداء عنيفا بين المسيحية فى عهدها الأول وبين الفلسفة والعلم، ولقد تجلى هذا العداء فى موقف الاحتقار الذى كانت تقفه منهما(٢). وهو ما كان يترجم على الصعيد العملى فى اضطهاد المفكرين الوثنيين، وتدمير معابدهم، وإحراق كتبهم، وهدم دور العلم التى يترددون عليها، ونهب ما يجدونه فيها ـ وهو ما كان يقوده «توفيلوس» كبير الأساقفة كما سبق أن ذكرنا.

ثالثاً: كانت «هيباشيا» فى رأيهم ترتبط بعلاقة صداقة وطيدة مع حاكم المدينة الوثنى أورستيس Orestes، الذى كان يستشيرها فى

---

١ ـ ول ديورانت: مرجع سابق ص ٢٤٧.

٢ ـ نقلاً عن د. توفيق الطويل فى كتابه «قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص ٩٤ (من الطبعة الثالثة) دار النهضة العربية ١٩٧٩.

كثير من المسائل الفسلفية، ولما كانت الخلافات مستمرة بين هذا الحاكم وكبير الأساقفة، فقد حملوها مسؤلية هذه الخلافات، وأصبحت بما هى كذلك النقطة المحورية فى التوترات وأمور الشغب التى وقعت بين المسيحيين وأعدائهم، والتى اجتاحت مدينة الإسكندرية أكثر من مرة»(١).

ولابد لنا أن نتوقف قليلاً عند رئيس الأساقفة الذى عاصرته فيلسوفة الإسكندرية، ونعنى به «القديس كيرلس»، وهو الذى نال لقب «القديس» لقاء ما ارتكبه من جرائم فى حق الطوائف الأخرى انتصاراً للمسيحية، كما يقول جيبون: «يعتبر لقب القديس الذى لقب به دليلا على أن آراءه وفريقه كُتِبت لهم الغلبة فى نهاية الأمر...» (٢).

تولى كيرلس السكندرى منصب رئيس أساقفة المدينة عام ٤١٢م خلفاً لعمه توفيلوس Theophillus بعد أن تشرب فى منزل هذا العم دروس الغيرة والحقد والهوس الدينى، صحيح أنه كان قد قضى خمس سنوات من شبابه فى أديرة صحراء النطرون مع مجموعة من الرهبان عندما ظهر نظام الرهبنة المسيحية أول ما ظهر فى مصر، وفى مدينة

1 - The New Encyclopedia Britannica Vol,6,P.200.

٢ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» المجلد الثانى ص٤٩٧.

الإسكندرية على وجه التحديد(١)، لكنه رغم ذلك كانت تسيطر عليه «قيم الحياة الدنيا ومباهجها». أو بعبارة إدوارد جيبون «كان كيرلس يؤدى الصلاة والصيام خلال إقامته فى الصحراء، غير أن أفكاره (وهذا تقريع من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا»(٢)، ولهذا فسرعان ما لبى الدعوى فى شوق ولهفة، عندما استدعاه عمه «توفيلوس إلى جلبة المدينة وضجيجها حيث: المناصب، والأضواء، والأنصار، وزخارف الحياة، فبادر الناسك الطموح إلى الاستجابة لتلك الدعوة، وشجعه عمه على تقلد منصب «واعظ الشعب»، وحقق فى هذا الميدان الصيت والشهرة التى كان يرجوها، وامتلأ المنبر بجسده الضخم المهيب، ودوى صوته الرخيم فى أرجاء الكاتدرائية. وكان الأصدقاء والأنصار والمعارف يجلسون هنا وهناك ليكونوا فى مقدمة المصفقين المهللين من بين المجتمعين.. بينما راح الكتبة يدونون أحاديثه ومواعظه فى مذكرات سريعة لتوزيعها على الجمهور.

وعندما تربع كيرلس على عرش الأسقفية، استغل بُعْدَه عن البلاط الإمبراطورى، ورئاسته الدينية لعاصمة ضخمة فى العالم القديم هى مدينة الإسكندرية، وراح يغتصب شيئاً فشيئاً مكانه حكامها المدنى

---

١ ـ يذهب المؤرخون إلى أن نظام الرهبنة المسيحى نظام مصرى أساساً، فهو امتداد لنظام الرهبنة أو النسك الذى عرف فى عبادة سرابيس Sarapis، فى منف وغيرها. هـ . إيدرس بل «مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى» ص١٦٤ ـ ١٦٥ ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على ، دار النهضة العربية بيروت عام ١٩٨٨.

٢ ـ إدوارد جيبون: «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»، المجلد الثانى ص ٤٩٧.

«أورستيس.. Orestes: وسلطته، فتصرف بمحض إرادته فى صدقات المدينة العامة والخاصة، وكان صوته يلهب مشاعر الجماهير التى تحولت حديثاً إلى المسيحية. وهكذا كثر الأتباع والأنصار، بل تعصب لآرائه وأفكاره كثيرون ممن ألفوا مشاهد الموت، فكانوا يطيعون أوامره طاعة عمياء(١).

واشتد حماس كيرلس لمحاربة «الهرطقة» التى اتسع مفهومها عنده حتى شمل كل من ليس مسيحياً يدين بأفكار كبير الأساقفة. فاليهود الذين زاد عددهم حتى بلغ أكثر من أربعين ألفاً (٢) ـ بل يرى البعض أن عدد أفراد الجالية اليهودية فى الاسكندرية تجاوز يهود أورشليم نفسها فى ذلك الوقت(٣) ـ كانوا يعيشون فى جو من التسامح كفله القياصرة، والبطالمة من «الوثنيين»، وإقامة طويلة قدرها سبعمائة سنة منذ تأسيس الإسكندرية. غير أن كيرلس، ودون أى سند قانونى، ودون أى تفويض ملكى، ودون أن تكون له أدنى سلطة سياسية قاد ـ مثلما فعل عمه من قبل ـ مجموعة من «الغوغاء» من الجمهور المتمرد، ومن مثيرى الشغب والفتنة، فى فجر أحد الأيام

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ المرجع السابق ص ٤٩٩.

٣ ـ فيليب حتى «خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى» ص ١٨٣. وانظر أيضاً غسان خالد: «أفلوطين: رائد الوحدانية» ص ٢٠ منشورات عويدان عام ١٩٨٣، ويرى آخرون «إن عدد سكان مدينة الاسكندرية بلغ ما يقرب من نصف مليون نسمة كان خمسهم من اليهود» د. أحمد صبحى فى «فلسفة الحضارة» (الحضارة الإغريقية ص ٢١٧)، حاشية مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية.

لمهاجمة معابدهم. وعجز اليهود عن المقاومة، وهم عُزَّل، ولم يأخذوا للأمر عدته، فهدمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض، ثم كافأ الأسقف المناضل قواته الظافرة بأن سمح لها بنهب ممتلكات اليهود، ثم طرد من المدينة من تبقى من أبناء «الشعب الكافر» مبررا عمله هذا بأنهم كانوا مسفين في الثراء، وأنهم كانوا يكرهون المسيحيين.

ولقد شكا أورستيس Orestes حاكم مصر إلى الإمبراطور ما يرتكبه كيرلس من جرائم، غير أن شكواه العادلة ضاعت أدراج الرياح؛ إذ لم تقابل من وزراء «ثيودسيوس» إلا بالنسيان السريع، ولا سيما أن رئيس الأساقفة كان يلجأ إلى الهدايا القيمة التى تساعد الذاكرة على النسيان، لكنه، مع ذلك، ظل فى أعماقه يضمر المقت والكراهية لهذا الحاكم، ويتربص به، حتى واتته الفرصة: «فعندما كانت عربة الحاكم تخترق شوارع المدينة هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النطرون، فهرب حارسه أمام وحوش الصحراء، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحى وكاثوليكى بسيل من الحجارة، فسالت الدماء من وجهه، وسارع مواطنو الإسكندرية المخلصون إلى نجدته(١)». وعلينا أن نتذكر جيداً هذه القصة التى رواها «جيبون»؛ لأنها ستتكرر مرة أخرى مع فيلسوفة الاسكندرية بطريقة أكثر إحكاماً ووحشية.

كانت «هيباشيا» تعيش للفكر وحده، بعد أن رفضت الزواج كما ذكرنا، وترهبنت فى محراب الفلسفة، بطريقة تختلف كثيراً عن طريقة

١ - إدوارد جيبون «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» المجلد الثانى ص ٤٤٩ - ٥٠٠.

الرهبان سالفة الذكر، فقد عاشت العذراء حياة روحية حقيقية تستهدف البحث عن الحقيقة، وبلغ من حبها للفلسفة أنها كانت تقف فى الشارع وتشرح لكل من يسألها عن النقاط الصعبة فى مؤلفات أفلاطون أو أرسطو فيما يقول ديورانت(١)، كما درست أفلوطين، والأفلاطونية المحدثة، وشددت على الحب الروحى لا الجسدى الذى يتفق بالطبع مع المذهب الأفلاطونى عموماً، والأفلاطونية الجديدة بصفة خاصة(٢). ولك أن تقارن بين المحبة الوثنية وأفكار «الرهبان» فى وادى النطرون.

تلهف الناس لسماع «هذه العذراء المتواضعة، بارعة الجمال»، كما سعى علية القوم فى المدينة لزيارة تلك الفيلسوفة الشابة فيما يروى «جيبون».. وكان كيرلس يشاهد بعين الحقد والحسد ذلك الرتل الضخم من الجياد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها... فسرت إشاعة - كان هو نفسه مصدرها على الأرجح - تقول إن «ابنة ثيون» هى العقبة الوحيدة فى طريق التوفيق بين الحاكم «أورستس»، ورئيس الأساقفة كيرلس. كما لو أن العذراء المتواضعة كانت هى المصدر الذى أوحى لرئيس الأساقفة بأن يبدأ عهده بالتنكيل بأتباع نوفاشيانوس - وهم أكثر أبناء الطوائف براءة وبعداً عن الأذى (٤) - أو أنها هى التى أشارت عليه بمهاجمة حى اليهود فى المدينة، ونهب ما فيه ، وطرد من

١ - ول ديورانت: «قصة الحضارة» المجلد الثانى عشر ص ٢٤٧.

2 - Ethel M. Kersey: Op. Cit. P.135.

٣ - إدوارد جيبون - مرجع سابق ص ٥٠٠ - ٥٠١.

٤ - المرجع السابق ص ٤٩٩.

فيه، أو أنها هى التى رتبت قيام خمسمائة من الرهبان باعتراض طريق الحاكم ومهاجمته.

لم يكن شيء من ذلك صحيحاً، لكن رئيس الأساقفة كان يمهد لجريمة جديدة. ففى يوم مشئوم من فصل الصيام الكبير «المقدس»، وعلى وجه التحديد فى ليلة مظلمة من ليالى مارس ٤١٥م، ولسبب مجهول حتى الآن احتار فيه المؤرخون لما نثره المغرضون من أسباب وحجج - اعترضت جماعة من رهبان صحراء النطرون - الذين قضوا فى الصحراء سنوات طويلة «يصارعون قوى الشر مجتمعة» كما يقولون، ويديرون معركة «صراع باطنى ضد شهوات الجسد، ووسائل النفس الأمارة بالسوء[١] - اعترض هؤلاء الرهبان طريق عربة «هيباشيا» بإيعاز من كبيرهم كيرلس، فأوقفوها، وأنزلوا الفيلسوفة الشابة الجميلة - كما فعلوا مع حاكم المدينة من قبل - ثم جروها إلى كنيسة قيصرون Caesarun، حيث تقدمت مجموعة من هؤلاء الرهبان وقاموا بنزع ثيابها واحداً واحداً حتى تجردت من ملابسها لتصبح عارية كما ولدتها أمها [٢] - مشهد بالغ الغرابة يقوم به النساك الأطهار! - المهم أنه تقدم بعد ذلك بطرس القارئ peter The Reader (وهو قارئ الصلوات فى الكنيسة) وقام بذبحها، وهى عارية، وقد أمسك بها

---

١ - هـ . أيدرس بل «مرجع سابق» ص ١٦٦.

٢ - قارن التصوير الأدبى الرائع لقصة اغتيالها - كتاب أستاذنا الدكتور زكى نجيب محمود «فى مفترق الطرق» «ص ٥٨» وما بعدها دار الشروق عام ١٩٨٥، وتاريخ الفسلفة الغربية لرسل جـ ٢، ص ١٠٣، وديورانت مرجع سابق ص ٢٤٨ .. إلخ.

مجموعة من الرهبان ليتمكن قارئ الصلوات من ذبحها ذبح الشاه، ثم عكف الرهبان «الأنقياء القلب» على مهمة بالغة الغرابة، وهى تقطيع جسدها إلى أشلاء مستمتعين بما يفعلون، ثم أمسكت كل مجموعة شلوا بعد شلو وراحت تكشط اللحم عن العظم بمحار حاد الأطراف. وفى شارع سيناروون Cinaron أوقدوا ناراً ذات لهب «وقذفوا فى النار بأعضاء جسدها، وهى ترتعش بالحياة» فيما يقول رسل، حتى تحول الجسد إلى رماد، وهم يتحلقون حوله «فى مرح وحشى شنيع» على حد تعبير «ديورانت».

أيمكن أن يكون هؤلاء الوحوش من تلامذة المسيح؟ أيمكن أن نقول إنهم «نور العالم» و«ملح الأرض» كما كان يصف حوارييه؟ المسيح الذى عفا عن مريم المجدلية الزانية «وقال لها مغفور لك خطاياك» لوقا ٧ : ٤٨ – وقال عن زانية أخرى «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر..» يوحنا ٨ : ٧ – هل يمكن لمن ذبح فيلسوفة شهد لها أهل زمانها، أن يكون تلميذاً «لابن الإنسان» الذى رفع شعاره فى موعظة الجبل بعدم مقاومة الشر بالشر: «لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً..»؟ متى ٥ : ٩.

غير أننا لابد أن نسأل – قبل ذلك كله – لماذا جردها الرهبان من ملابسها قبل اغتيالها؟ فما دام «الذبح» فى نيتهم فلم يكون وهى عارية تماماً؟ ألا يمكن أن يقول لنا علم النفس الشئ الكثير عن هذا الموقف الغريب؟ أليست هناك علاقة بين هذا الموقف، وما قاله صديق كرلس عنه من أن «فكره ظل عالقاً بالدنيا؟» ألا يعنى ذلك أن الرهبان عندما دخلوا فى معركة مع شهوات الجسد لم ينتصروا فيها، بل كان

انتصارهم ظاهرياً، فى حين ظلت الغلبة لهذه الشهوات؟ أيكون تجريدها من ملابسها قد تم حتى يتمكن الرهبان «أنقياء القلب» من «معاينة» جسد العذراء، وهو عار تماماً قبل الذبح؟ لقد سبق أن رأينا كيف حدث هذا المشهد نفسه مع «أورستيس» حاكم المدينة، وكاد الرهبان أن يفتكوا به لولا أن أنقذه المخلصون من أبناء الإسكندرية: ترى أكانوا يقومون بتجريده هو الآخر من ملابسه قبل اغتياله لو حدث أن تمكنوا منه؟ ربما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه القارئ لهذا السؤال، مما يجعلنا نكرر السؤال الأول: لماذا، إذن، جردوا «العذراء» من ثيابها، اللهم إلا إذا كانت شهوات الجسد لا تزال طاغية، فأرادوا أن يمتعوا القلب النقى بمشهد الجسد الجميل العارى،ولما كان يصعب على الرهبان أن يصلوا إليه، فإنه يسهل عليهم تمزيقه!

أعمالها : الأنشطة التعليمية

جاءت معلوماتنا عن الأنشطة التعليمية والثقافية التى قامت بها «هيباشيا» من عدد من المصادر بما فى ذلك بعض تلاميذها المشهورين، فالفيلسوف اليونانى دمشيوس Damascius – وكان من أتباع الأفلاطونية الجديدة – يروى أنها كانت تحاضر فى علم الهندسة والرياضيات، ويخبرنا «فلوستجوريوس Philostogorius» أنها بذت فى الرياضيات والدها ثيون Theon أشهر علماء متحف الإسكندرية فى هذا العلم، ويروى هسيخيوس Hesychius عالم النحو السكندرى فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وصاحب معجم الكلمات اليونانية – أن «هيباشيا» كانت عالمة فلك ممتازة مثل والدها، ولقد تأكدت شهرتها فى هذه المجالات كلها فى الخطابات التى تبادلتها مع تلميذها سينسيوس Synesius أشهر تلاميذها على الإطلاق، وهو يحتاج إلى أن نقف عنده قليلاً:

«ولد سينسيوس بقورينا (إقليم برقة الآن) وهو لهذا كثيراً ما ينسب إليه فيقال سينسيوس القورينائى – ولد حوالى عام ٣٦٥. ولقد حضر فى عام ٣٩٣ من بنتابوليس Pentapolis – أى المدن الخمسة ببرقة – إلى الإسكندرية ليدرس على يد فيلسوفة شهيرة فى الثالثة والعشرين من عمرها. وفى نفس التاريخ تقريباً الذى رحل فيه سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس على «هيباشيا» – كان الإمبراطور الرومانى ثيودوسوس..Theodosius قد منع ممارسة الشعائر الدينية الوثنية فى مصر؛ حيث كانت أعمال الشغب قد انتشرت بالفعل بين الوثنيين والمسيحيين(١).

حضر سينسيوس إلى الإسكندرية ليدرس الرياضيات والفلسفة على «هيباشيا»، لكنه ظل حتى آخر حياته صديقها الوفى، وكان يسميها «الشارحة الحقة للفلسفة الحقة»، ثم زار أثينا وقويت عقيدته الوثنية، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية عام ٤٠٣، واعتنق على أثر ذلك الديانة المسيحية، وحوَّل ثالوث الأفلاطونية المحدثة المؤلف من: الواحد، والعقل، والنفس ـ إلى: الأب، والروح، الابن. وكتب كثيراً فى المسيحية منها: كتاب عنوانه: «فى انعدام النوم Deinsommis» وكتاب عنوانه: «ديون Dion»[١] وسوف نعود إليها بعد قليل.

والملاحظ أنه على الرغم من تحول سينسيوس القوريناثى من الوثنية إلى المسيحية، فإن أستاذته «هيباشيا» بقيت على ديانة اليونان، ولكنها مع ذلك لم تغضب عليه، ولم تتحول مشاعرها نحوه على الإطلاق، وعندما عين بعد ذلك «أسقفاً فى كنيسة كاثوليكية من كنائس بطليمية»، لم يقل حبها له، ولم تأكل الغيرة قلبها عندما كانوا يصفونه بأنه «الأسقف الفيلسوف». ولك أن تقارن ذلك بالموقف السالف الذكر للقديس كيرلس من «هيباشيا» سواء من حيث موقفه من العقيدة، أو من حيث المكانة.. فى آن واحد. وظلت العلاقة بينهما قائمة على المحبة والاحترام المتبادل. ويقول جورج سارتون «... وصلنا ١٥٩ خطاباً تمتد تواريخها من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٤١٣.. وهو يسألها فى الخطاب

---

١ ـ قارن التصورير الأدبى الرائع لقصة اغتيالها ـ كتاب أستاذنا الدكتور زكى نجيب محمود «فى مفترق الطرف»، ص٥ وما بعدها، دار الشروق عام ١٩٨٥، وتاريخ الفلسفة الغربية راسل جـ ٢ ص١٠٣. وديورانت مرجع سابق ص٢٤٨... إلخ.

2- Mary Ellen Waither: Op. Cit. P.173.

الخامس عشر أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعى للسوائل Baiyilion، وهو نوع من الهيدرومتر - فى هذا الخطاب أول وصف وصل إليها لهذا الجهاز»[1].

ويذكر «سينسيوس» فى خطاباته أنه كان «لهيباشيا» الفضل فى تثقيفه ثقافة شاملة، فقد درست له - مع شروح وافية - مؤلفات أفلاطون وأرسطو، كما درس على يدها ميتافيزيقا الأفلاطونية المحدثة وأسرارها، فضلاً عن بعض العلوم الطبيعية مثل: علم الفلك، والميكانيكا، والرياضيات[2]، ونحن نعلم من مصادر أخرى أن سينسيوس درس على يد «هيباشيا» فلسفة أفلوطين، والفلسفة الدينية الوثنية التى تعارض - إلى حد ما - الفلسفة المسيحية، ولقد أصبحت فلسفة أفلوطين بصفة عامة، جانباً متكاملا فى عملية الانتقال العقلى من الفلسفة اليونانية الوثنية إلى المسيحية، ولقد كانت دراسة سينسيوس لأفلوطين على يد «هيباشيا» هى التى أدت به إلى اعتناق المسيحية، ثم إلى أن يصبح بعد ذلك أسقفاً فى إحدى الكنائس الكاثوليكية - كما سبق أن ذكرنا - وهو يقول فى أحد خطاباته إن الناس، فى ذلك العصر، لم ينظرون إلى «هيباشيا» على أنها فقط أعظم شارحة على قيد الحياة لفلسفة أفلاطون وأرسطو، بل إن تلاميذها كانوا يأتون إليها من أماكن نائية ليدرسوا على يدها الحكمة والفلسفة الحقة. وفى خطاب من سينسيوس عام ٣٩٥ إلى هيركيولانوس... Herculianus يقول لقد

1- Ibid. P.174.

٢ - جورج ساتون «العلم القديم والمدينة الحديثة»، ص٦٧، ترجمة د. عبد الحميد صبرة.

سافر الشباب من قورينا Cyrene إلى الإسكندرية ليدرسوا على يد:

«... شخصية معروفة تماماً ويبدو أن شهرتها كانت تفوق الوصف. لقد رأيناها بأنفسنا، بعد أن سمعنا عن تلك المرأة التى تتربع، بشرف، على قمة الأسرار الفلسفية...»(١).

فى عام ٤٠٤ أرسل سينسيوس إلى «هيباشيا» كتابين من تأليفه هما: «فى انعدام النوم» و«ديون»، وكانت قد عينت فى ذلك الوقت رئيسة للمدرسة الأفلاطونية الجديدة فى الإسكندرية - وهو فى هذا الخطاب يسألها أن تكتب تعليقاتها على الكتابين. ولقد لاحظ «سينسيوس» نفسه أنه ربما كان كتاب «فى انعدام النوم» وحياً إلهياً، وهو لهذا عازم على نشره مهما اختلفت فيه الآراء. وليس فى استطاعتنا أن نستنتج من خطابه أن آراء «هيباشيا» الإبستمولوچية كانت تنكر الإيمان بالوحى الإلهى كمصدر من مصادر المعرفة. وأغلب الظن أنها لم تناقشه فى المقدمات التى بدأ منها. أما الكتاب الثانى فوضعه مختلف؛ إذ تذكر رسالة سينسيوس أنه لن ينشر كتاب ديون Dion إلا بعد أن تكتب له «هيباشيا» رأيها فيه، وتوافق على نشره. وبما أن الكتاب قد تم نشره بالفعل فإن لنا أن نستنتج من ذلك أن «هيباشيا» قد وافقت عليه، وكتاب «ديون Dion»، فى جانب منه دفاع عن الفلسفة ضد الخطباء الذين صنفوا أنفسهم على أنهم فلاسفة، ويتحدث فيه «الأسقف الفيلسوف» عن الأفلاطونية الجديدة التى تعلمها على يد «هيباشيا» وهو مزيج من الصوفية والمذهب الكلبى، فالله ليس موجوداً متعالياً

1- Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P.173.

فحسب، وإنما هو واحد أيضاً، ولا يمكن للإنسان أن يعرفه معرفة مباشرة بأية طريقة. ومن الواحد المتعالى المفارق يفيض النوس الكلى Nous (العقل) الذى تشبه أفكاره النظرية مثل أفلاطون. ومن النوس Nous نفسه تفيض المادة ماهية الكون المادى، والسبب المباشر للكون، ولموجوداته الحسية. ولما كانت المادة «شراً» والنوس هو المقدس، ومادام الإنسان فى جانب منه مادة، وفى الجانب الآخر روحاً وعقلاً، فإن الإنسان فى جانب منه شرير، وفى الجانب الآخر روح مقدس، وفى استطاعة الإنسان من خلال ضبط النفس، والإخضاع الكلى للحواس أن يصبح قادراً على تلقى الوحى المباشر عن الحقيقة الإلهية من النوس أعنى من العقل الكلى. ولقد قاربت هذه الفلسفة ذات الأبستمولوچية الدينية بين «سينسيوس» و«هيباشيا»، فهى تتفق تماماً مع وثنية «هيباشيا» ومسيحية «سينسيوس»[١].

ومن الأنشطة التعليمية التى قامت بها «هيباشيا»، أنها كانت تدرس ـ كما سبق أن ذكرنا ـ مؤلفات عمالقة الفلاسفة الوثنيين: أفلاطون وأرسطو، كما أنها قامت بتدريس فلسفة فيثاغورس وزينوفان، والمدرسة الكلبية، ويضيف بعض المؤرخين المدرسة الرواقية أيضاً، كما وضع شروحاً على فلسفة أفلوطين. ولما كانت مهتمة مثل أبيها بالرياضيات والعلوم، فربما ركزت بعض الوقت على أن تدريس تلك المؤلفات القديمة التى تتعلق بالميتافيزيقا، والكسمولوچيا، والأبستمولوچيا ـ أكثر من اهتمامها بالفلسفة السياسية والأخلاقية.

1- Ibid.

ومن المحتمل كذلك أن تكون قد قامت بتدريس كتاب «ديوفنطس Diophantus علم الحساب.. Arithmeticorum»[١].

ومن السهل أن نتبين كيف أن ثقافة «هيباشيا» الفلسفية قد ساعدتها فى تشكيل الأساس الطبيعى لما أصبح اهتمامها العقلى الأول، وأعنى به: علم الفلك. فقد كانت، مثل والدها «ثيون.. Theon» عالمة فلك، وعالمة رياضية، (فالفلك كان فرعاً من الرياضيات) ولقد كان علم الفلك فى بداية القرن الخامس الميلادى من أهم العلوم فى الدراسات الفلسفية التى كانت تشمل فى جوفها الأفرع المختلفة من المعرفة البشرية، حيث كانت الفلسفة أم المعارف، أو ملكة العلوم Regina scientiarum. ومن هنا فقد سعى العلماء التجريبيون وعلماء الرياضة فى آن واحد إلى فهم ميتافيزيقا أرسطو، فضلاً عن الفيزيقا والكسمولوچيا، وتطبيقاتها. كذلك إبستمولوچيا أفلاطون وتطبيقاتها على الكون المرئى مستخدمين نظريات الرياضة والهندسة، والأدوات والأجهزة العلمية للإجابة عن أسئلة فلسفية أساسية مثل من نحن؟ وما هو مصيرنا؟ وأين مكان الإنسان فى نظام الأشياء؟... إلخ[٢].

1- Ibid. P.174.

2- Ibid. P.175.

الشـــــــروح ...

قامت «هيباشيا» – على ما يروى سـويداس فى معجمه – بتأليف ثلاثة كتب هامة هى:–

١ – شــرح على كـتــاب «ديفـونـطس Diophantus» السـكندرى المسمى «علم الحساب Arithmeticorum» أو «الأرتمطيقا» ... كما كان يسميه العرب.

٢ – شـرح عـلى كتـاب بطليـمـوس المجـمـوع الرياضى أوالمركب الرياضى Syntaxis. Mathematica (وهـو الـعـنـوان الأصـلـى اليــونـانى لـلكتــاب المعــروف فى التــراث العــربى بـاسم «المجسطى» حيث كان يطلق عـلى الكتاب أحيانا اسم Megiste Syntaxis، أى المركـب العظيـم أو المجـمــوع العظيم، فـأخـذ العـرب كـلمـة Megiste – أى العـظيم – وأضــافـوا إليـهــا أداة التعريف Al فأصبحت المجسطى، أو الكتاب العظيم!.

٣ – شــروح على كـتــاب «قـطوع المخـروط Conic Sections»، لأبولونيوس البرجى Apollouins Pergaeus .

وعلى الرغم مـن أن سـويداس يروى أن الكتب الثلاثة قد فـقـدت، فإن «مارى إيلين ويث» كشـفت عن وجـود كـتـابـين منهـمـا على الأقل، وهمـا الكتـاب الأول والـثـانى، أمـا الثـالث فـمن المحـتـمـل أن يكون قـد بقى أيضاً باسم شـروح على النظريات الهندسية للبرجى Pergaeus.

ويجدر بنا أن نسوق كلمة موجزة عن هذه المؤلفات:

أولاً: شرح على كتاب ديفونطس ... Arithmeticorum

لقد كان ديفونطس السكندرى الذى إزدهر حوالى عام ٢٥٠م – عالم رياضة مرموقاً فى النصف الثانى من القرن الثالث للميلاد؛ فهو صاحب الكتاب المعروف باسم أرتمطيقا أى «علم الحساب»، وكان يقع فى ثلاثة عشر كتاباً (أو مقالة)، لم يبق منها سوى ستة كتب فحسب، ولقد اختلف الباحثون حول المقالات أو الكتب التى فقدت من كتاب ديفونطس، والمقالات أو الكتب التى ظلت موجودة حتى الآن، لكنهم، مع ذلك، متفقون على أن «هيباشيا» كانت أعظم، وأشهر شارحة لهذا الكتاب فى العالم القديم. كما أننا نعرف من بعض المصادر الحديثة أن التنقيحات والتعديلات التى أدخلتها «هيباشيا» على كتاب علم الحساب هى– فيما يبدو – أقدر وأعمق نسخة من هذه المخطوطة(١).

وترجع أهمية «ديفونطس» وكتابه (وبالتالى شروح «هيباشيا» عليه) إلى أن هذا العالم كان أول من بذر البذور التى أثمرت علم الجبر فيما بعد، وإن كان هناك إجماع على أن أثر المصريين والبابليين فى أعماله الرياضية كان بارزاً جداً، إذ ظل يحل كل مسألة تُعرض عليه حلاً مستقلاً دون أن يرجع إلى طريقة علمية، ولا إلى قاعدة عامة. لكنه مع ذلك كان أول من تعرض لفكرة إيجاد كم مجهول له نسبة ما إلى كميات أخرى معلومة. وإن كان قد وقف فى معالجته لهذه الفكرة التى أثمرت

1 - Mary Ellen Waithe: "Ahistory of Women Philosophers" Vol. 1. P.178.

الجبر عند الطرق الفيثاغورية التى كانت ترمز لكل عدد بخط أو شكل هندسى أكثر تعقيداً، والتى كانت تحل البراهين الهندسية محل العمليات الحسابية المعهودة الآن[1].

وحتى نتبين جيداً مدى أهمية شروح «هيباشيا» على هذا الكتاب فلابد أن نضع فى ذهننا التفرقة التى ساقها أفلاطون فى محاورة جورجياس Gorgias بين العلم النظرى المجرد الذى يدرس موضوعات عامة بغير تخصيص، وبين الفن التطبيقى لهذا العلم، فلقد ميز سقراط فى هذه المحاورة بين علم الحساب Arithmetic، وبين فن العد Calculation (بين الجانب النظرى المجرد والجانب العملى التطبيقى للحساب) ملاحظاً «أن علم الحساب يبحث فى العدد الزوجى والعدد الفردى بغض النظر عن كمية كل منهما أو مقدارهما..»، بينما فن العد «يبحث فى الكمية أو كيف يرتبط العدد الزوجى أو الفردى بنفسه من حيث الكمية، من ناحية، وبعضهما بالبعض الآخر من ناحية أخرى»[2].

غير أن التفرقة بين الأعداد المجردة - كالأعداد الزوجية والفردية بصفة عامة (أعنى علم الحساب) - وبين الأعداد الخاصة أو النوعية أو المحددة (فن العد) كثيراً ما كانت تختفى عند «ديفونطس»؛ وذلك بسبب أن «فن العد» عنده كثيراً ما كان يتخذ شكلاً مجرداً، فكان دور «هيباشيا» أن شرحت أولاً هذه التفرقة، ثم أدخلت ثانياً مشكلات

---

١ - قارن عمر فروخ: «تاريخ العلوم عند العرب» ص ٢٦ - ٢٨، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة بيروت عام ١٩٨٤. ود محمد ثابت الفندى «فلسفة الرياضة»، ص ٨٣ - ٨٤، دار النهضة العربية الطبعة الأولى بيروت، ١٩٦٩.

2- Plato: Gorgias. 451 - B.

جديدة، كما أسهمت فى التوصل إلى بعض الحلول البديلة للمشكلات الأصلية عند ديفونطس، مما أدى إلى توضيح الطابع المجرد، فضلاً عن توضيح طبيعة علم الحساب بصفة عامة، وأبرزت إسهامات ديفونطس التى أثمرت نظرية الجبر بعد ذلك[1].

ولقد قامت «مارى إلين ويث Mary E.Waithe» فى كتابها «تاريخ الفلاسفة من النساء» المجلد الأول ص ١٨٢ - بترجمة ما أضافته «هيباشيا» من تعليقات وتنقيحات. كما قامت بترجمة جانب من الشروح المتبقية التى اشتهرت بها «هيباشيا» فى العالم القديم. وذلك فى ص ١٧٨ وص ١٧٩، وص١٨٠، نقلاً عما نشره «بول تانرى Paul Tannery» الذى نشر النص اليونانى، وفى مقابله «النص اللاتينى» لكتاب ديفونطس علم الحساب، كما نشر القس أ. روم A.Rome النص نفسه مع مراجعة ثيون Theon والد «هيباشيا» له[2].

1- Mary Ellen Waithe: Op. Cit. P.177.

2- Ibid. P.183.

ثانياً: شرح على كتاب بطليموس

«المجموع الرياضى Syntaxis Mathematica»

كان «بطليموس كلوديوس Ptolemy Claudius» وهو الملقب عند العرب ببطليموس القلوذى، أشهر العلماء فى هذه الحقبة، ومن أشدهم تأثيراً فى الشرق والغرب بعد أرسطو، وقد ظل كذلك حتى كوبرنيكس Copernicus وهو عالم فلك، ورياضة (وكان الفلك فرعاً من الرياضيات كما قلنا). وجغرافى وفيزيقى مصرى يونانى، ولد فى صعيد مصر، ونشأ فى مدينة الإسكندرية فى الربع الأخير من القرن الثانى الميلادى (حوالى عام ١٧٠م)(١)، وقد وضع بطليموس كتباً كثيرة كان أشهرها كتابه «المجموع أو المركب الرياضى» والمعروف فى اليونان باسم «التصنيف العظيم فى الرياضيات» وهو المعروف فى التراث العربى باسم «المجسطى Al Mageste» نحتاً من كلمة Megitse اليونانية التى تعنى «عظيم»، وإضافة أداة التعريف الـ Al» لنعنى كلمة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ العظيم، فهو الكتاب العظيم؛ ذلك لأنه دائرة معارف فى علوم الفلك والمثلثات وموضوعاته: كروية العالم، وثبوت الأرض فى مركز العالم، والبروج، وعروض البلدان، وحركة الشمس، والانقلابان الربيعى والخريفى، والليل والنهار، وحركات القمر وحسابه، والخسوف والكسوف، والنجوم الثوابت، والكواكب المتحيرة(١).

1- Ethel M. Kersey: Women Philosophers P.135.

وأكثر ما شغل بال بطليموس الكواكب المتحيرة وحركاتها (فى رأى العين) فإذا كانت الأرض ثابتة فى مركز العالم، والشمس والقمر والنجوم والكواكب تدور حولها من المشرق إلى المغرب، فلماذا نرى القمر والكواكب الخمسة (عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزُحل) تتحير فى اسماء: تتقدم حيناً على الشمس وتتأخر عنها حيناً، ويتقدم بعضها على بعض مرة بعد مرة وتختلف مواقعها فى السماء بين حين وآخر، بالإضافة إلى النجوم الثوابت؟

والواقع أن مشكلة الكواكب المتحيرة كانت ترجع إلى الاعتقاد بأن الأرض ثابتة فى مركز العالم، وليست كوكباً يدور حول الشمس التى هى مركز نظامنا الشمسى[٢].

ولقد كان «بابوس Pappus»، و«ثيون.. Theon». والد «هيباشيا» ـ هما أعظم شراح كتاب «المجسطى» لبطليموس فى ذلك الوقت. غير أن «هيباشيا» اشتهرت بأنها كانت منقحة لعلم الفلك عند بطليموس، وهو ما يرويه المؤرخون من أمثال «فابريقوس Fabricus»، وسقراط المؤرخ و«سويداس Suidas»، وغيرهم. وقد افترضوا أن ما قامت به هذه الفيلسوفة قد فقد. غير أن مجموعة من الكتب بقيت لنا من أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، بما فى ذلك العديد من النسخ من شروح «ثيون» على كتاب المجموع الرياضى لبطليموس،

---

١ ـ عمر فروخ «تاريخ العلوم عند العرب» ص٤٨، دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٨٤.
٢ ـ المرجع نفسه ص٤٩.

والجداول الفلكية التى يرجح الباحثون أنها من تأليف «هيباشيا». ويلاحظ بول تانرى Paul Tannery.. أن ترديد الدعوى التى روج لها المؤرخ «فابريقوس» والتى تقول إن شروح هيباشيا» قد فقدت ـ جعل مؤرخى الرياضيات يفشلون فى التعرف على اختلاف مزدوج: ظهور جداول فلكية جديدة فى عصر الشراح، تماثل العمل الأصلى من ناحية، ثم اختفاء عمل هام (شروح «هيباشيا») دون أن يكون له أثر... وهكذا ينتهى تانرى إلى أن الجداول الفلكية هى من تأليف «هيباشيا»، كما ينتهى باحث آخر إلى أن مؤلفاتها وشروحها على كتاب بطليموس لم تفقد كلها، إذ يلاحظ ج.ف. مونتوكلا Montucla. j.F بقاء:

«الكتاب الثالث من الشروح (على المجسطى.. Almageste) وهى الشروح التى ينسبها إليها سراحة والدها «ثيون..»، والظاهر أن ثيون كان يقوم بإعداد شروح على كتاب بطليموس، وأنه طلب من «هيباشيا» مراجعة المخطوطة ومسائل رياضية، ومنهجية، وعقلية، عديدة ـ لم يقف عندها أحد من قبل: لا «ثيون» ولا بطليموس نفسه، فبدأت هى فى دراستها ومواجهتها. لكنها أثناء تحليلها لهذه المسائل، أعادت دراسة القيم الرياضية للأحداث السماوية التى وصفها علماء الفلك القدامى بما فيهم «بطليموس»، كما وضعت الجداول الفلكية التى جاءت كنتائج لهذه الدراسة. ولقد كانت شروحها على الكتاب الثالث من «المجسطى» (وربما الكتب التالية أيضاً) هى التى جعلت تحليلاتها للموضوعات الفلسفية والرياضية أكثر ثراءً وقوة ـ وهى الموضوعات التى أوحى بها والدها «ثيون» فى شروحه الأصلية. وعندما تطورت هذه التحليلات أصبحت الشروح، شروحها هى، ولهذا السبب فإننا نرى المؤرخين يقولون إن

والدها ينسب إليها هذه الشروح.

وتقع شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من كتاب بطليموس «المجسطى» أو المجموع الرياضى ـ فى الصفحات من ٨٠٧ حتى ٩٤٢ فى المجلد الثالث من الطبعة التى قام بنشرها الأب روم.. A.Rom. ولم تظهر لهذه الشروح حتى الآن أية ترجمة بلغة حديثة؛ لأن هذا الكتاب مازال يتحدى المترجمين بصعوبته، وتعقيداته؛ لأن فهم النص لا يحتاج فحسب إلى معرفة باللغة اليونانية السكندرية التى كانت سائدة فى القرن الخامس الميلادى، بل يتطلب كذلك إلماماً دقيقاً بالطبعات المبكرة لمؤلفات بطليموس، كما يتطلب أيضاً معرفة بالرياضيات والفلك المصرى القديم.

والواقع أننا إذا أردنا أن نقدر شروح «هيباشيا» على الكتاب الثالث من المجسطى فإن علينا أن نضع هذه الشروح فى سياقها التاريخي. لقد وضع بطليموس نظاماً لعلم الفلك مكتملاً إلى حدٍ ما، فكان التخطيط الهندسى للسماء كما يراه علماء الفلك يناظر تقريباً النظرية الهندسية، أما التعارضات بين النظرية والملاحظات الفلكية، فقد فسرها بطليموس بافتراضه البسيط الذى جعل الأرض مركزاً للكون، وظلت تلك هى النظرية المعتمدة حتى جاء كوبرنيكس Copernicus (١٤٧٣ ـ ١٥٤) عالم الفلك البولندى الشهير، فذهب إلى أن الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها. فهل قرأ كوبرنيكس تعليقات «هيباشيا» على الكتاب الثالث؟! أكان على علم بالانتقادات المنهجية التى وجهتها إلى بطليموس؟! الثابت، تاريخياً، أن كوبرنيكس ذهب إلى إيطاليا لدراسة علم الفلك، وأنه كان شغوفاً بقراءة

كل ما تستطيع يده أن تصل إليه عن علماء الفلك القدامى، ولا سيما بطليموس، كما أنه قرأ بإمعان الشروح التى كتبت عن بطليموس، أكان يمكن ألا يقرأ ما أسماه البعض أعظم شروح وصلت إلينا عن بطليموس، وأهمها، شروح ثيون وابنته «هيباشيا»؟! إن الثابت تاريخياً أيضاً أن كوبرنيكس سافر إلى فلورنسا فى الوقت الذى كانت فيه هذه الشروح مصنفة فى مكتبة لورنزودى مديتشى renzo di Midicilau برقم ١٨٠٢٨، فهل يمكن أن يكون قد زار فلورنسا، لكنه لم يتوقف عند مكتبة تضم أعظم النصوص القديمة وأشهرها فى إيطاليا؟! أيمكن ألا يكون قد قرأ «هيباشيا»؟!.

ثالثاً: شروح على كتاب

القطوع المخروطية Conic Section

يذكر «معجم سويداس» وكذلك سقراط المؤرخ، وفابريقوس وغيرهم - أن «هيباشيا» ألفت كتاباً عنوانه شروح على كتاب «القطوع المخروطية» لأبولونيوس البرجى Apolonuius of Pergaeus، والظاهر أن هذا الكتاب هو الوحيد الذى فقد من مؤلفات «هيباشيا» الثلاثة. ولقد قام عالم الفلك الإنجليزى الشهير إدموند هالى Edmund Halley (١٦٥٦ - ١٧٤٢)، فى نهاية القرن السابع عشر بتجميع النسخ العربية واللاتينية القديمة من كتاب «القطوع المخروطية» فى محاولة لإعادة تجميع النص الأصلى، وما كتب عليه من شروح، وتعليقات، وقد تعرف على شروح «هيباشيا» من بين ما جمعه من شروح، وإن كان قد وجد صفحة العنوان فقط دون أن يجد نص الكتاب نفسه، كذلك لم تنجح «مارى ويت»، فى العثور على المادة العلمية التى كان «هالى» يشتغل عليها، ومازال الأمل ضعيفاً فى العثور على هذا الكتاب الذى يتضمن شروح «هيباشيا» على النص الأصلى[1].

بقى أن نشير إلى اختراعين كثيراً ما ينسبهما المؤرخون إلى «هيباشيا»:

الاختراع الأول:

1- Ibid. P.191.

البلانسفير Plansisphere، وهى خريطة ذات ثلاثة أبعاد لنصف الكرة السماوية، ذات أداة تشير إلى الجزء المنظور منه فى وقت معين. أو الآلة الفلكية القديمة المسماة «الأسطرلاب.. Astrolabe» التى طلبها منها تلميذها سينسيوس Synesius، وقد أهداها سينسيوس بعد ذلك إلى باينوسوس Paeonius، وهو نبيل فى بلاط الإمبراطور فى القسطنطينية(١).

الاختراع الثانى:

يسألها سينسيوس فى الخطاب الخامس عشر إليها - أن تصنع له جهازاً لقياس الوزن النوعى للسوائل Baryllio، وهو نوع من الهيدرومتر terHydrome، وفى هذا الخطاب أول وصف وصل إلينا لهذا الجهاز(٢)، ويقول «تانرى» إن هذا الجهاز الذى ابتكرته «هيباشيا» كان يستخدم لمعرفة الأوزان المختلفة للسوائل التى يستخدمها المرضى بوجه خاص، حيث كان الطب القديم ينصح المرضى بتناول السوائل الأخف وزناً لأنها أفضل(٣).

1- Ibid. P.192.

١ - جورج سارتون: «العلم القديم والمدينة» ص١٦٧.

3- Mary E. Waithe. Op. Cit. P.192.

خاتمة...

تلك نبذة موجزة عن «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية التى ولدت فى جو ثقافى حرص عليه الملوك البطالمة، فدرست الفلسفة والرياضة والفلك وبزت أهل العصر فى هذه المعارف، فقد تمكنت من الفلسفة ولا سيما عمالقة الفكر اليونانى زينوفان وفيثاغورس وأفلاطون وأرسوط، ثم أفلوطين والأفلاطونية الجديدة، وحاضرت فى الميافيزيقا والإبستمولوچيا، وأمدتها الفكرة بالأسس النظرية التى استخدمتها فى تقييم النظريات الفلكية والهندسية، وكانت عقلاً ناضجاً شهيراً حتى قبل أن تصل إلى سن الثلاثين. لقد عاشت فى بيئة عقلية كانت تستبعد منها النساء، وعينت فى منصب لم تسبقها إليه امرأة قط: رئيسة لمدرسة الأفلاطونية الجديدة، وعرفت فى عصرها بالفيلسوفة العظيمة(١).

هذه «الفيلسوفة العظيمة» تعرضت للاضطهاد من جانب التعصب الدينى، أو الهوى الدينى بمعنىً أدق، فتمزقت أشلاء، وألقيت أطرافها المرتعدة - فيما يقول جيبون - فى لهب النار «... ثم أوقف البطريرك أو كبير الأساقفة سير التحقيق والعقاب العادل بالهدايا المناسبة. غير أن مقتل هيباشيا وصم أخلاق كيرلس السكندرى وديانته وصمة عار لا تزول ولا تمحى...»(٢). ويقول رسل: «وبعدئذ لم يعكر

1- Ibid. P.193

٢ - إدوارد جيبون «اضمحلال الامبراطورية الرومانية» - المجلد الثانى ص٥٠١.

الفلاسفة صفو الاسكندرية أبداً..»[1]. فقد رحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت «هيباشيا» إلى أثينا ليتقوا فيها الأذى. وكان التعليم غير المسيحى لا يزال حراً نسبياً، ولا يزال معلموه آمنين على أنفسهم من غيرهم فى المدن الأخرى[2].

غير أن الاهتمام بهذه المرأة الممتازة استمر فى الماضى وامتد، وإن كان على فترات متقطعة ولأسباب منوعة، ففى القرن السابع عشر كتب الأديب الفرنسى Gille Menage فى كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «قصيدة قصيرة عنوانها «فى الحكمة» يقول فيها:

«لا بد لكل من يشاهد، ويتامل بيتك الطاهر...

الخالى تماماً من كل زخرف أو زينة...

أن ينشغل بامر الثقافة...

حقاً، لقد انشغلت أنت بالسماء...

«هيباشيا»، أيتها المراة الحكيمة...

لغتك عذبة... ونجمك متالق فى سماء الحكمة...»[3].

وفى القرن التاسع عشر استغل الروائى الإنجليزى تشارلز كنجزلى (١٨١٩ ـ ١٨٧٥) Charles Kingsley أحداث حياتها فى رواية

---

١ ـ برتراندرسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» المجلد الثانى ١٠٣ ترجمة د. زكى نجيب محمود ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢. عام ١٩٦٨.

٢ ـ ول ديورانت: «قصة الحضارة» ـ المجلد الثانى عشر ص٢٤٨.

3- Ethel M. Kersey: Women Philosophers. P.16.

اسمها «هيباشيا». ولما كان قد عمل هو نفسه أستاذاً للتاريخ بجامعة كيمبردج فقد كان لديه حس تاريخى واضح - وإن لم يكن دقيقاً على الدوام - فأصدر «هيباشيا» عام ١٨٥٣ وفيها يعود بالزمن إلى الوراء ليصور مدينة الإسكندرية فى بداية القرن الخامس الميلادى حيث نرى شاباً مسيحياً اسمه فيلامون Philammon يأتى من الصحراء إلى المدينة منجذباً بقوة ليتعلم على يد «هيباشيا» فى المتحف. وهنا يصور الكاتب مدينة الإسكندرية فى شىء من التفصيل، ويقدم وصفاً وصوراً جيدة للمدينة وشوارعها المزدحمة، ومشاكل الحياة فيها فى ذلك الوقت، كما يصور الأديب ثورة الجمهور الغاضب والقوى المترمدة - وينتهى بتصوير اغتيال «هيباشيا». عندئذ يعود الشاب فيلامون مرة أخرى إلى الصحراء التى جاء منها.

والواقع أن الكاتب أراد تصوير الصراع الذى حدث بين المسيحية - وهى تمكن لنفسها فى بداية عهدها - وبين الفلسفة اليونانية على نحو ما حدث فى مدينة الإسكندرية فى القرن الخامس الميلادى(١).

وتزايد الاهتمام «بهيباشيا» مع نشأة الحركة النسائية، والبحث المتزايد عن الجهود النسائية فى الماضى، وجمع الوثائق التى تثبت إسهامات النساء فى النشاط الأدبى أو الفلسفى أو العلمى. وحديثاً ظهرت جريدة فى الفلسفة النسائية تحمل اسم «هيباشيا» تكريماً

1- Chamber's Enceclopedia Vol.8.

وانظر أيضًا الادب الإنجليزى - تاليف ج. ثورنلى، وترجمة أحمد الشويخات ص١٨٤ - دار المريخ بالرياض.

للجدة الأولى[1].

وهى «مجلة فلسفية» رئيسة تحريرها مارجريت سيمونز Maronsgarel Sim، وتصدرها جامعة الينوى فى الولايات المتحدة الأمريكية[2].

وفى النهاية لا بد أن نقول مع جورج سارتون إن هذه المرأة العظيمة. «كان لها شرف مزدوج: فهى أول من اشتغل بالرياضيات من النساء ـ وهى من أوائل الذين استشهدوا فى سبيل العلم...»[3].

1- Ethel M. Kersery: Op. Cit.

٢ ـ انظر الحركة النسائية والفلسفة ـ عدد أصدرته الجمعية الفلسفية الأمريكية فى نوفمبر ١٩٨٧ «on Feminism and Philosophy».

٣ ـ جورج سارتون «العلم القديم والمدينة الحديثة» ص١٦٨.

خـــاتمـــــة البحث ...

عرضنا في هذا الكتاب – على مدى ثمانية فصول – لمجموعة من «النساء ... الفلاسفة» في العالم القديم، في محاولة أردنا بها أن نرفع الغشاء عن عين المرأة التي تحجب عنها الرؤية ليكون بصرها اليوم حديداً، فتسترد ثقتها بنفسها، وتأخذ دورها في بناء المجتمع مع الرجل جنباً إلى جنب. ولن يتم ذلك كله إلا إذا أثبتنا رجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وقدرتها على التفكير العلمي التي لا تقل عن قدرة الرجل، ولاسيما في مجال التفلسف الذي يبدو حقلاً مغلقاً مقتصراً على الرجال وحدهم، وبذلك نهدم الفكرة السائدة والساذجة معاً عن «العقلية النسائية الضعيفة الناقصة، وتنتهي إلى إلغاء تلك الفكرة العقيمة التي تشطر العقل البشري شطرين «رجالي» و«نسائي».

ونود في هذه الخاتمة أن نشير إلى أمرين هامين:

الأمر الأول:

هو أنه من الطبيعي أن تكون البدايات الأولى للتفلسف عند المرأة بسيطة وساذجة، فقد تتألف من عبارات قليلة أو شذرات متناثرة هي التي بقيت لنا، وقد تدور حول موضوع بسيط، أو تكتفي بمد فكرة ما إلى مجالات أوسع كما حدث لنساء الفيثاغورية، لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهننا عدة أمور:

أ – أنه هكذا كانت بدايات التفلسف عند الفلاسفة الأول من الرجال بسيطة وساذجة، كالماء هو أصل الأشياء «مثلاً عند

طاليس أول الفلاسفة، بل إن العبارة نفسها مأخوذة من الفكرة المصرية عن النيل الذى كان يكون جزراً تخرج من جوفه باستمرار فضلاً عن الدلتا – وهى الفكرة التى نقلها طاليس عندما عاش فى مصر، وتعلم من كهنتها!

ب – عندما تتعدل الظروف الاجتماعيةللمرأة فى العالم الحديث، فسوف نجد فكراً أوضح فى القرن السابع عشر حتى يصل إلى القمة فى القرن العشرين، وسوف نعرض فى الجزء الثانى من هذا الكتاب «نساء ... فلاسفة» فى العالم الحديث لفلاسفة من أمثال: «مارجريت كافنديش Margaret Cavendish» (١٦٢٣–١٦٧٣) الفيلسوفة الإنجليزية التى كتبت فى «الفلسفة الطبيعية»، و«كرستينا فازا Kristina Wasa» (١٦٢٦– ١٦٨٩) ملكة السويد الشهيرة تلميذة ديكارت التى دعته إلى استكهولم عام ١٦٥٠، وتعلمت على بنية الفلسفة الديكارتية، و«آن فينش كونواى Anne Finch Conway» (١٦٣١ – ١٦٧٩) التى أثرت بقوة فى «ليبنتز»، حتى أن من الباحثين من يرد إليها فكرة «المموناد Monad» الشهيرة فى فلسفة ليبنتز! حتى نصل إلى أسماء لامعة فى القرن العشرين من أمثال: مارى وارنوك Mary Warnock، وسوزان ستبنج، وسوزان لانجر، وسيمون دى بوفوار، وحنة أرندت وغيرهن.

جـ – إن الهدف كما قلنا هو أن نثبت عن طريق تقديم أمثلة، من حقل الدراسات الفلسفية وهو أعلى درجات التجريد – أنه

كان للمرأة إسهامات فى هذا الحقل المجرد، وبالتالى أن عقلها لا يقل فى قدرته عن عقل الرجل، وإنما الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، وسيطرة الرجل وطغيانه هى التى منعت هذه القدرة من الظهور. وكما سبق أن ذكرنا فى المدخل فإن المثال «السلبى» الواحد – أى الذى يهدم دونية المرأة – يحطم عشرات الأمثلة الإيجابية – فمالك لو كان لدينا مئات من الأمثلة، طوال التاريخ، على قدرة المرأة!

د – أننا بذلك كله نثبت ما أكدته الآية الكريمة عن رجاحة العقل، وسداد الرأى، وقوة الحجة، وبراعة التفكير عند المرأة ممثلة فى بلقيس ملكة سبأ، والتى يتغاضى عنها كثير من الرجال. فنحن لا نخرج أبداً عما جاء به الإسلام، بل نؤكده بشواهد من التاريخ، ونماذج من «النساء ... الفلاسفة فى العالمين القديم والحديث».

أما الأمر الثانى الذى نود أن نشير إليه، بإيجاز، فى هذه الخاتمة فهو أننا لم نحاول فى هذا الكتاب، إجراء حصر شامل لكل «النساء ... الفلاسفة فى العالم القديم»، وإنما أردنا فقط تقديم نماذج لقدرة المرأة على التفلسف. فلم نذكر، مثلاً، من النساء الفيثاغوريات سوى ثلاث نساء من الفيثاغورية المبكرة، وثلاث من الفيثاغورية المتأخرة، فى الوقت الذى يذكر فيه ميناج G.Menages فى كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء «ست وعشرين فيلسوفة فيثاغورية»، ولم نذكر مثلاً امرأة واحدة من أهل الرواق، مع أنه يذكر أربع نساء رواقيات فى الفصل العاشر من كتابه. ولم نذكر شيئا عن النساء الأبيقوريات، مع أنه يذكر

منهن ثلاث! ولم نذكر من النساء الأفلاطونيات سوى امرأة واحدة هى «هيباشيا» فيلسوفة الإسكندرية، مع أنه يذكر منهن سبع نساء فى الفصل الثامن، أما الفصل الأول فهو يذكر عشرين فيلسوفة!

ومعنى ذلك كله أننا نقدم نماذج أو شواهد من تاريخ الفلسفة على قدرة المرأة على التفلسف لتكون شموعا أمام المرأة العربية تنير لها طريق التقدم والازدهار.

مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية

١ – د. أحمد فؤاد الأهوانى «فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط» عيسى البابى الحلبى، بالقاهرة، عام١٩٥٤ .

٢ – إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ترجمة محمد على أبو درة، ومراجعة أحمد نجيب هاشم – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٣ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفلاطون ... والمرأة» العدد الأول من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة» – مكتبة مدبولى ط ٢، القاهرة ١٩٩٦.

٤ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «أرسطو ... والمرأة» العدد الثانى من سلسلة «الفيلسوف ... والمرأة» – مكتبة مدبولى، بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٥ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «الفيلسوف المسيحى ... والمرأة» – العدد الثالث من سلسلة «الفيلسوف ...والمرأة» مكتبة مدبولى، بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦.

٦ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «أفكار ... ومواقف» الطبعة الأولى، مكتبة مدبولى، بالقاهرة عام ١٩٩٦.

٧ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الإستبداد السياسى» عالم المعرفة عدد ١٨٣.

٨ – د. إمام عبد الفتاح إمام: «مسيرة الديمقراطية ... رؤية فلسفية» دراسة فى مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن الديمقراطية، أصدره المجلس الوطنى للثقافة والفنون بالكويت.العدد الحادى والعشرون عام ١٩٩٣.

٩ – أرسطو «الخطابة» ترجمة. د. عبد الرحمن بدوى – دار الشئون الثقافية العامة – بغداد عام ١٩٨٦.

١٠– أميرة حلمى مطر: «الفلسفة عند اليونان» دار الثقافة، بالقاهرة، عام ١٩٨٦.

١١– افلاطون «محاورة الجمهورية» ترجمة. د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة.

١٢– أفلاطون «محاورات أفلاطون» ترجمة. د. زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٣– افلاطون: «المأدبة» ترجمة. د. وليم الميرى، دار المعارف بالقاهرة.

١٤– أفلوطين: «التساعية الرابعة» ترجمة. د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة.

١٥– أوفيد: «مسخ الكائنات» ترجمة.د. ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة، عام ١٩٨٤.

١٦– برتراند رسل: «تاريخ الفلسفة الغربية» الجزء الأول، ترجمة. د. زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

١٧– تشارلز الكسندر روبنصن: «أثينا فى عهد بركليس» ترجمة. د.

أنيس فريحة، مكتبة لبنان عام ١٩٦٦.

١٨- عباس محمود العقاد: «أثر العرب فى الحضارة الأوروبية» دار المعارف، بمصر عام ١٩٤٦.

١٩- عبد الغفار مكاوى: «هلدرلين» نوابغ الفكر الغربى، العدد رقم ٢١، دار المعارف بمصر.

٢٠- سارتون (چورچ): «العلم القديم والمدينة الحديثة» ترجمة. د. عبد الحميد صبره معاجم ودوائر معارف:

- عبد الرحمن بدوى: «موسوعة الفلسفة» مجلدات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، عم ١٩٨٤.

- چورچ طرابيشى: «معجم الفلاسفة» دار الطليعة، بيروت.

- «الموسوعة الفلسفية المختصرة» بإشراف د. زكى نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1 - Peter Gorman: "Pythagoras: A Life" Routledge & Kegan Paul1979,P.120.

2 - Diogenes Laertius: "Lives of Eminent Philosophers" Translated by R. D. Hieks, Harvard University Press,1979,P.27.

3 - G. Menages: "The History of Women Philosophers" Eng. Trans. by Beatrice H. Zedler.

4 - Mary Ellen Waithe: "A History of Women Philosophers" Vol.1.Kluwer Academic Publishers.

5 - James Donaldson: Women: "Her Position and Her Infleunce in Ancient Greece and Rome, N.Y.1973.

6 - Plato: Menexenus:

7 - Thucydides: History of The Peloponnesian War, Eng, Trans. By Rex Warner, 1954. Penguin Classics.

8 - The Dialogues of Plato, Vol.1.Trans.By R.E. Allen,Yale University Press.1984.

9 - Stanley Rosen: Plato's Symposium, Yale Uni-

versity,1987.

10 - Mary Ellen Waithe: "A History of Women Philosophers",Vol.1.P.108.

11 - Xenophon: Memorabilia of Socrates Book 111,ch x1.

12 - A. E. Taylor: Plato: "The Man and His Work Methuen",1926, P.224.

13 - A. E. Taylor: Socrates, Greenwood Pres,1975.

14 - Beatrice H. Zedler: "Julia Domna in A History of Women Philosophers" Vol.1.P.117.

15 - Ethel M. Kersey: "Women Philosophers".A Bio-Critical Source Book, Green Wood Press N.Y. 1989,P.137.

16 - Cornelia W. Walfskeel: Makrina.

17 - Plato : Timacus 69 - C.

18 - Phaedo, 105 - C.

مؤلفات الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

أولاً - التأليف:

١ - المنهج الجدلى عند هيجل «طبعة أولى دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ - طبعة رابعة دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (العدد الثانى من المكتبة الهيجيلية) مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٢ - «مدخل إلى الفلسفة» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢ - طبعة خامسة ١٩٨٢ - طبعة سادسة مؤسسة عالم الكتب بالكويت عام ١٩٩٣.

٣ - «كيركجور: رائد الوجودية» المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت ١٩٨٣ العدد الثانى من سلسلة الفكر المعاصر.

٤ - «دراسات هيجيلية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (سلسلة المكتبة الهيجيلية) - طبعة ثالثة، مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٥ - «توماس هوبز: فيلسوف العقلانية» طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثالثة عام ١٩٩٣- طبعة رابعة ١٩٩٦ مكتبة مدبولى.

٦ - «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الأول «جدل الفكر» دار التنوير عام

١٩٨٥ طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ٨ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).

٧ - «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الثانى «جدل الطبيعة» دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).

٨ - «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الثالث «جدل الإنسان» دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية).

٩ - «دراسات فى الفلسفة السياسية عند هيجل» طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ طبعة ثالثة - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

١٠ - «كيركجور: رائد الوجودية» المجلد الثانى: فلسفته - طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٦ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.

١١ - «أفلاطون ... والمرأة» طبعة أولى حوليات كلية الآداب جامعة الكويت عام ١٩٩٢، طبعة ثانية مكتبة مدبولى بالقاهرة (سلسلة الفيلسوف والمرأة).

١٢ - «رحلة فى فكر زكى نجيب محمود» دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣.

١٣ - «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى» سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٨٣ - ١٩٩٤.

ثانيًا- بحوث ودراسات:

١ - «المقولات بين أرسطو وكانط وهيجل» ... دراسة بحوليات كلية التربية بجامعة الفاتح بليبيا عام ١٩٧٦.

٢ - «مفهوم التهكم عند كيركجور» ... دراسة بحوليات كلية الآداب - جامعة الكويت عدد رقم ١٩ عام ١٩٨٣.

٣ - «الهيجيلية» ... دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الإنماء العربى بيروت.

٤ - «الهيجيلية الجديدة» ... دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الإنماء العربى بيروت.

٥ - «الفلسفة الثنائية عند زكى نجيب محمود» ... عالم الفكر بالكويت المجلد العشرين العدد الرابع يناير ١٩٩٠.

٦ - «مسيرة الديمقراطية: رؤية فلسفية» ... مجلة عالم الفكر بالكويت يناير عام ١٩٩٤.

٧ - «هيباشيا: فيلسوفة الإسكندرية» ... مجلة عالم الفكر بالكويت المجلد الثانى والعشرين يونيو ١٩٩٤.

ثالثا- الترجمة:

١ - «الجبر الذاتى» ... رسالة كتبها بالإنجليزية الدكتور زكى نجيب محمود - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٢.

٢ - «العقل فى التاريخ» ... لهيجل - طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢، وطبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٠ - وطبعة رابعة ١٩٩٣ (العدد الأول فى سلسلة المكتبة الهيجيلية).

٣ - «روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط» ... اتين جلسون - دار الثقافة عام ١٩٧٢.

٤ - «فلسفة هيجل» ... تأليف ولتر ستيس المجلد الأول «المنطق وفلسفة الطبيعة» دار التنوير عام ١٩٨٣ وطبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الثالث من المكتبة الهيجيلية).

٥ - «فلسفة هيجل» ... تأليف ولتر ستيس المجلد الثانى «فلسفة الروح» الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣ والرابعة ١٩٩٣ (العدد الرابع من المكتبة الهيجيلية).

٦ - «أصول فلسفة الحق» ... لهيجل المجلد الأول طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨١ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣. طبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الخامس من المكتبة الهيجيلية)، طبعة خامسة - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٧ - «موسوعة العلوم الفلسفية لهيجل» ... طبعة أولى عام ١٩٨٣ دار التنوير

بيروت. طبعة ثالثة ١٩٩٣ (العدد السادس من سلسلة المكتبة الهيجيلية) طبعة رابعة - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

٨ - «العالم الشرقى» ... المجلد الثانى من محاضرات فى فلسفة التاريخ لهيجل العدد التاسع من سلسلة المكتبة الهيجيلية طبعة أولى ١٩٨٥ - طبعة ثانية ١٩٩٣.

٩ - «الوجودية» ... تأليف جون ماكورى سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٥٨ أكتوبر ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٧.

١٠ - «أصول فلسفة الحق لهيجل» ... المجلد الثانى دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ سلسلة المكتبة الهيجيلية - مكتبة مدبولى بالقاهرة.

١١ - «هيجل والديمقراطية» ... تأليف ميشيل متياس - دار الحداثة بيروت عام ١٩٩٠.

١٢ - «المعتقدات الدينية لدى الشعوب» ... تأليف جوفرى بارندر - سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣.

رابعًا- مراجعة:

١ - «الموت فى الفكر الغربى» تأليف جاك شورون: ترجمة كامل يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٧٦ إبريل ١٩٨٤.

٢ - «الفلاسفة الإغريق: من طاليس إلى أرسطو» تأليف وجنرى.ترجمة د. رأفت حليم سيف - دار الطليعة بالكويت عام ١٩٨٥.

٣ - «الفكر الشرقى القديم» - تأليف جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت - عدد ١٩٩.

خامسًا- التأليف بالاشتراك:

١ - «المنطق ومناهج البحث العلمى» للصف الثالث الثانوى بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية الليبية عام ١٩٧٧.

٢ - «دراسات فلسفية» للمستوى الرفيع بتكليف من وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام ١٩٩٢.

سادسًا- الترجمة بالاشتراك:

١ - «أسس الليبرالية السياسية» لجون ستيوارت مل، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور ميشيل متياس المجلد الأول - مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦.

سلسلة «الفيلسوف... والمرأة»

بإشراف الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

تصدرها مكتبة مدبولى بالقاهرة

★★★ صدر منها:

١ - «أفلاطون ... والمرأة»	بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
٢ - «أرسطو ... والمرأة»	بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
٣ - «الفيلسوف المسيحي ... والمرأة»	بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام
٤ - «نساء فلاسفة» .. فى العالم القديم»	بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام

★★★ يصدر فى الأعداد القادمة :

* «جون لوك ... والمرأة»	بقلم. د/إمام عيد الفتاح إمام
* «نساء فلاسفة .. فى العالم الحديث»	بقلم. د/إمام عبد الفتاح إمام

هذا الكتاب

هذا الكتاب – وهو العدد الرابع من سلسلة «الفيلسوف . . والمرأة» – دعوة إلى المرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها، وتنفض عنها غبار السنين الطويلة من الجهل والتخلف. إنه دعوة لنبذ فكرة أرسطو الساذجة التى تزعم « أنَّ عقل المرأة أضعف من عقل الرجل» ، وأن تفكيرها يغلب عليه العاطفة والانفعال، وأن أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور، وتنقصها الرَّوِيَّة والتدبر. فلا الدين يقول شيئاً من ذلك، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ يشهد بصحة شئ منه!

وهو يعرض «لنساء فلاسفة. . من العالم القديم» : من الفيثاغورية المبكرة «ثيانو زوجة فيثاغورس التى تولت رئاسة المدرسة بعد وفاة زوجها، وأريجنوت، وميبا» ، ومن الفيثاغورية المتأخرة «إيزارا، وفينتس، ثم إسبازيا، وديوتيما معلمة سقراط، وماكرينا، وهيباشيا فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة، وغيرهن.

على أن يتلوه، بإذن الله، كتاب آخر يعرض لنماذج من «نساء فلاسفة .. فى العالم الحديث» ، من أمثال مارجريت كافنديش، وكريستينا ڤازا، وغيرهن فى القرن السابع عشر حتى نصل إلى أسماء لامعة فى القرن العشرين من أمثال: مارى وارنوك، وسوزان ستبنج، وسوزان لانجر، وسيمون دى بڤوار وغيرهن.

وسوف تشعر المرأة العربية بعد اطلاعها على هذين الكتابين أنَّ ضَعْفَ العقل عند الأنثى ليس سوى«خرافة» ابتكرها الرجل ليُحْكِمَ سيطرته عليها!.

الناشر